الأنثى هي الأصل

نوال السعداوي



الأنثى هي الأصل

الأنثى هي الأصل

تأليف
نوال السعداوي



الأنثى هي الأصل

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٣٧٧ ٤

المحتويات

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي اللي مش معقولة.

– ازاي؟

– إيه يهمك من عمري؟
– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[١]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[١] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

إهداء

إلى الدكتور شريف حتاتة أحد الرجال العظماء القلائل الذين قابلتهم في حياتي.

نوال السعداوي

فبراير ١٩٧٤

مقدمة

دق جرس التِّليفون السَّاعة الواحدة صباحًا في بيتي، كانت الليلة باردة والسَّرير دافئًا، وترددت في رفع سماعة التليفون؛ فقد أغلقت عيادتي الطبية ولست مسئولة (هكذا تصورت وأنا تحت الأغطية الصوفية) عن أي نوع من المرضى الآن، سواء كانوا مرضى بأجسامهم أو نفوسهم. وشددت الغطاء فوق رأسي، لكن الجرس ظل يرن في سكون الليل، وتذكرت على الفور أنها لا بدَّ إحدى هؤلاء النساء أو البنات اللائي أصبحت في السنين الأخيرة (منذ صدور كتاب المرأة والجنس) ملجأ لهن ولمشاكلهن النفسية والجسمية ... ورفعت السماعة بسرعة ... وجاءني الصوت النسائي باللهجة والنبرة واللهفة التي ألفتها أذناي، والتي بددت إلى الأبد الراحة في حياتي.

قالت: أنا فاطمة. كِدت أن أسأل: فاطمة من؟ لكن تذكرت أنها لا بدَّ أن تكون إحدى الفاطمات اللاتي قابلتهن في أية ظروف.

قلت: نعم يا فاطمة؟ ...

قالت: سأموت يا دكتورة ...

سألتها: لماذا؟

قالت: ألا تذكرين حين جئت إليك في بيتك؟

كدت أخطئ مرة أخرى وأقول لها: لا أذكر.

لكني قلت: ولكن ما الذي حدث الآن؟

قالت: سأقتل نفسي الآن.

قلت: أرجوك، اهدئي يا فاطمة، وفي الصباح تعالي إليَّ لأفهم الموضوع.

قالت: لن أنتظر الصباح يا دكتورة، لن أنتظر شيئًا بعد الآن، لم أعد أحتمل!

وانفجرت في البكاء، وحاولت أن أهدئها، ونجحت في إقناعها بتأجيل عملية الانتحار حتى تأتيني في الصباح.

وجاء الصباح، ولم تأتِ هي، ولم تتصل بي في التليفون، وتصورت أنها انتحرت فعلًا، وأنني كان يمكن أن أنقذها حين لجأت إليَّ، وبدأت ألوم نفسي، لكن صوتها جاءني من خلال التليفون بعد أيام قليلة ... كان صوتًا متعبًا منخفضًا متلعثمًا ينم عن لسان ثقيل مخدر ... قالت إنها تكلمني من حجرتها بإحدى المستشفيات النفسية، وأن الطبيب أعطاها صدمة كهربية منذ ساعات، وأن أسرتها هي التي أخذتها إلى المستشفى بعد إنقاذها من محاولة الانتحار، وطلبت منِّي أن أذهب إليها لتتحدث معي. وفعلًا ذهبت إليها بالمستشفى، وفي أكثر من ثلاث ساعات حكت لي قصتها ... بينما هي تحكي أدركت مأساتها ومأساة معظم النساء والفتيات ذوات المشاكل النفسية اللائي كن يترددن على عيادتي أو بيتي أو مكتبي في مجلة الصحة، وكان معظمهن يتمتعن بذكاء واضح، المأساة كما أدركتها هي أن المرأة من هؤلاء تشعر أنها غير مفهومة على حقيقتها، وأن أقرب الناس إليها لا يفهمها؛ كالأب أو الأم أو الأخ أو الأخت أو الصديق أو الحبيب أو الزوج أو الأستاذ في الكلية أو الرئيس في العمل أو حتى الطبيب النفسي الذي تلجأ إليه أو تأخذها أسرتها إليه ...

وبينما كانت فاطمة تحكي مأساتها كانت الفكرة تتجمع في رأسي، فكرة أن أقوم ببحث جديد لمحاولة معرفة حقيقة المرأة، نفسًا وجسدًا. ولقد راودتني الفكرة منذ ثمانية عشر عامًا حين كنت طبيبة امتياز بمستشفى القصر العيني، واخترت قسم الأمراض النفسية لأعمل فيه بضعة شهور، لكني هجرت الفكرة وهجرت معها قسم الأمراض النفسية بعد أن عجزت عن الاقتناع بآراء أستاذ القسم وبتلك الصدمات الكهربية التي تُعطى لكثير من المرضى والمريضات.

والحقيقة أنني حين هجرت هذا القسم لم أهجره إلا بجسمي فقط؛ لأنني ظللت أعيش فيه بمشاعري وتفكيري، كنت أشعر أن الرابطة التي تربطني بالمريضات أقوى من تلك التي تربطني بالأطباء.

وبعد مرور ثمانية عشر عامًا أجدني أجلس في قسم الأمراض النفسية (بكلية طب عين شمس هذه المرة). المكان مختلف، والزمن مختلف، والأستاذ مختلف، لكن الأشياء كلها تبدو مألوفة، وكأن ثمانية عشر عامًا لم تمر. كل الأشياء متشابهة، لكن الفكرة في رأسي مسيطرة عليَّ تمامًا، ووجه فاطمة، بل وجوه الفاطمات والزينبات والعائشات والخديجات اللائي قابلتهن في عيادتي أو بيتي أو مكتبي أو في العيادات أو المستشفيات النفسية، هذه الوجوه أمامي، عيونهن البائسة تلح عليَّ أن أفعل شيئًا، أي شيء!

ولم يكن أمامي شيء أفعله سوى أن أستخدم العلم، إن العلم هو السلاح الوحيد في يدي الذي أستطيع أن أستخدمه، إن العلم هو الذي يمكن أن يقف في وجه الجهل. ومنذ تلك اللحظة صممت على إجراء بحث علمي (نفسي وجسمي) عن ذلك المخلوق غير المفهوم الذي اسمه «المرأة».

إن حماسي للعلم هذا لا يعني أنني من هؤلاء الذين يقدسون الحقائق العلمية؛ فالحقائق العلمية كالحقائق التاريخية والسياسية، تتغير على الدوام بتطور عقل الإنسان وقدرته المتزايدة على كشف الحقيقة المزيفة من الحقيقة غير المزيفة.

والحقيقة المقدسة في زمن من الأزمان قد تصبح في زمن آخر حقيقة غير مقدسة أو غير صحيحة بالمرة.

هذه ميزة الإنسان على الحيوان، إن الإنسان له عقل، وأمام عقل الإنسان ليس هناك حقائق ثابتة. كان هناك وقت حين كان تكوين العالم، والأرض والشمس والقمر والنجوم كلها من الحقائق الثابتة المقدسة، لكن العلماء من أمثال كيبلر وكوبرنيكس وجاليليو وباسكال استطاعوا أن يغيروا هذه الحقائق. وبالرغم من أنهم أُدينوا ووُضعت كتبهم في قوائم الكتب المعدومة منذ ثلاثة قرون من الزمان، إلا أن عقولهم رفضت التسليم بالحقائق الثابتة. وإلى عهد قريب كان يُدان العلماء الذين يبحثون عن حبوب لمنع الحمل، لكن ذلك لم يمنع اكتشاف حبوب منع الحمل من بعد، وإقبال معظم المجتمعات عليها الآن. وكم يُدان في أيامنا الحاضرة هؤلاء الذين يخوضون موضوعات يرى بعض الناس أنها غير قابلة للمناقشة، ثُمَّ يأتي المستقبل وتصبح الأفكار غير المقبولة مقبولة. كل شيء أمام عقل الإنسان قابل للمناقشة والتغيير والتطوير ... ولهذا السبب تتقدم الحياة الإنسانية تقدُّمًا مستمرًّا، تبقى حياة الحيوان كما هي.

وقد يتوقع بعض الناس أن هذا البحث الذي أقدمه عن المرأة يخص المرأة وحدها، ويخص الأسرة مثلًا أو الأطفال أو الأزواج، أو المشكلات العاطفية أو الجنسية أو النفسية التي تقفز إلى الأذهان بمجرد ذكر كلمة «امرأة». وقد تعودنا أن تُدرج البحوث عن المرأة في ذيل قائمة البحوث أو في البحوث الخاصة المحدودة بقطاع معين والمحدودة بمشاكل معينة ضيقة، هي دنيا المرأة الضيقة التي لا تخرج عن مشاكل الأسرة والأطفال، ولا ترقى إلى المشاكل الكبرى السياسية أو القضايا الإنسانية العامة مثل قضية الحرية أو قضية الاشتراكية أو العدالة أو غيرها؛ لكن المتعمق في أي بحث عن المرأة والمتحرر من النظرة المحدودة إلى المرأة كوعاء للإنجاب، يدرك أن أي بحث عن المرأة إنما هو بحث يمس جوانب

الحياة جميعًا، هو أحد القضايا العامة الهامة، هو بحث سياسي بالدرجة الأولى، لا يفترق في قليل أو كثير عن قضية البحث عن الحرية أو البحث عن الحقيقة.

إن هدف أي بحث علمي (عن المرأة أو الرجل أو أي شيء آخر) هو البحث عن الحقيقة، والبحث العلمي الذي لا يهدف — أوَّلًا وأخيرًا — إلى البحث عن الحقيقة يصبح بحثًا غير علمي، أو بحثًا أجوف، يستوفي جميع شروط البحث العلمي من ناحية الشكل فحسب، أمَّا المضمون فهو فارغ أجوف. وكم تكتظ جامعاتنا كل عام بمئات البحوث العلمية الشكلية الجوفاء؛ حيث إن الهدف في معظم الأحيان ليس هو البحث عن الحقيقة وإنما هو الحصول على الشهادة أو الدرجة العلمية. وكم يُصاب «الباحث» أو «الباحثة» عن الحقيقة، وليس عن الشهادة، بعقبات وحواجز قد تدفعه في النهاية إلى صرف النظر عن البحث، اللهم إلا إذا كان جبَّارًا في عناده، شديد الرغبة والحماس لهذه القضية التي يبحث فيها.

إن القدرة على التفكير النقدي نادرة في بحوثنا العلمية، هذه القدرة على التفكير النقدي تقتضي ثقة بالنفس وشجاعة وحرية، وهذه الصفات الثلاثة لا تغزو الإنسان فجأة بمجرد اتخاذه قرارًا بإجراء بحث علمي، لكنها صفات تنمو مع الإنسان بالتدريج منذ الطفولة وفي مراحل العمر المختلفة، أو تُقتل في الإنسان، وبالتدريج أيضًا، منذ الطفولة وفي مراحل العمر المختلفة.

إن الباحث عن الحقيقة في أي مجال لا بدَّ أن يكون مُحرَّرًا من الخوف والأفكار المسبقة المتسلطة … وكم من أفكار متسلطة يحتوي عليها العلم في أي فرع من الفروع، وبالذات علم النفس، وعلى الأخص علم النفس الخاص بالمرأة … وكم يشعر الباحث العلمي برهبة أمام تلك الكتب الضخمة والآراء والأفكار التي أصبحت مقدسة؛ وبسبب عجزه عن التفكير النقدي النابع من ذاته فإنه يختار الطريق السهل الممهد الذي سار فيه الآلاف ممن سبقوه.

إن قمع التفكير الذاتي الأصيل النابع من نفس الباحث، وإن الالتزام بالموضوعية المفهومة فهمًا محدودًا ضيِّقًا، كل ذلك يسلب البحث العلمي أصالته وقدرته على خلق الجديد من الفكر، وكما يقول «إريك فروم»: إن الذاتية الأصيلة الصادقة أكثر موضوعية من الموضوعية التقليدية التي يفقد الإنسان فيها تفكيره الأصيل ويصبح تفكيره نمطًا مشابهًا للآخرين.

الموضوعية إذن ليست هي قمع التفكير الذاتي، ولكن الموضوعية إذن هي ألا يكون الإنسان متأثِّرًا بآراء الغير وأفكارهم، وأن يكون قادرًا على التفكير الحر في الظواهر التي يراها ويكتشفها ... وبمعنًى آخر أن يناضل الإنسان ضد الأفكار العلمية المتوارثة، وأن يصبح بتفكيره الأصيل فوق العلم.

وكم هو نادر وصعب أن يشعر الباحث العلمي أنه فوق العلم، ولكن لا بدَّ أن يصبح الإنسان فوق العلم ليستطيع أن ينقذه، هذا الصعود فوق العلم لا يقتضي فحسب الإلمام وتجميع المعلومات في العقل كأي مرجع ضخم، ولكنه يقتضي أيضًا تلك القدرة النفسية في الإنسان على استخدام عقله والتفكير بلا خوف وبلا رهبة.

وفي موضوع المرأة بالذات، وفي مجتمعاتنا العربية بالذات، يشعر الباحث (أو الباحثة العلمية) أنه يسير في أرض مليئة بالألغام، وأنه في كل خطوة من خطواته يصطدم بالأسلاك الكهربية العارية، والمقدسات الحساسة في المجتمع. ولا يمكن لأي باحث أن يُجري بحثًا علميًّا طبيًّا أو نفسيًّا في أي شيء يتعلق بالمرأة إلا وبرزت أمامه الأفكار والتقاليد الدينية (التي هي في أغلبها ليست من صميم الدين ولا في جوهره)، وكم يستخدم بعض الناس الدين سلاحًا مشهرًا في وجه أي باحث أو باحثة عن الحقيقة، ولكني أشعر بقوة أمام هؤلاء الناس؛ فالدين الحق لا يفرِّق بين إنسان وإنسان، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين فقير وغني، ولا بين أسود وأبيض. والدين الحق لا يقول للناس اكذبوا وأخفوا مشاعركم الحقيقية، أو زاولوها سرًّا في الخفاء وأظهروا العفة أمام الناس. الدين الحق ضد الكراهية، ومع الحب؛ الحب الصادق النابع من النفس، وليس الحب المفروض لسبب اقتصادي أو اجتماعي. الدين الحق مع سعادة الإنسان وصحته الجسمية والنفسية، ولا يمكن للدين الحق أن يكون ضد سعادة الإنسان وضد صحته الجسمية أو النفسية. الدين الحق مع الحقيقة، ومع أي إنسان يحاول الوصول إلى الحقيقة.

وهذا البحث هو محاولة للوصول إلى حقيقة المرأة، ماذا نعني حين نقول «امرأة»؟

إنها محاولة لتعرية نفس المرأة، وفهمها فهمًا إنسانيًّا. قال لي أحد الأساتذة حين قلت له الهدف من بحثي: ستجرين بحثًا علميًّا أم ستكتبين رواية فنية؟!

وبدأ يحدِّثني عن الفرق بين العلم والفن، لكن كلامه لم يقنعني؛ فأنا لا أومن بتلك الفروق الموضوعية بين العلم والفن، كلاهما يهدف إلى كشف الحقيقة، وكلاهما يتطلب القدرة على الخلق. إن معظم الناس يستمتعون بالفن أكثر من استمتاعهم بالعلم؛ لأنهم يشعرون أن الفن يخاطبهم ويعاملهم كبشر لهم مشاعر، أمَّا العلم فيجدونه ثقيلًا معقَّدًا

باردًا برود الآلات الحديدية. والسبب في كل ذلك — كما يدَّعي العلماء — لأن العلم موضوعي عاقل، والموضوعية والعقل تستدعي البرودة، وأن الفن ذاتي يخاطب المشاعر لا العقل؛ وبالتالي فهو دافئ قريب من الإنسان، والحقيقة — في رأيي — غير ذلك، فالإنسان وحدة واحدة، وليس هناك فاصل بين العقل والجسم أو بين العقل والنفس أو بين التفكير والشعور. إن دفء الفن وقربه من الناس سببه أن الفن يهتم دائمًا بالناس، أمَّا برودة العلم (وبالذات العلم الحديث) فسببها أن العلم يهتم بالأشياء أكثر من اهتمامه بالناس؛ ولهذا يعرف العلم الحديث عن الآلات أكثر مما يعرف عن الإنسان، ويعرف عن الرجل أكثر مما يعرف عن المرأة. والسبب في ذلك واضح؛ فالعلم يهتم بما تهتم به السلطة في أي زمان ومكان، إذا كانت السلطة تُسخِّر الإنسان وتستغله وتُفضِّل عليه الآلة اهتم العلم بالآلة أكثر من الإنسان، وإذا كانت السلطة تهتم بالرجال أكثر من النساء اهتم العلم بالرجال أكثر من النساء.

وإذا استعرضنا السلطة في معظم بلاد العالم الحديث نجد أنها سلطة رأسمالية أبوية؛ ولهذا تهتم معظم البحوث العلمية بالآلات والتكنولوجيا، وفي الحالات القليلة الخاصة بدراسة الإنسان؛ فإن هذا الإنسان هو الرجل في معظم الأحيان، أمَّا المرأة فلم تصبح بعد أحد المواد التي يهتم بها العلم، وهذا هو سبب ندرة البحوث العلمية عن المرأة.

إن البحث العلمي كالعمل الفني يحتاج إلى قدرة على الصدق وقدرة على الخلق، والخلق معناه الجديد، والجديد يختلف عن القديم وإلا ما سميناه جديدًا، ولكنْ كم من الناس يخافون الجديد ويفضلون عليه القديم الذي درجوا عليه وألفوه وورثوه. إن هذا الخوف من الجديد هو الذي يجعلنا سجناء الماضي، إن الكثيرين مِنَّا يعيشون في الماضي ومع ذكريات الموتى، وكما يقول «ماسلو»: لا يستطيع أن يتعامل مع المستقبل إلا الإنسان ذو التفكير الخلاق المرن، وهو الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يواجه الجديد بثقة وبغير خوف. إنني أعتقد أن ما نسميه الآن «بعلم النفس» إنما هو دراسة للحيل النى نستخدمها لنتفادى القلق الذي نشعر به إزاء الجديد؛ وذلك بأن نضع في أذهاننا أن المستقبل سيكون مشابهًا للماضي.

وكم يشتد هذا الخوف حينما يتعلق البحث بالمشاعر الإنسانية الدفينة، أو بالرغبات أو بالغرائز أو بالجنس، أو بعبارة أخرى بذلك المخلوق الشائك المُحاط بالمقدسات والخزعبلات على حد سواء، ألا وهو المرأة.

إن البحث رغم أنه بحث نفسي بالدرجة الأولى إلا أنه لا يمكن لأي بحث يتناول دراسة الإنسان إلا أن يحيط الباحث أو الباحثة بجوانب الإنسان جميعًا النفسية والجسدية والتاريخية والاجتماعية، ولا أظن أنه بغير الربط بين هذه العلوم الإنسانية المختلفة يمكن للباحث أن يلمس جذور الدوافع والعوامل التي تشكل نفسية الإنسان، رجلًا كان أو امرأة.

د. نوال السعداوي

المبادئ الأساسية التي يرتكز عليها الكتاب

(١) قضية تحرير المرأة قضية سياسية بالدرجة الأولى؛ لأنها لا تمس حياة نصف المجتمع فحسب، ولكنها تمس حياة المجتمع كله. إن تخلف المرأة وتكبيلها لا يؤخر النساء فحسب، ولكنه ينعكس على الرجال وعلى الأطفال؛ وبالتالي يقود إلى تخلف المجتمع كله.

(٢) الهدف من تحرير المرأة هو إطلاق إمكانياتها الفكرية جميعًا من أجل إثراء المجتمع فكريًّا، وإثراء حياة وشخصية النساء بالعمل المنتج والمشاركة في تطوير المجتمع، أي إنها قضية حرية فكرية للنساء من أجل العمل الخلاق، وفي ظل المساواة الكاملة بين الجنسين، وليست مجرد حرية جنسية من أجل قتل الفراغ والملل وامتصاص الطاقة المعطلة.

(٣) أثبت العلم أن أي قيود على الإنسان، رجلًا أو امرأة، وسواء كانت هذه القيود فكرية أو نفسية أو جسدية، فإنها تعرقل تطوره الطبيعي، وتؤخر نضوجه الفكري أو النفسي أو الجسدي؛ وبالتالي تتعارض مع صحته الجسدية والنفسية، وعلى هذا فإن القيود المفروضة على النساء فكرًا ونفسًا وجسدًا تضر بصحتهم وتضر أيضًا بصحة الرجال وصحة الأطفال، وينشأ الجميع في مناخ غير صحي يزيد من التخلف.

(٤) إن أي دين من الأديان لا يمكن أن يتعارض مع العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع، ولا يمكن أن يتعارض أي دين مع الصحة الجسدية والنفسية لجميع أفراده رجالًا ونساءً؛ ولهذا ليس علينا إلا أن نعرف الطريق الذي يقود إلى صحة الإنسان (رجلًا وامرأةً) فيكون هو طريق الدين؛ لأن الدين خُلق لسعادة الإنسان وصحته ولم يُخلَق لتعاسته ومرضه.

(٥) إن النساء وحدهن لا يمكن أن ينلن الحرية والمساواة في مجتمع لا يحقق الحرية والمساواة لجميع فئاته المختلفة؛ ولهذا لا يمكن فصل قضية تحرير النساء في أي مجتمع عن تحرير الفئات الأخرى المظلومة.

(٦) إن شرف الإنسان رجلًا أو امرأة، هو الصدق، صدق التفكير وصدق الإحساس وصدق الأفعال، إن الإنسان الشريف هو الذي لا يعيش حياة مزدوجة، واحدة في العلانية وأخرى في الخفاء.

(٧) ليس هناك أي دليل علمي في البيولوجيا أو الفسيولوجيا أو التشريح ما يثبت أن المرأة أقل من الرجل عقلًا أو جسدًا أو نفسًا. إن الوضع الأدنى للمرأة فُرض عليها من المجتمع لأسباب اقتصادية واجتماعية لصالح الرجل، ومن أجل بقاء واستمرار الأسرة الأبوية، التي يملك فيها الأب الزوجة والأطفال كما يملك قطعة الأرض.

الأنثى هي الأصل

كنت أندهش كلما أوغلت في قراءة تاريخ البشرية القديم قبل ظهور الأديان، وقبل نشوء الأسرة الأبوية لتلك القيمة الإنسانية الكبيرة التي كانت تتمتع بها أنثى الإنسان (المرأة كما نسميها الآن)، والتي كانت تتزايد كلما أخذتني القراءة بعيدًا عن أقدم عصور التاريخ، في الفترات الأولى من حياة الإنسان الطبيعية البدائية. في تلك العهود كان الإنسان طبيعيًّا، أي إنه كان يعيش حياته كما هي، ويتصرف تلقائيًّا، وفق رغباته ومشاعره وتفكيره. كان الإنسان (ذكرًا أو أنثى) وحدة واحدة، لم يكن هناك انفصال بين جسم الإنسان وعقله أو نفسه، لم تكن الأديان قد ظهرت بعدُ وظهر معه الفلاسفة الذين فصلوا بين الجسم والعقل، ولم يكن علم النفس أو السيكلوجيا قد ظهر بعد، أو تلك العلوم الأخرى كالبيولوجيا والفسيولوجيا، وأحدثت هذه المسافات بين الجسم والنفس.

في تلك العهود البدائية الطبيعية التي لم تؤثر فيها بعد هذه العلوم والفلسفات، والتي لم يكن قد حدث فيها بعدُ انفصالٌ بين عقل الإنسان وجسمه، كان الذكر والأنثى على طبيعتهما، وكان لكل منهما قيمته النابعة من طبيعته أو تكوينه البيولوجي (بلغة عصرنا الحديث).

وقد أدرك المجتمع الإنساني البدائي المكون من الذكور والإناث أن الأنثى بالطبيعة أصل حياة بسبب قدرتها على ولادة الحياة الجديدة؛ فاعتبروها أكثر قدرة من الذكر وبالتالي أعلى قيمة. ومن هنا أدت الفكرة في تلك العهود أن الآلهة أنثى، وأنها آلهة الإخصاب والولادة والخضرة والوفرة والخير وكل شيء مفيد.

استمرت هذه العهود آلاف السنوات، ولا أحد حتى الآن يعرف كم ألفًا من السنوات استمرت؛ لأن علم التاريخ لم يكن قد ظهر بعد، ونشوء علم التاريخ بالنسبة لنشوء أول الحياة الإنسانية يُعتبر شيئًا حديثًا، لكن معظم علماء التاريخ والأنثروبولوجيا في العالم

يُجمعون على أنه في المجتمعات الإنسانية البدائية كانت للأنثى قيمة إنسانية واجتماعية وفلسفية أكثر من الذكر، وأن الإله القديم كان أنثى، وأنه قبل نشوء الأسرة الأبوية كان المجتمع البدائي أمويًّا، وكانت الأم هي الأصل وهي العصب وهي التي يُنسَب إليها أطفالها.

وفي التاريخ نجد عهودًا أخرى (غير العهود البدائية الأولى)، حيث ارتفعت مكانة المرأة ارتفاعًا كبيرًا، ونحن — المصريين والمصريات — لا بدَّ أن نكون أكثر شعوب العالم إدراكًا لهذه الحقائق؛ لأن هذه العهود كانت في زمن القدماء المصريين. وإذا كانت شعوب العالم المتقدم الآن تفخر بأنها تساوي بين الرجل والمرأة (وهذا أمر لم يحدث بعد)، فإننا نستطيع أن نفخر بأن هذه المساواة، بل وأكثر منها، كانت سائدة عند قدماء المصريين، وأن تشويه العلاقة بين الجنسين وسيادة جنس على الجنس الآخر لم تكن إلا نتيجة التشويه الإنساني الذي طرأ على الحضارة القديمة بسبب الأطماع الاقتصادية التي أصبحت تتزايد مع تزايد وسائل استغلال الإنسان للإنسان.

والذي يقرأ تاريخ القدماء المصريين يدرك أن هذه الحضارة، التي هي أقدم حضارات البشرية وأعرقها، قامت منذ البداية على المساواة بين الجنسين، وعلى ارتفاع مكانة المرأة الاجتماعية ارتفاعًا كبيرًا. كانت المرأة تصل إلى مرتبة الإله كما يصل الرجل إليها، لم تكن الألوهية منصبًا ذكريًّا فحسب، ولكن تاريخ مصر القديم حافل بالإلهات اللائي كان يُقدَّم إليهن القرابين وتُقام لأعيادهن حفلات رائعة، ومنهن إلهة العدل وإلهة الحقول وإلهة السماء وإلهة الكتابة وإلهة الحصاد وإلهة الحب والجمال والخصب وإلهة السرور والموسيقى وإلهة الولادة.

أمَّا بالنسبة للمرأة من عامة الشعب، فقد كانت المرأة الفرعونية تعمل في المصانع بالغزل والنسيج وصنع السجاجيد، وتعمل بالتجارة في الأسواق، وتشارك زوجها أعمال الصيد. وكانت الزوجة تُرسَم على المقبرة حتى الأسرتين الثالثة والرابعة (٢٧٨٠ قبل الميلاد) بحجم زوجها، كدليل على المساواة في الشرف والمكانة والحقوق والواجبات. وفي تمثال «بانجم» (في معبد الكرنك) تتقدم الزوجة زوجها، وهناك نُصُب تذكاري خاص بالسيدة «بيسيشت» من عصر الدولة القديمة يبين أنها كانت مديرة للأطباء. وقد حوكم أحد الأزواج لأنه سب زوجته؛ فأصدر القاضي حُكمًا بجلد الزوج مِائة جلدة، كما قضى بحرمانه من نصيبه من المال الذي كسبه بالاشتراك معها إذا عاد إلى سبها.

وكان للمرأة المصرية القديمة حظ كبير من الثقافة، ويَحكي موظف اسمه «خنوم ردي» أنه كان أمينًا لمكتبة سيدة عظيمة تُدعى «نفرو كابيث»، ويقول إن هذه السيدة قد عيَّنتني في دندرة مشرفًا على خزائن الكتب الخاصة بأمها، وكانت تحب العلوم والفنون.

ومارست المرأة الرياضة والسباحة والأعمال البهلوانية كالرجل سواء بسواء، وكان النساء كالرجال يشربن الخمور في الحفلات، بل ويُسرفن في الشرب ويقرعن كئوسهن مع الرجال، وتقول إحداهن: ناولني ثمانية عشر قدحًا من النبيذ، إنني أريد أن أشرب حتى أنتشي، إن داخلي مثل القش.

وكان للمرأة نصيب كبير في تولي العرش، وإذا مات الملك عن ذريةٍ أكبرها بنت أصبح العرش من نصيبها.

ويعتقد بعض علماء الآثار المصرية مثل «أرمان» و«موريه» و«برستد» أن الابن الشرعي كان يُنسَب إلى أمه أكثر مما يُنسَب إلى أبيه في معظم الأحوال؛ وهذا يدل على سيادة الأمومة على الأبوة في نسب الأبناء، وهي امتداد للعصر الذي كان يُعَدُّ فيه نسب الأم أقوى من نسب الأب. أمَّا الطفل غير الشرعي فكان يُنسَب إلى أمه في جميع الأحوال، وكان للمرأة حق الملكية وحق البيع والشراء وأداء الشهادة في المحاكم، وكانت تتساوى مع الرجل في الميراث، بل إن نظام التوريث في أسر النبلاء في عصر الدولة الوسطى (٢٦٤٠ق.م) كان يأتي عن طريق الإناث لا الذكور، فلم يكن الابن هو الذي يرث، وإنما كانت كبرى البنات. واشتغلت المرأة بكل الأعمال، كانت حامية وحاكمة وملكة وكاهنة وإلهة. الإلهة «ماعت» كانت ربة الحقيقية، و«نات» إلهة الحرب. وكذلك الإلهة سخمت والإلهة حتحور إلهتان للحرب، وكانت الإلهة «نايت» تتقدم الملك في المعارك الحربية، وتضع على رأسها تاج الوجه البحري، كما سموها أيضًا إلهة الفيضان التي تسكن شواطئ النيل. ومن الملكات المصريات القديمات الشهيرات: حتب، حرس، وخنت، كاوس، كليوباترة، وأماح، وحتشبسوت، وتي، ونفرتيني، وغيرهن ممن لعبن أدوارًا بارزةً في التاريخ المصري القديم.

كانت المرأة المصرية القديمة تعرف قيمة نفسها كإنسانة لها عقل وذكاء، ونظر إليها المجتمع نظرة متساوية مع الرجل، فساهمت في الحضارة الفرعونية وشاركت في أول حضارة إنسانية ظهرت على وجه الأرض، وحاربت في أول حرب لتحرير البلاد من المستعمرين، واشتركت في تأسيس أول إمبراطورية عرفها التاريخ القديم قبل ظهور الأديان بآلاف السنين.

ولم تعرف المرأة المصرية القديمة الحجاب، وكانت تختلط بالرجال، وتشاركهم العمل والإنتاج والحرب والتجارة والعلوم والفنون والأفراح والسهرات والشراب وكل شيء، وكانت أيضًا سيدة البيت في أسرتها لها مكانتها العالية داخل البيت وخارجه.

والذي يدرس شخصية الملكة المصرية حتشبسوت يدرك قوة المرأة النابعة من شخصيتها وذكائها وقدرتها على القيادة والحكم؛ ولهذا ظهرت تماثيلها على شكل

أبي الهول، لها رأس إنسان، وُجد رمزًا للعقل والقوة معًا. وكان عصر حتشبسوت يتميز بالازدهار والتعمير، وأثبتت كفاءتها كحاكمة وملكة أكثر من ملوك كثيرين، لكنها بعد أن ماتت خلفها تحتمس الثالث، وأمر بتدمير تماثيلها وتشويه رسومها ونقوشها، وكأنما أراد أن يمحوَ من التاريخ السنوات الاثنتين والعشرين (من ١٥٠٤ إلى ١٤٨٣ قبل الميلاد) التي حكمتها.

ويمثل تحتمس هنا بوضوح انتقام الرجل من المرأة بسبب تفوقها وذكائها وقوتها، وكما حاول تحتمس أن يشوه حقيقة حتشبسوت وينكر ذكاءها وقوتها حاول من بعده رجال كثيرون تشويه حقيقة المرأة وإنكار قوتها، فكيف كان ذلك؟!

تشويه حقيقة المرأة

وقد بدأ علماء التاريخ والأنثروبولوجيا في النصف الثاني من القرن العشرين يعيدون دراسة التاريخ بعين محايدة (إلى حد ما) بعد أن أثبتت علوم البيولوجيا والفسيولوجيا والتشريح كذب الافتراضات والنظريات التي تفرِّق بين الرجل والمرأة جسدًا ونفسًا وعقلًا؛ ولهذا السبب تسرب النور بعض الشيء إلى علاقة المرأة والرجل في العصور المظلمة من التاريخ، في العصور الوسطى وما قبلها وما بعدها، وبدأ العلماء يفهمون الأسباب الحقيقية التي شوهت العلاقة بين الرجل والمرأة، وشوهت حقيقة المرأة، سلبت منها مكانتها الأولى الطبيعية حين كانت مساوية للرجل في كل شيء، لها كل حقوقه وواجباته في الحياة، من عمل وإنتاج وعلم وفن ولذة وميراث وتولي عرش الألوهية أو الملوكية، ونسب الأطفال والشرف وغير ذلك من المناصب والحقوق والقيم.

ويسوقنا التاريخ بعد هذا العهد المجيد للمرأة إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية التي قلبت علاقة الرجل والمرأة رأسًا على عقب، وبعد أن كانت المرأة إلهة الإخصاب والخير — والوفرة والخضرة والحياة — أصبحت حليف الشيطان ورمزه الوحيد المجسد على الأرض ... وبعد أن كانت المرأة ملكة داخل البيت وخارجه أصبحت خادمة خارج البيت وجارية داخله.

ولم يعد خافيًا الآن على من يُلم إلمامًا شاملًا بالتاريخ أن يدرك الأسباب الاقتصادية التي دعت إلى كل هذا، وكل تلك الظروف التي جعلت الرجل يتعلم الجشع والطمع وملكية الأرض وملكية العبيد وملكية أطفاله؛ ومِنْ ثَمَّ ملكية المرأة وسلب النسب منها والشرف ... إلى غير ذلك مما أوضحته كتب التاريخ وغيرها من المراجع الاقتصادية والبحوث المختلفة في هذه الميادين.

وفي تاريخنا المصري القديم تبدو هذه الظروف واضحة للدارسين والدارسات؛ لأن الحضارة المصرية القديمة هي أول الحضارات التي عُرفت، وعرف عنها المؤرخون الكثير. وقد اكتشف علماء التاريخ أن المرأة المصرية القديمة بعد أن كانت تُرسَم على الجدران بحجم زوجها تمامًا دليل التساوي في المكانة والقدر أصبحت تُرسَم بحجم أصغر من زوجها؛ ومعنى ذلك أنها أصبحت أقل قدرًا من زوجها. بدأ ذلك الانخفاض في مكانة المرأة مع بدء ملكية الأرض، واستمر وضعها منخفضًا في عصر الدولة الوسطى، ثم في الأسرة الحادية عشرة حتى الأسرة الثالثة عشرة وعصر الهكسوس بسبب تفشي الإقطاع والظلم، ولم تسترد شيئًا من مكانتها الضائعة إلا في عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠ سنة قبل الميلاد) بعد ثورة النساء والعبيد والشعب المصري القديم كله ضد المستعمرين والإقطاع.

واستردت المرأة مكانتها الأولى في تلك الفترة، وعرفنا الملكات الشهيرات من الأسرة الثامنة عشرة كالملكة نفرتيتي، والملكة حتشبسوت ذات الشخصية الفذة القوية والذكاء الشديد، والتي حكمت مصر اثنتين وعشرين سنة (من ١٥٠٤ إلى ١٨٤٣ قبل الميلاد).

حدث ذلك قبل ظهور أول الأديان السماوية، وهو الدين اليهودي، وقد نشأت فلسفة الدين اليهودي وأفكاره من القيم الاقتصادية التي سادت في ذلك الوقت، وهي القيم الإقطاعية القائمة على ملكية الأرض والعبيد والأطفال والنساء. وكان لا بدَّ للرجل الإقطاعي من فلسفة وقيم أخلاقية معينة يدعم بها قيمه الاقتصادية والاستغلالية. وحينما أدرك الرجل أن المرأة بالطبيعة أقدر منه على خلق الحياة الجديدة، وأن هذه القدرة أعطتها مكانة عالية في المجتمع، قال لنفسه: ولماذا أدَّعي لنفسي هذه القدرة رغم أنف الطبيعة؟! وجلس آدم بينه وبين نفسه (وكان فنَّانًا وقادرًا على خلق القصص والروايات)، ثُمَّ خرج إلى العالم بقصة آدم وحواء الشهيرة في التاريخ، وفي هذه القصة سلب آدم من حواء قدرتها على الولادة وخلق الحياة الجديدة، وأعطى نفسه هذه القدرة، قائلًا إنه هو الذي ولد حواء، وإنها جاءت من أحد ضلوعه (لم يستطيع آدم في ذلك الوقت أن يخدع الناس بيولوجيًّا أيضًا ويقول إنها جاءت من رحمه؛ لأن الناس كانت تعرف أن الذكور ليست لها أرحام)، وعلى هذه القصة (وعلى قصص أخرى مماثلة) بدأ الدين اليهودي يكوِّن فلسفته ومبادئه وأخلاقياته؛ ولهذا أصبح الرجل هو السيد في الفلسفة والأخلاق والدين لتدعيم سيادته الاقتصادية والاستغلالية.

والذي يدرس الدين اليهودي كيف نشأ ولماذا، ويتعرف على مبادئه وقصصه، يندهش لكثير من الحقائق التي يطمسها التاريخ عن قصد وعن غير قصد. ونحن نقرأ في التوراة

عن قصة «لوط» مثلًا، كيف أنه قدم بناته من أجل حماية رجلين؛ لقد اعتبر كرامة صديقيه من الرجال أعلى من كرامة بناته الأطفال وشرفهن، (كنت لا أفهم لماذا يُسمَّى الرجل الذي يمارس الجنس مع الرجال باسم «اللوطي»، ولكني فهمت ذلك بعد قراءة هذه القصة).

وباستعراض أفكار الدين اليهودي نجد أن أساس هذا الدين يقوم على سيادة جنس الذكور على جنس النساء، وأن عقل الرجل جزء من الذات الإلهية، أمَّا المرأة فهي من سلالة الحيوانات والشياطين.

وهذا هو السبب في أن الرجل اليهودي يقول كل صباح حين يصلي: أحمدك يا رب … لأنك لم تخلقني «امرأة»، بينما تصلي المرأة اليهودية كل صباح وتقول: «أحمدك يا رب … لأنك خلقتني وفق مشيئتك وإرادتك.»

ويمضي بنا التاريخ، ويعرِّفنا كيف بُنيت الديانة المسيحية من بعد اليهودية على أفكار متشابهة، جذورها واحدة. وفي عصر كعصر العصور الوسطى كانت الكنيسة هي السلطة الحاكمة، وقد رأينا كيف كانت النظرة إلى المرأة وكيف كانت تُحرق وتُعذب باسم الدين وباسم المحافظة على القيم والأفكار السائدة. ولم تكن الأفكار السائدة في ذلك الوقت تقنع هؤلاء الذين وُهبوا شيئًا من الذكاء الطبيعي الفطري، فكيف يمكن أن يؤمن شخص ذكي بأن الوقوف أمام باب الكنيسة أو لمس بعض قطرات الماء (كان يُسمَّى الماء المقدس) يمكن أن يشفي جسد الإنسان من الأمراض المعدية أو يمنع ظهور الأوبئة أو العواصف والأمطار؟!

ولكن الويل كل الويل أن يكون الشخص موهوب الذكاء، خاصَّةً إذا كانت امرأة. ولم تكن المرأة التي أطلقوا عليها اسم «الساحرة الحكيمة» في العصور الوسطى سوى امرأة موهوبة الذكاء، أدركت بفطرتها ودقة ملاحظتها وفهمها السريع أن هناك بعض النباتات تشفي بعض الأمراض، واستطاعت أن تشفي فعلًا بعض المرضى، لكن الكهنة الرجال رعاة الكنيسة يغضبون، فكيف تتجرأ امرأة أن تشفي المرضى في حين أن هذه المقدرة من صفات الكنيسة وحدها أو ممثليها من الكهنة الرجال الذين يملكون وحدهم الماء المقدس والقدرة الإلهية؟!

وكان الناس يتجمعون عند باب الكنيسة ليحظَوْا ببعض قطرات من الماء المقدس؛ أملًا في الشفاء من المرض أو الوقاية منه. وكان الكهنة يسيطرون على الناس بهذه الفكرة؛ ولهذا كان ظهور أي ساحرة حكيمة مهدِّدًا لسلطتهم، وكانوا يحكمون عليه بالتعذيب والموت شأن زميلتها الأخرى التي كانوا يسمونها «الساحرة الشريرة» أو المجنونة، وهي

المرأة الذكية المتمردة التي اكتشفت بذكائها الفطري ذلك الظلم الفادح الواقع على جنس النساء لمجرد أنهن نساء، ولم يكن لها علاقة بشفاء المرضى كالساحرة الحكيمة، لكنها كانت تُتهم بأنها سبب الأمراض والأوبئة التي يعجِز الماء المقدس عن شفائها.

ويذكر التاريخ أن مصير الساحرة الحكيمة لم يكن أحسن حالًا من أختها الساحرة الشريرة المجنونة، بل إن عقابها في معظم الأحيان كان أشد. وتكتب حشيلية قائلةً: «كانت الكنيسة تعلن — في القرن الرابع عشر — أنه لو تجرأت امرأة وعالجت الأمراض بغير دراسة فهي ساحرة، ولا بدَّ أن يُحكَم عليها بالموت.»

وكانت الدراسة في العصور الوسطى تعني دراسة تعاليم الكنيسة (وأحدها أن الماء المقدس يشفي)، وكان هذا العلم بيد الكهنة وحدهم (خدام الكنيسة)، ولم يكونوا يسمحون لأحد أن ينافسهم في هذه المهنة؛ ومن هنا نشأ حقهم وكراهيتهم لأي شخص يُظهر ذكاءه في علاج الأمراض خاصة إذا كان امرأة. الصفة الوحيدة التي كان يمكن أن تدمر حياة المرأة تمامًا في تلك العصور هي صفة الذكاء وقدرتها على علاج بعض الحالات المرضية. ولقد دهشت حين وجدت في تاريخ تلك العصور ما يثبت أن الساحرة الحكيمة كانت مكروهة من الكنيسة أكثر من الساحرة الشريرة؛ لأنها كانت أكثر تهديدًا لسلطة الكنيسة، وأكثر منافسةً لأعضاء مهنة الطب في ذلك الوقت وهم الكهنة ورعاة الكنيسة.

إن أحد هؤلاء واسمه «وليم بيركنيز» وهو «صياد الساحرات» الإنجليزي الشهير (كان لقب «صياد الساحرات» يُعطى لهؤلاء الرجال الذين كانت مهنتهم اصطياد الساحرات والتفتيش عنهن بين الناس بشتى الطرق). هذا الكاهن كان يقول: «إن شفاء الأجسام والأرواح من اختصاص الإله وحده، وهؤلاء الذين عينهم ممثلين له فوق الأرض، ألا وهم الكهنة؛ لهذا فإن الموت هو الجزاء العادل للساحرة الحكيمة.»

كان هؤلاء الكهنة يعدُّون أنفسهم طبقة الحكام الأسياد، ولم تكن كرامتهم الدينية تسمح بأن يندس بين صفوفهم أحد من الطبقات المحكومة، خاصة إذا كان من جنس النساء الشيطاني.

وكانت التقاليد الدينية في ذلك الوقت تشيد بالطبقية والإقطاع، وتقول إن الإله هو الرب الإقطاعي صاحب الأرض؛ وحيث إن هذا الإله قد عين الكهنة ممثلين له على الأرض، فإنهم أصحاب الأرض من غير جدال؛ وبذلك انقسم الناس إلى أسياد، وهم أصحاب السلطة والأرض والعلم (تعاليم الكنيسة)، وعبيد من الفقراء والأُجراء، وفي النهاية جنس النساء المنحط؛ ولهذا يشهد التاريخ أن معظم الساحرات الشريرات والحكيمات المجنونات اللائي

عُذِّبن وأُحرقن من الفقيرات، وأن الرجال الذين اتُّهِموا بالسحر والشر والجنون (عددهم كان قليلًا بالنسبة لعدد النساء) كانوا جميعًا من الفقراء.

ويعتبر بعض العلماء الآن أن الساحرة الحكيمة التي عُذِّبت في العصور الوسطى هي الأم الحقيقية للطب الحديث، يقولون إنها بذكائها الفطري استطاعت أن تكتشف أنواعًا مختلفة من العلاجات، لكن هذه اندثرت في التاريخ بسبب إهمال المؤرخين لها وعلماء النفس القدامى والمحدثين (ومعظمهم من الرجال) الذين كانوا أنفسهم متأثرين بأفكار من سبقوهم، وألصقوا بها تهمة الجنون، وظلت هذه التهمة تنتقل من عصر إلى عصر دون أن يحاول أحد مراجعتها أو مناقشتها.

وقد ورث بعض رجال العصر الحديث عن رجال العصور السابقة كراهيتهم الشديدة لذكاء المرأة. إنهم يفضلون عليها المرأة الغبية، التي تعتقد أن سيادة الرجل وخضوع المرأة إنما هي أشياء طبيعية لمجرد أنه ذكر وهي أنثى. وهناك كثير من الرجال لا زالوا يعتقدون أن عقل المرأة يشوه أنوثتها، وأن ذكاءها يفسد طبيعتها؛ ذلك أن في أعماقهم تلك الفكرة القديمة منذ العصور الوسطى بأن عقل الرجل إنما هو جزء من عقل الإله، وأن الإله قد اختص جنس الذكور وحدهم بذلك العقل والحكمة، أمَّا المرأة فهي بطبيعتها أقرب إلى الجنون منها إلى العقل.

وقد سيطرت هذه الفكرة على رواد علم النفس القديم سيطرة شديدة؛ والدليل على ذلك أنهم أطلقوا اسم «الهستيريا» وترجمتها الحرفية «رحم المرأة» على حالات الجنون التي صادفتهم، كأنهم بذلك يقولون إن كل امرأة لها رحم فهي حالة من حالات الهستيريا، وإن كل حالة من حالات الهستيريا لا بدَّ أن يكون لها رحم.

وفي القرن السابع عشر حين تضاءلت قوة الكنيسة تضاءلت معها ظاهرة السحر والشيطنة بين النساء، وحلَّت محلها ظاهرة الجنون والمرض النفسي والعُصاب والهستيريا. وتقول سجلات التاريخ إن معظم المرضى بهذه الأمراض العقلية والنفسية كانوا نساء؛ ولهذا أطلقوا اسم «هستيريا» على هذه الأمراض، وقد تصوروا من كثرة حالات النساء أن هذه الأمراض أمراض نسائية لها صلة ما بالرحم.

ويصف توماس زاس هؤلاء النساء قائلًا: «كان لهن عقل يفكر وينتقد كثيرًا، هؤلاء الرافضات غير المتكيفات مع المجتمع ومع قيمه التي تجعل الرجال أسيادًا وعبيدًا وجواري؛ ولهذا كان وجودهم يهدد المجتمع ونظامه القائم. وكان واجب المعالجين النفسيين والأطباء في ذلك الوقت (وهم الذين خلفوا الكهنة في مهنة العلاج والتطبيب) أن يحموا المجتمع منهم ومن تمردهن على الأفكار السائدة.»

ويكتب جريجوري زيلبورج عن (المالياس مالفيكارم)، وهي (الوثيقة التاريخية التي تُعَدُّ المرجع الأساسي لحياة السحر في العصور الوسطى)، يكتب عنها قائلًا: إن هذه الوثيقة (المالياس مالفيكارم) قد تصلح بشيء من التعديل البسيط أن تكون مرجعًا ممتازًا للطب النفسي الإكلنيكي في القرن الخامس عشر، لو أن كلمة «المريضة» استُبدلت بكلمة «الساحرة» واستُبعدت كلمة «الشيطان».

ولو أننا تفقدنا بعض أعمال أطباء النفس ابتداءً من «بنيامين روش» (سنة ١٨١٢) فإننا نجد أن الطب النفسي في ذلك الوقت كان يميل إلى تفسير جميع أنواع السلوك غير العادية على أنها نوع من المرض النفسي. وكان «فيليب بنييل» (١٧٤٥–١٨٢٦) يعتقد أن الساحرات كن مريضات نفسيًّا، وكذلك اعتقد تلميذه «جان إتيان دومينيك إسكيرول» (١٧٧٢–١٨٤٠) الذي كوَّن نظرية أن الساحرات كن مريضات العقول. وجاء «جان مارتن شاركوت» (١٨٢٥–١٨٩٣)، وأكَّدَ أن ظاهرة الساحرات كانت مشكلة عصبية، وحاول أن يوضح أن أعراض «الهستيريا» في تلك العصور هي نفسها أعراض الهستيريا في عهده، وقد فعل شاركوت مثلما فعل إسكيرول، وذلك أنه تلقى صفات الساحرات كما هي. وفعل فرويد الشيء نفسه، لكنه قال: ظاهرة الساحرات مشكلة نفسية وليست عصبية كما قال شاركوت. وقد فاته أن يسأل نفسه أوَّلًا هل هن مريضات أم لا؟ لكنه تسلم التركة ممن سبقه، وتلقى تشخيص كهنة العصور الوسطى لهؤلاء النساء كمريضات، وراح يدرس نوع المرض هل هو عصبي أم نفسي. وقد حاول فرويد أن يعثر على تشابهات بين نظرية الشيطنة أو (الممسوسات بالجان) وبين نظرية التحليل النفسي لمرض الهستيريا.

وقد تصور فرويد أن هستيريا هؤلاء النساء أو صراخهن الحاد من الألم والأسى بسبب حزنهن على ضياع عضو الذكر إلى الأبد، ونسي أن هؤلاء النساء كن يصرخن ويولولن بسبب الإبر الطويلة الحادة التي كان يغرسها في أجسامهن صيادو الساحرات بحثًا عن علامة الشيطان، وأن اعترافهن بالجرائم الجنسية علنًا أمام قضاتهم من الكهنة لم تكن بسبب انحرافاتهم الجنسية وإنما بسبب رغبة هؤلاء القضاة في سماع بعض الكلمات الجنسية المثيرة، ولم يكن أمام هؤلاء النساء (إزاء التعذيب الشديد) إلا أن يعترفن بالجرائم التي يلقنها لهن القضاة، والتصريح علنًا أن الأرواح الشريرة والشياطين تسكن أجسادهن. وقد جهل فرويد كل هذه الحقائق؛ لأنه عجز عن فهم الظروف الاجتماعية الحقيقية التي عاشتها هؤلاء النساء؛ وكان لعجزه سببان: السبب الأول أنه رجل متحيز — بحكم نشأته اليهودية — لجنس الذكور الأسمى. والسبب الثاني لأنه بحكم انتمائه لطبقة العلماء والأطباء كان

يأخذ بوجهة أصحاب السلطة الحاكمة وينسى وجهة نظر المحكومين من العبيد والنساء. وقد وقع في هذا الخطأ نفسه عدد غير قليل من العلماء والمؤرخين والأطباء وبالذات أطباء النفس.

وقد كان تحيز فرويد (غير الواعي) لجنسه الذكري أحد أسباب عجزه عن فهم حقيقة المرأة؛ ولأن فرويد يعتبر الأب الأساسي للطب النفسي الحديث، ولأن كثيرين من بعده اعتنقوا أفكاره وتأثَّروا به إلى حد كبير، فقد شاعت نظريته المشوهة لسيكلوجية المرأة وطبيعتها النفسية، إلى حد أن المرأة الطبيعية أصبحت هي المريضة والمريضة هي الطبيعية، ولم يعد في إمكان — إلا لقلة من علماء النفس — التخلص من هذه الأفكار الشائعة ومحاولة فهم حقيقة المرأة بروح محايدة وذهن واسع متفتح قادر على التعمق.

وبعض هؤلاء القلة من العلماء رجال، وبعضهم نساء. ومن الرواد النساء: كارين هورني، كلارا تومسن، مرجريت ميد، سيمون دوبوفوار، بتي فريدان، كيت ميليات. الرجال: ليسترو وورد ومالينوسكي وأدلر وسوليفان ورايخ ولينج وسجريست وكوبر وتوماس زاس. ويكتب هنري سجريست العالم الشهير في تاريخ الطب: إن هؤلاء النساء اللائي سُمِّين بالساحرات Witches واللائي عُذِّبن حتى الموت، اتُّهمن بأنهن شخصيات مريضات نفسيًّا، على حين لم يُتَّهَم هؤلاء الذين كانوا يعذبونهن حتى الموت بأي مرض نفسي؛ ولم يكن ذلك إلا بسبب أن المجتمع آمَن في ذلك الوقت بالسحر وأرواح الشياطين نتيجة فلسفة معينة كانت سائدة.

وهذا هو الحال في معظم عهود التاريخ؛ فإن الاعتداء والتعذيب والقتل يصبح شيئًا طبيعيًّا وصحيًّا إذا صدر عن أصحاب السمو والمكانة والأرض والسلطة، ولكنه يصبح المرض والجريمة والجنون إذا صدر عن أصحاب الفقر أو العزَّل من السلاح أو جنس النساء الأدنى، بل إن مجرد دفاع هؤلاء عن أنفسهم أو الصراخ من الألم يعتبر المرض والجنون.

إن انتشار ظاهرة الساحرات الشيطانات في العصور المظلمة لا تختلف في أسبابها الجذرية عن انتشار ظاهرة المريضات بالهستيريا في عصر فرويد، ولا تختلف عن انتشار ظاهرة المريضات نفسيًّا وعصبيًّا في النصف الأخير من القرن العشرين.

إنها النتائج الطبيعية للعلاقة بين نوعين من الناس: نوع يملك السلطة والسمو وهم الذكور، ونوع مضطهد بهذه السلطة يصارع من أجل الحرية وهم النساء. ويؤكد هذه الحقيقة أيضًا العالم النفسي الشهير مالينوسكي حين يكتب: «إن الأساطير والخزعبلات لا

تحتضن ظاهرة السحر فحسب، ولكنها تحتضن أية قوة في المجتمع تقوم على امتيازات لبعض الناس دون البعض الآخر.»

ولا شك أنه من أجل أن نفهم الخزعبلات التي أحاطت بالمرأة وبعلاقتها بالرجل فلا بدَّ أن ندرك الامتيازات التي حظيَ بها الرجال دون النساء في مختلف العهود البشرية، ومن أجل أن تعود علاقة الرجل والمرأة إلى شكلها الطبيعي غير المشوه، فلا بدَّ أن تحارب هذه الامتيازات في كل مكان وزمان، وتُحارب الخزعبلات في التاريخ وفي كل العلوم. وقد يندهش بعض الناس ويتساءلون: أيمكن أن يحتوي العلم أيضًا على الخزعبلات؟! ولكن ما هو العلم؟ لقد عرفنا أن ورثة الكهنة كانوا العلماء، وكما كان الكهنة خدام الكنيسة في العصور الوسطى كان العلماء خدام الإقطاع ثُمَّ رأس المال (أو السلطة) في القرون التي تلت ذلك. وكما عاشت سلطة الكنيسة في العصور المظلمة على الخزعبلات فقد عاشت سلطة الإقطاع ورأس المال في العصور التي تلتها على بعض الخزعبلات في العلم. وقد كتب دانهام يقول: «إن الخزعبلات سوف تصادفنا، وسوف نجدها منتشرة في عدد من المجلدات الضخمة القيمة، بل وفي قلب العالم ذاته سوف نجدها.»

إن التشويه لحقيقة المرأة وطبيعتها الجسمية والنفسية حدث في التاريخ في عهود مختلفة متعددة، وهو لم يحدث للمرأة فحسب، ولكنه حدث لأجناس مختلفة من البشر عوملوا كفصائل أدنى من الإنسان لأسباب اقتصادية واستغلالية، لكن الإنسان (لكونه إنسانًا له عقل قادر على التحليل والتبرير) استطاع أن يبرر أسباب الاستغلال (كي يستريح ضميره) بأسباب أخرى، استطاع أن يغلفها بالعلم تارة وبالأخلاق تارة أخرى. الأشياء التي لم يستطع أن يثبتها بالعلم أثبتها بالأخلاق، وما عجز عن إثباته في علم الأخلاق أثبته في الفلسفة وهكذا. ولا يسع الباحث أو الباحثة في علوم الطب (جسدًا أو نفسًا) إلا أن يندهش لتلك المحاولات العلمية التي أراد بها الإنسان الأبيض أن يثبت بيولوجيًّا أن مخ الإنسان «الأبيض» أكثر تطوُّرًا ورُقِيًّا من مخ الإنسان «الأسود»، وأن يثبت نفسيًّا أن «العبد» له نفسٌ تختلف عن نفس «السيد»، وعرفنا في علم النفس ما يُسمَّى «بسيكلوجية العبد». وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة، وكم من محاولات علمية في مختلف العلوم الطبية والبيولوجية والنفسية لإثبات فروق (لصالح الرجل) بين مخ الرجل ومخ المرأة، وبين أعضاء الرجل وأعضاء المرأة، وبين نفس الرجل ونفس المرأة، وعرفنا في علم النفس ما يُسمَّى «بسيكلوجية الأنثى» على غرار ما سُمِّيَ «بسيكلوجية العبد».

وحينما ثار العبيد وأصبحت ثورتهم قوة اجتماعية تهدد السلطة والنظام الاقتصادي السائد بدأ العلم يهتم بهم، وبدأ العلماء (بوحي أو بأمر من السلطة الحاكمة) يراجعون

الحقائق العلمية التي وصفوا بها العبيد جسدًا أو نفسًا، وظهرت حقائق علمية جديدة تلغي الفروق البيولوجية بين مخ السيد ومخ العبد، وتلغي الفروق النفسية بين نفس العبد ونفس السيد، واكتشف العلم أن العبد لا يولد بنفس خانعة، وأن النفس الذليلة ليست نفس العبد الطبيعية، ولكنها تصبح نفسه من أثر الاضطهاد الاجتماعي الطويل.

انتقلت ثورة العبيد إلى غيرهم من الفئات المضطهدة من البشر، وبدأت النساء في أنحاء مختلفة من العالم تثور ضد الوضع الأدنى الذي فُرض عليهن، وبدأ العلماء (بسبب قوة النساء المتزايدة) يراجعن الحقائق العلمية التي وصفوا بها النساء جسدًا ونفسًا.

وظهرت حقائق علمية جديدة تلغي الفروق البيولوجية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وتلغي الفروق النفسية بين نفس المرأة ونفس الرجل، واكتشف العلم أن المرأة لا تولد بنفس خاضعة، وأن الخضوع والسلبية والضعف والماسوشية ليست صفات نفسية المرأة الطبيعية، ولكنها تصبح صفاتها من أثر الاضطهاد الاجتماعي الطويل.

لكن الثورات لا تبدأ في أول أمرها قوية؛ لأنها في البداية لا تشمل أعدادًا كبيرة من الفئة المضطهدة، إن الذي يبدأ دائمًا أفراد قلائل يرفضون الظلم ويثورون، وتنتقل الثورة منهم إلى غيرهم شيئًا فشيئًا حتى تشمل الجميع، وحينئذٍ تصبح الثورة قوة اجتماعية ضاغطة تستطيع أن تغير النظم والمفاهيم والحقائق العلمية أيضًا. هناك إذن فترة يكون فيها الثائرون أو الثائرات قلة قليلة، بلا حول ولا قوة أمام القوة الاجتماعية والعلمية القائمة؛ ولأنهم يرفضون القيم السائدة، ولأنهم يثورون على المفاهيم المنتشرة، ولأنهم أفراد قلائل بلا قوة ولا سلطة، فإن مصيرهم معروف في كل عهود التاريخ، القتل أو السجن أو الاتهام بالجنون، ومن الذي يستطيع أن يتهمهم بالجنون سوى الطبيب النفسي أو من يقوم مقامه، حسب اختلاف العهود.

في العصور الوسطى كان الكاهن أو رجل الدين هو الذي يشخص جنون الرجال أو النساء الذين يرفضون القيم السائدة في ذلك الوقت. كان معظم هؤلاء من النساء، وكانوا يُسَمَّوْنَ الساحرات الشريرات، ويُعاقبن بالقتل أو الحرق أو السجن في مستشفى الأمراض العقلية. وقد كتب «جيكوب سبرنجر» و«هنريك كرامر» في أهم وثيقة تاريخية «مالياس مالفيكارم» عن السحر في العصور الوسطى: «إن السبب في أن السحرة الأشرار كانوا غالبًا من النساء أن عملية السحر تأتي من الشبق الجنسي، والذي هو في النساء لا يرتوي أبدًا. أمَّا الرجال فإنهم في مأمن من هذه الجريمة الشنعاء لسبب واحد، هو أن المسيح كان رجلًا … تبارك في علاه، هو الذي حمى جنس الرجال من مثل هذه الجريمة الكبيرة؛ لأنه طالما سمح لنفسه بأن يُولَد وأن يتعذَّب من أجلنا؛ فهو قد ضمن إذن للرجال هذه الميزة على النساء.»

ويقول توماس زاس: إن هذه الوثيقة التاريخية «مالياس مالفيكارم» ضمن أشياء أخرى اعتُبِرت في العصور الوسطى نظرية دينية علمية تثبت سمو جنس الرجال على النساء، وتبرر — بل تطلب — تعذيب النساء لأنهن أعضاء الجنس الأدنى، الجنس الخطر وصاحب الإثم والجريمة الشنعاء.

وكم يندهش الباحث في التاريخ والعصور الوسطى حين يقف على أنواع العقاب والتعذيب التي تعرضت له أذكى نساء تلك العصور لمجرد رفضهن التسليم ببعض الخزعبلات السائدة، وفي بعض الأحيان لمجرد اختلاف المرأة مع زوجها، وفي أحيان أخرى دون أن تفعل شيئًا، وإنما اتهمت بواسطة الكهنة أنها السبب في حدوث وباء من الأوبئة التي لم يكن الطب بعد قد اكتشف أسبابها الحقيقية، أو لأنها سبب تغير شديد في الطقس أو هبوب عاصفة.

إن مؤلفا هذه الوثيقة «مالياس مالفيكارم» يكتبان أن ظهور مرض من الأمراض على نحو مفاجئ دليل على أنه بسبب هؤلاء الساحرات الشريرات، ويسوقان قصصًا من حياة بعضهن ليؤكدا هذه الصلة أو الرابطة بين الوباء المفاجئ وبين المرأة الساحرة، وها هي إحدى الحالات التي عرضاها في كتابهما:

> كان هناك مواطن محترم من «سبايرز»، له زوجة، من ذلك النوع من النساء العنيد، كان يحاول إرضاءها بشتى الطرق، لكنها لم تكن تخضع في معظم الأيام لرغباته، وفي يوم من الأيام كان يدخل بيته حين قابلته زوجته كالعادة بكلماته التي تضايقه؛ فأراد أن يخرج مرة أخرى، لكنها أغلقت الباب المفتوح وصاحت بأنه لن يكون مخلصًا لها إلا إذا ضربها، وإزاء كلماتها هذه رفع الزوج يده، ولم يكن يتعمد إيلامها، وضربها برقة بكفه على عَجُزِها. وفي هذه اللحظة سقط على الأرض فاقدًا الوعي، وظل ملازمًا الفراش أسابيع طويلة بسبب المرض الخطير الذي داهمه فجأة. وإنه لواضح الآن أن هذا المرض لم يكن مرضًا طبيعيًّا، ولكن سببه المرأة الساحرة الشريرة. وقد وقعت حوادث كثيرة من هذا النوع، ويعرفها الكثيرون مِنَّا.

من هذه القصة يتضح لنا كيف كان الرجال في العصور الوسطى يفهمون النساء، ويفهمون سبب الأمراض المفاجئة، وكيف توصف العلاقة بين الزوج وزوجته، فالزوج (كما يصفه المؤلفان) حملٌ وديع بريء براءة الملائكة أو القديسين، حتى إنه حين رفع يده

ليضرب زوجته (بِناءً على رغبتها هي) فإنه لم يكن يقصد إيلامها، وضربها برقة، ومع ذلك فقد سقط مريضًا ضحية سحر هذه المرأة الشريرة.

وقد ذكَّرتني هذه القصة حين قرأتها بقصص مشابهة (مع بعض الاختلاف الشكلي بسبب تغير العصور)، عشتها مع بعض المريضات نفسيًّا اللائي قابلتهن خلال هذا البحث، وحين كنت أجلس مع بعض أزواجهن وأسمع رأيهم في زوجاتهم، أندهش لعقلية بعض الرجال في الثلث الأخير من القرن العشرين التي لا تختلف كثيرًا عن عقلية رجال العصور الوسطى. أحد هؤلاء الأزواج قال لي: إن زوجته مريضة نفسيًّا لأن روحًا شريرةً ركبتها، وقال لي زوج آخر: إن زوجته على صلة بالشيطان.

إن ارتباط المرأة بالشيطان فكرة سادت في العصور الوسطى بسبب النظرية الدينية العلمية (كما وردت في المالياس مالفيكارم) التي تقول: يسمو الرجل لمجرد أنه ذكر، وأن المرأة حليفة الشيطان والجريمة الشنعاء، وكأن «القديس» هو الرجل الآخر المناقض للشيطان، و«القديس» هو حليف الله، يمثل الله، ويمثله على الأرض الرجال القديسون، وهم مسئولون عن تنفيذ أعمال الله الخيرة، وأولها معاقبة حلفاء الشيطان، ألا وهم النساء الساحرات الشريرات.

وكانت إحدى هؤلاء النساء الساحرات الشريرات هي «جان دارك» التي أحرقوها حتى أصبحت رَمادًا سنة ١٤٣١ بسبب اتهامها في ذلك الوقت بالسحر والشر والجنون والشيطنة. ولم تكن جان دارك إلا واحدة من هؤلاء النساء الذكيات اللائي رفضن الاستسلام للقيم والخزعبلات السائدة، وكانت على قدر من الشجاعة؛ فأعلنت رفضها وحولت الرفض إلى ثورة إيجابية، سجلها التاريخ فيما بعد، لكن جان دارك عُذِّبَت واتُّهمت بالجنون وأُحرقت، ولم يفهمها الرجال على حقيقتها إلا بعد موتها بحوالي خمسمائة عام سنة ١٩٢٠، حين كُرِّمَت واعتُبرت شهيدة قديسة.

ولعل أعجب ما صادفني وأنا أقرأ عن هذه العصور الوسطى هو تلك الطريقة التي كان يتبعها الكهنة، (وكان الناس في ذلك الوقت تقول عنهم الأطباء أيضًا) لتشخيص السحر أو الشر أو الجنون؛ وذلك باكتشاف بعض مظاهر معينة على جسم المرأة. ويكتب «روبينز» يصف عملية فحص سيدة اسمها ميشيل شاندرون من جنيف اتُّهمَت بالسحر، يقول: «كان الأطباء يفحصون جسمها بحثًا عن علامات الشيطان، فتُغرَس في جسمها إبر طويلة، وتبكي وتصرخ ميشيل من الألم وينزف الدم من الثقوب التي أحدثتها الإبرة، وحين لا يعثر الأطباء على علامة واحدة من علامات الشيطان (كانوا يعتقدون أن هذه

العلامة جزء في جسم المرأة إذا غُرست فيه الإبرة لا ينزف دمًا ولا يسبب لها ألمًا)، يأمر القضاة بتعذيب المرأة حتى تعترف بذنبها؛ فتثبت عليها التهمة قولًا بعد أن عجزوا عن إثباتها جسدًا بعلامة الشيطان، وبعد اعترافها (كان معظم هؤلاء النساء من شدة الآلام يعترفن بكل ما يُطلَب منهن الاعتراف به)، يأخذ الأطباء المرأة مرة ثانية ويبحثون بالإبر الطويلة في جسمها عن علامة الشيطان، وحينئذ يعثرون على دائرة صغيرة فوق فخذ المرأة تُغرَس فيها الإبرة، فلا تصرخ المرأة من الألم ولا يظهر الدم الأحمر (وهذا طبيعي لأن المرأة بعد هذا التعذيب تفقد الإحساس بالألم، وقد تموت بعض أجزائها فعلًا فلا تنزف الدم)، ويأخذون المرأة بعد ثبات الاتهام إلى حيث تُشنَق أو تُحرَق.»

وكان هناك طريقة أخرى لإثبات مثل هذا الاتهام على المرأة، وكان تُسمَّى «طريقة السباحة»، وتتكون من ربط المرأة المتهمة بالحبال بحيث يكون إبهامها الأيمن فوق إصبع قدمها اليسرى، وإبهامها الأيسر فوق إصبع قدمها اليمنى (على شكل صليب)، ثُمَّ يُلقون بها في حوض ماء عميق القرار كالبئر، ثلاث مرات إذا لزم الأمر، فإذا طفت فوق سطح الماء فهي مذنبة، وإذا لم تطفْ وبقيت في القاع فهي بريئة، وفي هذه الحالة الأخيرة يحاولون انتشالها من الماء لإنقاذها، لكنها تكون في أكثر الحالات قد غرقت فعلًا.

وقد كتبت كريستينا هول تقول: «لم يكن أحد يعرف عن يقين من هي المرأة الساحرة الشريرة.»

وهذا القول يمكن أن ينطبق أيضًا على الأمراض النفسية، فلا أحد يعرف عن يقين من هي المرأة المريضة نفسيًّا ومن هي المرأة غير المريضة نفسيًّا؛ فإن معظم وسائل وطرق الفحص النفسي لا تختلف كثيرًا عن البحث عن علامة الشيطان ... إنها أكثر تهذيبًا ورُقيًّا بلا شك (بسبب التقدم التكنولوجي)، ولكنها كإبرة طبيب العصور الوسطى تُضرَب في الظلام مهتدية في طريقها بتعاليم الأب «سجموند فرويد» الذي قال بأن المرأة الطبيعية هي ذكر بغير عضو تناسل، وإن جميع النساء يعشن حياتهن بحثًا عن استرداد ذلك العضو الضائع بلا جدوى؛ فالإحباط مصيرهن وقدرهن المحتوم. تمامًا كما قال كهنة وأطباء العصور الوسطى بأن جميع النساء باعوا نفوسهن للشيطان، وأن الإنسان يكفيه أن يكون امرأة ليصبح شريرًا. ويكفي قولهم: امرأة بتلك اللهجة التي تعني قولهم الشيطان! وقولهم: رجل! ومعناه العظيم الشجاع القوي. وقد ورث العهد الجديد كل هذه المعاني التي ترجع إلى فكرة رجال العصور الوسطى، الذين اعتبروا أنفسهم ممثلي الله والخير والحق، والنساء يمثلن الشيطان والضلال والشر، وأنهن أعداء الله، اللائي يتمردن ويخرجن عن طاعته،

وطاعة الله معناها طاعة الزوج؛ لأن الزوج هو ممثل الله؛ ولهذا كان يكفي أن تخالف المرأة زوجها في تلك العصور لتُتَّهَم بالسحر والشر أو الجنون، وتُعذَّب وتُحرَق أو تُسجَن في المستشفى العقلي، بل لم يكن الأمر يستدعي أحيانًا أن تخالف المرأة زوجها، كان يكفيها أن تكون امرأة متزوجة.

ويمكن أن نتصور كيف انتقلت هذه الأفكار عبر العهود المختلفة، حين نعلم أنه حتى سنة ١٨٦٠ لم يكن ضروريًّا للإنسان أن يكون مجنونًا ليوضع في أحد المستشفيات العقلية الأمريكية، بل كان يكفيه أن يكون امرأة متزوجة، وحينما حُبست السيدة باكارد (الشهيرة في التاريخ الأمريكي) في مستشفى «جاسونفيل» العقلي؛ لأنها اختلفت في الرأي مع زوجها القس أو راعي الكنيسة؛ فإن هيئة المحكمة في ولاية إلينوي أوضحت بصريح العبارة قائلةً: إنه يمكن في حالة النساء المتزوجات أن يُحبَسن في المستشفى العقلي إذا طلب أزواجهن ذلك (أو ولي أمرهن) دون حاجة إلى إثبات مظاهر الجنون أو أعراضه التي يجب أن تثبت في الحالات الأخرى.

هؤلاء النساء كن يُعتبرن مريضات بالجنون لمجرد اختلافهن مع أزواجهن أو أولياء أمورهن، وكما يقول توماس زاس: إن ثلاثمائة عام مرت دون أن يحاول علماء النفس كشف هذه الحقيقة، بل لعلهم شاركوا في إخفائها. والسبب في ذلك يرجع (في رأيه) إلى سببين اثنين: أحدهما أن هؤلاء العلماء رجال وليسوا نساء، والسبب الثاني أنهم كغيرهم من الرجال وكغيرهم من أصحاب المهنة الواحدة؛ فإنهم يتعاطفون في معظم الأحوال مع مصالحهم المهنية والاقتصادية، بل إنه لا يزال حتى الآن من ينظر إلى المرأة التي تخالف زوجها (خاصة إذا كان ذات منصب مرتفع) نظرة شبيهة بتلك النظرة القديمة؛ إنها قد لا تُتهم بالجنون صراحةً، وقد لا تُحبَس في المستشفى العقلي أو النفسي، ولكنها تُعتبَر امرأة عُصابية Neurotic، وهو نوع من المرض النفسي أخف من الجنون الكامل، ويُعالَج بالحقن المهدئة أو الحبوب المنومة، أو بالتحليل النفسي الذي يقنعها بأنها إنسانة مُحبطة إلى الأبد بسبب بحثها اللامُجدي عن عضو الذكر، وأن علاجها الوحيد هو اليأس الكامل من الحصول على هذا العضو السليم بالأمر الواقع وقبول جسدها الناقص عُضوًا، ونفسها الضعيفة الماسوشية، ووضعها الأدنى كامرأة، فإن قبلت المرأة هذا المنطق الفرويدي قيل إنها شُفيت من عُصابها، وإذا رفضته قيل إنها لا تزال في حاجة إلى علاج وإلى جلسات نفسية أخرى، أو جلسات كهربية؛ لتغير الكهرباء من تفكيرها المعوج، ولتستسلم إلى الأبد إلى حقيقة كونها ذكرًا مخصيًّا جسدًا ونفسًا.

ولعل من أهم ما جعلني أهجر قسم الأمراض النفسية منذ ثمانية عشر عامًا هو رغبتي في الفرار من منظر هؤلاء المرضى والمريضات الذين كان يُسلط على رءوسهم كل يوم تيار كهربي عنيف، وتدوِّي الصرخة الحادة في الجو، ثُمَّ تتقلص عضلات الجسد والعنق تقلُّصًا شديدًا، وتضغط الأسنان على اللسان (إذا نسي التمورجي أن يضع بين الفكين قطعة كوتش) وينزف الدم. كنت أقرأ عن فوائد الصدمة الكهربية في الكتب، وحين أرى هذا المنظر أدرك أنني غير مقتنعة على الإطلاق بهذا النوع من العلاج، وحينما كنت أصرح بذلك للأستاذ ينظر إليَّ من علياء كما ينظر معظم الأساتذة إلى طبيب أو طبيبة الامتياز، ويقول بصوت مليء بالزهو والكبرياء: هذه الجلسات الكهربية مفيدة جِدًّا، وتأثيرها على كيمياء المخ ثابت في المراجع الطبية.

ولم أكن بطبيعتي ممن يقدسون الكلمات المطبوعة في الكتب، وقرأت شيئًا عن أثر الصدمة الكهربية على المخ وتحسن بعض الحالات بعدها، لكني ظللت غير مقتنعة بهذه الوسيلة البربرية في علاج هؤلاء المرضى والمريضات، ومعظمهم لا يمرض إلا من فرط حساسيته وفرط رقته وإنسانيته، فإذا به يُربَط بالحبال أو يقيد التمورجي ذراعيه وساقيه ثُمَّ يُسلَّط على رأسه التيار الكهربي العنيف.

وظللت أختزن كراهيتي لهذا النوع من العلاج النفسي طويلًا، وكلما وقع تحت يدي كتاب جديد في الطب النفسي أخذت أبحث فيه عن رأي يُدين الجلسات الكهربية، وكم كانت فرحتي منذ خمس سنوات تقريبًا، حين كنت أحضر أحد المؤتمرات النفسية في كوبنهاجن عاصمة الدانمارك، وسمعت أحد الحاضرين يدين الجلسات الكهربية، وصفقت طويلًا حتى كدت أمزق يدي، وحين صافحت الأستاذ كدت أعانقه، وعرفت بعد ذلك أن كثيرين غيره أدانوا هذا النوع من العلاج، واستطعت أن أحصل على عدد من الكتب والأبحاث الجديدة التي جعلتني أومن بأن إحساسي كان صادقًا منذ ثمانية عشر عامًا.

وقد شعرت بنوع من الراحة حين قرأت هذه الكلمات على لسان البرفسور «يوجو سيرليتي»، وهو الرجل الذي بدأ الصدمة الكهربية كعلاج نفسي، لكنه حين نظر في أواخر أيام حياته إلى الأثر الذي صنعته يداه قال لأحد زملائه: «حين أتذكر ما كان يحدث للمريض أفكر بيني وبين نفسي أن هذا العلاج يجب أن يُمحى من الوجود.»

وقد أصبحت أحب قراءة التاريخ (رغم أن الطريقة التي تعلمت بها التاريخ في المدرسة الابتدائية والثانوية جعلتني أكره التاريخ سنوات طويلة)، وسبب حبي للتاريخ أنني وجدت فيه تفسيرًا لكثير من الظواهر الحاضرة التي لا أقتنع بها؛ فالتاريخ يصل الماضي بالحاضر

في ظاهرة ما من حولي، أعود إلى التاريخ وأبحث عن أصلها وجذورها، فإذا بالشيء غير المفهوم يصبح مفهومًا، والشيء المجهول السبب يُعرف سببه الحقيقي البعيد.

ولقد تحيرت في ظاهرة الصدمات الكهربية كعلاج نفسي للمرضى، وأخذت أبحث عن جذورها في التاريخ، وقادني التاريخ إلى حقيقة غريبة، في العصور الوسطى كانت ظاهرة سمو جنس الرجال وانحطاط جنس النساء قد بدأت بوضوح وارتبطت في الأذهان بتلك الفكرة الدينية التي نادت بأن الرجال حلفاء الله وأن النساء حلفاء الشيطان، وأعطى ممثلو الله على الأرض (الكهنة) لأنفسهم الحق في حرق أو تعذيب النساء الساحرات الشريرات اللائي يرفضن أوامر الله (يعني أوامر الكهنة الرجال أو أزواجهن أو أولياء أمورهن). وكان التعذيب يشمل تثقيب جسم المرأة بالإبر الطويلة حتى الموت، أو ربطها في كرسي حديدي ثُمَّ إشعال النار تحت هذه الكرسي وحرقها. وعُرف هذا الكرسي باسم «كرسي الساحرة الشريرة Witch chair»، ومنه تطور «الكرسي المهدئ Tranquilizer chair» في القرن الثامن عشر، حيث تجلس المرأة المُصابة بالجنون أو الهستيريا (كان اسمها من قبل الساحرة الشريرة)، ويُربَط ذراعاها وساقاها معًا، على أن يُرفَع رأسها في وضع ثابت بواسطة جهاز معين، وتُترك هكذا مددًا طويلةً حتى تُشفى من جنونها أو من الهستيريا. والشفاء هنا هو أن تخضع وتطيع زوجها أو ولي أمرها. وفي القرن التاسع عشر تطور هذا الكرسي وأصبح معطفًا حديديًّا تدخل فيه المرأة وسُمِّيَ بمعطف الخصر Waist coat. وفي القرن العشرين تطور ذلك إلى الصدمة الكهربية بمرور تيار كهربي في الجسم، أو الصدمة الكيماوية بالحقن بالأنسولين، أو المعطف الكيماوي المُسَمَّى بالمهدئات.

إن التشابه بين الكرسي الكهربي الذي يُقتَل به المساجين والصدمة الكهربية التي يُعالج بها بعض المرضى والمريضات نفسيًّا ليس تشابُهًا بالصدفة؛ فالتاريخ يعرفنا بأن السجن والمستشفى العقلي كانا مكانًا واحدًا يُوضَع فيه الخارجون والخارجات عن قيم المجتمع ... في سنة ١٧٧٨ كان «السالبتريير Salpétriere» في فرنسا هو أكبر مستشفى وسجن في أوربا، وكان يوضع فيها السجينات من النساء والمريضات بالصرع والجنون والهستيريا والشلل والعمى وغيرها، وكان فيه قسم للبنات المتمردات وقسم للنساء الحوامل وقسم للرجال المرضى من كبار السن. ولم يكن هذا المستشفى يقدم أي نوع من العلاج، ولكنه كان بمثابة سجن يحمي المجتمع من هؤلاء الذين يهددون استقراره واستقرار قيمه السائدة.

عدم التكيف مع المجتمع كان يعتبر مرضًا مُعديًا كالدرن والزُّهري، يمكن أن ينتقل بسرعة إلى الآخرين ويهدد النظام والسلطة القائمة بالانهيار؛ ولذلك كان لا بدَّ من عزل

هؤلاء غير المتكيفين في مكان بعيد عن الناس أو علاجهم بالكهرباء أو الحقن أو الأقراص؛ ليصبحوا متكيفين مع المجتمع متقلبين مع القيم والأفكار السائدة.

ولأن القيم والأفكار السائدة تتغير من عهد إلى عهد باختلاف السلطة، فإن عدم التكيف أيضًا يختلف من عهد إلى عهد، ويوضح لنا التاريخ أن القيم والأفكار السائدة ليست بالضرورة هي الأفكار الحقيقية أو الأفكار الصحيحة، ولكنها أفكار السلطة الحاكمة في ذلك العهد، وكم تصبح الحقيقة أحيانًا مخيفةً إلى حد اتهام قائلها بالجنون، وكما يقول كيركجارد: «الحقيقة ... لا ...» إن الإنسان بطبيعته يخشى الحقيقة أكثر مما يخشى الموت، وهذا شيء طبيعي تمامًا؛ لأن الحقيقة مفزعة للإنسان أكثر من الموت.

إن الصراعات الأساسية في الحياة البشرية ليست صراعات بين نوعين من الأفكار، أفكار حقيقية وأفكار غير حقيقية، ولكنها صراعات بين نوعين من الناس، نوعه معه السلطة ونوع مضطهد ينشد التحرر من السلطة، ومن الطبيعي أن يحمي أصحاب السلطة سلطتهم بأفكار معينة ويضربون بيد من حديد كل من يهدد سلطتهم بتشكيك الآخرين في حقيقة تلك الأفكار السائدة.

وقد اكتشف علماء التاريخ والنفس والأنثروبولوجيا في السنوات الأخيرة أن من سبقهم من العلماء وقعوا في الأخطاء نفسها التي وقع فيها من سبقهم، وأولئك وقعوا في أخطاء من سبقوهم، وهكذا ... انتقلت الخزعبلات والأفكار الخاطئة من عصر إلى عصر؛ وبسبب قِصر عمر الإنسان الفرد بالنسبة لعمر الإنسانية، وبسبب السرعة والسطحية وتحيز الرجال لأنفسهم (معظم العلماء من الرجال)، فقد ضاعت الحقائق في ظلام أحقاب الماضي والتاريخ، وأصبح على العلماء الجدد من ذوي النظرة المحايدة إلى الرجل والمرأة أن ينقبوا تحت ركام التراب والزمن عن جذور الحقائق الضائعة.

ويقول هربرت مولر:

> لقد اتضح لنا الآن أن الرجال (قليلي الحظ) الذين عاشوا في الماضي قد اعتنقوا أفكارًا مضحكة، ولكننا ننسى أن علماء التاريخ في المستقبل سوف يشيرون إلينا ويقولون: إننا أيضًا عشنا أفكارًا وخزعبلات مضحكة.

سيكولوجية الأب والغيرة من المرأة

«لو أننا قارنَّا طاقة النساء المعنوية بتلك التي للرجال، وراعينا ما تعرضت له النساء من اضطهاد اجتماعي وقانوني وجنسي، وتذكرنا عدد النساء اللائي تعرَّضن للسخرية أو التعذيب أو القتل، وصمودهن وتمسكهن بمبادئهن، وبشجاعتهن وبسالتهن، وعظمة عقولهن، فسوف نجد أننا لا نملك بأي حال من الأحوال أي دليل على أن المرأة أقل من الرجل، وأننا لن نعرف المزيد عن قضية مساواة المرأة بالرجل إلا في ضوء الملاحظات الجديدة.»

هذه كلمات «رجل» كان من أوائل الرجال في العالم الذين استطاعوا — بسبب اتساع أفقهم وعقولهم وصدق أحاسيسهم — أن يدركوا الظلم الواقع على المرأة والفكرة الخاطئة النابعة من الفلسفة الذكورية، والتي تقول بسمو جنس الرجال على جنس النساء، وكان اسمه «جان كوندروست»، وهو أحد رجال الثورة الفرنسية.

ومن رواد الأفكار الجديدة عن المرأة منذ بداية هذا القرن العشرين عالِم عظيم، استطاع بذكائه وملاحظاته وصدق إحساسه ألا يقع في شَرَك الأفكار المتوارثة، وهذا العالم هو «ليستر وورد»، لاحظ أن الظاهرة الاجتماعية التي تقول بسمو جنس الرجال ليست طبيعية في الإنسان، وليست طبيعية أيضًا في حياة الكثير من الفصائل الحيوانية والنباتية، وكتب يقول: «لو لاحظنا بعض النباتات كالمدقة والسداة لوضح لنا أنه في فصائل النباتات العليا عامة لا يكون الذكر إلا مخصِّبًا للأنثى فحسب، أمَّا الأنثى فتظل وتستمر وتنضج الثمرة، إن ذكور هذه النباتات تذبل وتموت بمجرد أن تفرز مادة الإخصاب، فليس لهم وظيفة أخرى.»

ويخرج ليستر وورد من ملاحظاته في عالم النباتات والحيوانات أن الوظيفة الأصلية للذكر في الحياة الأولى كانت مؤقتة وثانوية بالنسبة لوظيفة الأنثى، وهناك بعض أنواع

من الذكور لم يكن يحتوي جسمهم إلا على تجويف كبير بداخله الخُصية، وأحيانًا كان يتضاءل الذكر ليصبح مادة الإخصاب فقط، وأحيانًا لا يكون إلا خُصية تعيش طفيليًّا على الأنثى.

ويكوِّن ليستر وورد نظريته من ملاحظاته الطويلة للحياة الطبيعية بين أشكال الحياة الأولى، ويقول إنه نتيجة لعملية الانتخاب الطبيعي فإن عملية جديدة خرجت إلى الوجود، هي عملية الإخصاب، وقد حدثت أول الأمر بواسطة عضو داخل الكائن ذاته (الخنثى)، ثُمَّ انفصل هذا العضو عن الكائن الأساسي وأصبح كائنًا صغيرًا جديدًا يختلف عن الكائن الأصلي، وعاش هذا الكائن الجديد أول الأمر طُفيليًّا على الكائن الأصلي ثُمَّ أصبح ملحقًا به، وحمل في كيس تطور لهذا الغرض.

وعلى هذا يقول «وورد» بعد ملاحظاته في عالم النبات والحيوان الأرقى إن الأنثى في الحياة منذ نشأتها الأولى هي الأصل والذكر فرع لها، وهو يتبنى من بعد ذلك نظرية أن الأنثى في الحياة أسمى من الذكر ودورها أكثر أصالةً وأهمية.

ويردُّ «وورد» على حُجة أن بعض ذكور الطيور والحيوانات أكبر حجمًا من الأنثى وأبهى منظرًا وأكثر قوةً أن هذا ليس بسبب سمو الذكر، وإنما هو نتيجة الانتخاب الطبيعي الذي فرض على الذكر بواسطة قوة الأنثى الأصيلة وقدرتها على الانتخاب واختيار الأحسن فالأحسن من الذكور، ولم يكن أمام الذكر أي اختيار سوى أن يصبح أحسن فأحسن؛ ليُرضيَ متطلبات الأنثى المتزايدة. ويكشف «وورد» في حقيقة ما سُمِّيَ بعدوانية الذكر قائلًا: إن المعارك بين الذكور — رغم عنفها — نادرًا ما تُسبب الوفاة، وليس حقيقيًّا أن أقوى الذكور تخضع الإناث، إن الأنثى — حتى وإن كانت أقل من الذكر حجمًا وقوةً — تفرض سيطرتها وتمارس اختيارها بالقوة والإصرار والدقة نفسها كتلك الحالات التي تكون فيها أكثر قوة منه؛ ولذلك فإني أرفض اصطلاح «التفوق الذكري» من أجل تلك الحالات القليلة نسبيًّا التي اكتسب فيها الذكر حجمًا أو قوةً أكثر من الأنثى، أو اكتسب تلك الألوان أو الريشات التي جمَّلته بها الأنثى. وليس هناك ما هو أكثر زيفًا من ترديد ذلك المفهوم الذي أوحت به إلى العالم الفلسفةُ الذكرية؛ وهو أن الذكور الأقوياء يهبون هذه القوة المكتسبة لحماية الصغار وإطعام الأنثى. إن هؤلاء الذكور في الطيور والحيوانات الثديية الذين اكتسبوا قوةً أو جمالًا مثل الطاووس والديك الرومي والدراج وديك الفراخ في الطيور والأسد والغزال والخروف في الحيوانات الثديية، هؤلاء الذكور لا يفعلون شيئًا لأسرهم تقريبًا؛ إنها الأم، والأم وحدها هي التي تحمي الصغار وتطعمهم وتحارب من

أجلهم عند الضرورة، إنها هي التي تثبت الشجاعة الحقيقية، الشجاعة في مهاجمة الأعداء الذين يهددون بقاء الفصيلة. إن حيوانات كثيرة مفترسة تهرب من أمام الإنسان، والاستثناء الوحيد هو الأنثى مع صغارها، إنها الوحيدة التي تمثل الخطر للإنسان. إن الأسد الذكر في الحقيقة ليس إلا جبانًا، ويتعلم الصياد الإنسان كيف يحذر خطر اللبؤة ... وماذا يفعل الثور أو العجل أو الديك لحماية صغاره؟! ليس عليك إلا أن تقترب من الفرخ الصغير، ولسوف تكون الفرخة الكبيرة هي التي تنكش ريشها تحفُّزًا وهي التي تتجرأ على مهاجمتك.

ويرى «وورد» أنه ليس هناك حتى الآن من سبب علمي لنعتقد أن الإنسان تطور بطريقة أخرى غير الطريقة التي تطورت بها الثدييات والحيوانات، إلى مرحلة تشكل وتطور جنين الإنسان إلى ذكر وأنثى. ولا يعرف العلم إلا قليلًا جدًّا عن تلك المرحلة البيولوجية في بداية ذلك التشكيل؛ لكن «وورد» يقول إن المرأة البدائية كانت تمتلك قوة أكثر من الرجل، بصرف النظر عن حجم الجسم، وإنها هي التي سيطرت على الحياة والنسل لفترات طويلة جدًّا من الحياة البشرية؛ وقد وضح ذلك من الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخ. وقد سَمَّى «وورد» هذه المراحل الأولى باسم «مرحلة البروتوبلازم الاجتماعي». وقد كان اختيار الأنثى للذكر حُرًّا بل هو الأساس وهو النهائي، ولا تزال بقايا هذه المجتمعات الأموية في بعض القبائل الأفريقية حتى اليوم؛ إن المرأة في قبيلة «أويمبا» في شرق إفريقية هي التي تحدد العلاقة بينها وبين الرجل، وهي التي تختاره، وحين تختاره فهو لا يستطيع أن يرفضها، وفوق ذلك فإنها إن لم تنجب منه طفلًا خلال السنة الأولى من علاقتهما فهي تطرده وتختار رجلًا غيره. وهذه السلطة والحرية أيضًا تتمتع بها المرأة في «أوغندة» و«داهومي»، حيث تجلس النساء على مثل العرش الذي تجلس عليه نساء «أويمبا».

ويعتقد «وورد» أن اكتشاف الرجل لأبوته التي ظلت مجهولة فترة طويلة هو الذي جعله يحاول تحقيق ذاته؛ وذلك بأن يثور على المرأة ويعزلها عن عرشها الذي هيأته لها طبيعتها البيولوجية. وتشير معظم المصادر الأنثربولوجية عن هذه الفترة من تاريخ البشرية إلى تلك الكراهية المبكرة التي يشعر بها الرجل نحو ملكته الأصلية وهي أمه، وكان على هذه الأم بالطبع أن تفطمَه؛ لأن المستقبل أمامهن كان مفتوحًا ليصبحن كأمهاتهن النساء ذوات السلطة والحرية والاختيار، أمَّا الأولاد الذكور الصغار فكانوا على عكس ذلك، يشعرون بوضعهم الطفيلي على الأم، وحاجتهم الشديدة بها لتطعمهم، ولم يكن أمام

الذكور إزاء اختيار المرأة القوية الشكيمة العنيدة الممتلئة ثقة بنفسها، والتي كانت بغريزتها الطبيعية لا تختار إلا أقوى ما ينتجه الجنس البشري من ذكور، ولم يكن أمام الذكور في مثل هذه التربة النفسية إلا أن يشعروا بالكراهية والحسد لجنس النساء. ويرجع بعض علماء النفس الذين احتاروا في معرفة أسباب تلك الكراهية الدفينة التي يظهرها بعض الرجال من المرضى «بالشيزوفرنيا» أن هذه الكراهية قد نبتت في أعماق ذاكرة الإنسان إلى هذه الفترة الأولى من حياة البشرية، ويرجِّحون أيضًا أن في هذه التربة النفسية الأولى التي عاشها الذكر نبتت الجذور الأولى لتلك الظاهرة التي تُسمَّى في علم النفس باسم «حسد المرأة Woman Envy» أو ذلك الحنين الدفين في نفس الذكر للأمومة، ولأن يكون أنثى تحمل وتلد، والذي يظهره بوضوح بعض الرجال المرضى بالانفصام أو الأمراض النفسية الأخرى، وأيضًا الظاهرة المسماة «ظاهرة كوفاد Phenomenon of Couvade» وغيرها من الظواهر النفسية التي صادفت معظم أطباء وعلماء النفس بين حالات الرجال، حين يشعر الرجل بالحنين إلى أن يكون امرأة أو يحاول ذلك فعلًا.

ويتابع العلماء من أصحاب هذه النظرية في تطور الذكر والأنثى في الإنسان أن الرجل ظل يتطور ويقوى من أجل أن تختاره المرأة، إلى أن اكتسب قوة كافية استطاع بها أن يرتكب أول حادث اغتصاب في التاريخ البشري، وكأنما أراد أن ينتقم بشكل ما من المرأة التي يكبت لها منذ زمن تلك الكراهية وذلك الحسد والغيرة. ويعتقد هؤلاء العلماء أن الجريمة الأولى التي وقعت في حياة البشرية لم تكن جريمة قتل الأب، ولكنها كانت جريمة الاغتصاب هذه، وربما اعتقد فرويد ذلك أيضًا حين كتب في ختام كتابه «الطوطم والتحريم»: «في البدء كان الفعل»، ويقول العلماء إنه يرجع إلى ذلك «الفعل الأول»، تلك الحالات المتكررة التي تصادف أطباء النفس حين تسيطر على بعض المريضات تخيلات وأحلام تدور كلها حول اغتصاب الرجل لها. وقد يكون هذا الاحتمال صحيحًا في بعض الحالات، ولكن هناك حالات أخرى من النساء تتخيل الاغتصاب وتحلم به بسبب التخويف الشديد من الذكر الذي ترسِّبه التربية المتزَمِّتة في نفس الطفلة البنت، وكذلك أيضًا بسبب الكبت والحرمان الجنسي الذي قد تعاني منه المرأة طوال حياتها؛ فلا تجد سبيلًا إلى الإشباع الجنسي إلا عن طريق التخيلات والأحلام، ولارتباط الإشباع الجنسي في ذهنها بالإثم منذ الطفولة، فإن الحل الوحيد لا يكون إلا بأن يغتصبها الرجل؛ وبذلك لا يكون لها يد في ذلك الفعل الآثم، وتنام بعدئذٍ مستريحة الضمير.

إن مثل هذه الاجتهادات العلمية وغيرها تلقي بعض النور على تطور علاقة الرجل والمرأة بيولوجيًّا، لكن هذه الدراسات البيولوجية لا يمكن فصلها عن الدراسات الاجتماعية

والحضارية والثقافية والاقتصادية التي أثَّرَت تأثيرًا كبيرًا على هذه العلاقة بين الجنسين والتي كان تأثيرها وتطورها يواكب التطور البيولوجي بطبيعة الحال؛ لأن الإنسان حيوان اجتماعي، يؤثر في المجتمع من حوله ويتأثر به على الدوام، ويتشكل بيولوجيًّا ونفسيًّا حسب هذا التأثير من أجل البقاء ومن أجل التطور أيضًا.

ويبدو أنه منذ البداية لم يكن سعي الرجل إلى المرأة لأخذها بالقوة (أو اغتصابها) بسبب حبه لها أو حبه في إنجاب طفل، بل كان رغبة عدوانية (سادية) للانتقام وانتزاع السلطة منها، ومعنى ذلك أن الدافع إليها لم يكن هو الحب، وإنما كان الحاجة إلى امتلاك هذه السلطة، وقد وُجد في الدراسات الأنثروبولجية أن في هذه الآونة بدأت الملكية الخاصة.

ويشرح «وورد» معنى الملكية بأنها امتلاك الإنسان لأشياء تزيد عن حاجته، ولأن حاجة الإنسان تزداد بالتدريج فإن رغبته في امتلاك الأشياء تزداد؛ ولهذا حاول ذَكر الإنسان بعد انتزاعه السلطة من الأنثى وامتلاكه لها أن يمتلك عددًا من العبيد وقطعة أكبر من الأرض، ومن هنا نشأت «الأسرة».

وفي ضوء هذا التطور البيولوجي والاجتماعي والاقتصادي يرى علماء الأنثروبولوجيا أن «الأسرة» لم تنشأ بدافع حب الرجل للمرأة والأطفال، وإنما نشأت بدافع الاستغلال الاقتصادي والطمع والكراهية، ويرون بهذا أن غيرة الرجل على امرأته وفرضه عليها العفة والعذرية والوحدانية في الزواج لم تنشأ بسبب «الحب»، وإنما بسبب الرغبة في الامتلاك والسيطرة، وأوضح «أوجاست كومت Auguste Comte» أن كلمة «الأسرة» تعني في أصلها اللاتيني الخدم أو العبيد.

ويكتب «وورد» موضِّحًا هذه الحقيقة ويقول: «وهكذا يتضح لنا مهما بدت الأسرة في البلاد المتحضرة أنها في أصلها ومنشئها لم تكن إلا مؤسسة لاستعباد المرأة والأطفال أكثر فأكثر، ولأنها قبلت الأوضاع الطبيعية التي كانت فيها الأم هي الملكة وهي التي تحدد من يكون الأب، وهي التي تحمي الأطفال بحب الأم الذي وُجد فيها بالطبيعة؛ لهذا الغرض، إن الأسرة البدائية لم تكن إلا عُضوًا ذكريًّا زائدًا ومتطفلًا على المجتمع الإنساني.»

ويقول بعض علماء النفس: إن الرجل لم يؤهَّل بطبيعته البيولوجية وبوظيفته الأساسية كمخصب للأنثى فقط أن يرتفع إلى إدراك معنى «الأبوة» نفسيًّا وإنسانيًّا، لقد استطاع باكتسابه بعض القوة العضلية على الأنثى أن يخضعها، ثُمَّ استطاع بطمعه الاقتصادي أن يمتلك العبيد وأن ينشئ الأسرة، وكان مدفوعًا دائمًا إلى كل ذلك بأنانيته ورغبته في السيطرة؛ ولهذا يقول هؤلاء العلماء: إن الرجل منذ البداية لم يكن لديه أي إدراك

عاطفي أو نفسي لمعنى «الأبوة» أكثر من إدراك «الجرو» أو «ديك الفراخ» لمعنى الأبوة، بل إن رغباته البيولوجية والجنسية قد فشلت في فتح عينيه على الحاجة إلى الأبوة. إن هذا الأب البدائي صاحب الأسرة البدائية كان يغضب حين تنشغل امرأته عنه بإطعام طفلها، وكان لا يعنيه إلا أن تُرضيَ المرأةُ حاجتَه إلى الطعام أو الجنس، وكان يعتبر الطفل الجديد مخلوقًا مفروضًا عليه، ومعطِّلًا لأمه عن تلبية مطالبه؛ ولهذا أضمر له الكراهية، وفي بعض الأحيان كان يقتله، وعرف التاريخ تلك الفترة حين كان الأطفال يُقتَلون بواسطة آبائهم بسبب عدم حاجتهم الاقتصادية إلى هؤلاء الأطفال.

ولعل هذا هو السبب في تلك الكراهية التي يخفيها أو يظهرها أحيانًا بعض الآباء المتحضرين في عالمنا هذا لأطفالهم، ولا يبدأ الأب في إدراك معنى الأبوة نفسيًّا وعاطفيًّا إلا بعد أن يكبر الطفل ويصبح نافعًا اقتصاديًّا؛ ومعنى هذا أن الأب البدائي لم يكن «أبًا» بالمعنى النفسي والإنساني الصحيح، وأنه تخلف عن المرأة كثيرًا نفسيًّا وإنسانيًّا، وأنه إذا كان هناك من هو «أسمى» من الآخر أو «أكثر تطوُّرًا» نفسيًّا وإنسانيًّا فإنها المرأة وليس الرجل.

لقد كان الرجل بطيئًا في تطوره النفسي كأب، وقد انشغل بنفسه وغرائزه عن أي شيء آخر؛ ولهذا كان يكره أن تكون المرأة أُمًّا، وإنما كان يريدها فحسب لتخدمه وتطعمه وتشبع رغبته الجنسية، على عكس أمومة المرأة التي تطورت منذ البداية كشعور عاطفي إنساني، والتي صمدت طويلًا بقوة وعنف أمام بطش الرجل بأطفاله وعدوانه الأناني المتخلف على الجنس البشري ذاته الذي ينتمي إليه، وربما انقرض هذا الجنس البشري بسبب عدوان الذكر لولا ذلك الصمود من المرأة وقوتها العظيمة السامية في المحافظة على النوع. وهذا هو السبب في تلك الصيحة التي أطلقها العالم الكبير ليستر وورد حين قال: «إن هذه الظاهرة كلها المسماة تفوق الرجل أو سمو جنس الرجل على جنس النساء، ليست إلا وصمة عار في جبين الإنسانية.»

وكان الرجل البدائي بسبب عجزه النفسي وتخلفه الإنساني عن الإحساس بمشاعر الأبوة كان يقتل أطفاله أو يستبعد الذكور منهم ويشغلهم كالعبيد سواء بسواء، أمَّا الإناث منهن فكان يستخدمهن كأدوات جديدة لإرضاء غريزته الجنسية، لكنه ظل رغم كل هذا العدوان الاقتصادي والجنسي والذي أشعره بنوع من القوة على المرأة، ظل يشعر في أعماقه العميقة أن هذه المرأة التي سلبها حريتها وسيادتها السابقة لا تزال هي الأقوى وهي الأسمى، وهي التي تمتلك تلك القوة الفريدة من نوعها على البشرية الإنسانية جمعاء. إنها

هي التي تنجب الأطفال وهي التي تحبهم، وهم يحبونها ويتشبثون بها ويكرهون الاقتراب منه. إنه هو، وبرغم أنه «السيد» فقد كان عاجزًا عن أن يكسب ثقتهم أو مشاعرهم أو شيئًا من ذلك الحب العارم الذي يكنُّونه لأمهم. وهكذا فإنه لم يكن غريبًا أن يكره الرجل المرأة ويحسدها على هذا الحب الذي يحوطها وتلك المشاعر الدافئة والأمان والطمأنينة ومشاعر الإنسانية والحنان والنفس المعطاءة القادرة على أن تحب وعلى أن يحبها الآخرون. لقد ظل الرجل عبر العصور المتتالية يحسد المرأة على كل هذا السمو النفسي والإنساني الذي عجز عن الوصول إليه رغم كل ما بذله من جهد وقوة وسيطرة وعلم وحضارة وتكنولوجيا، ولم يكن في إمكان الرجل أن ينزع من نفسه ذلك الإحساس تجاه سمو جنس المرأة، وإن حاول بمختلف العلوم والفنون أن يثبت العكس أحيانًا، أو يقلب الأوضاع ويجعل من هذه القوة الأنثوية ضعفًا، ويغير مسارها الطبيعي، فبدلًا من أن تكون مصدرًا لحرية المرأة وسيادتها تصبح عليها قيدًا وعبودية، ولعل هذا هو السبب في تلك العبارة الشهيرة في تاريخ البشرية: «ستلدين في الألم والأسى»، ولعل هذا أيضًا هو سبب محاولة الرجل لانتزاع صفة الولادة والإنجاب من المرأة، فهو تارة يلد المرأة من ضلعه (حواء من ضلع آدم)، وهو تارة يلدها من رأسه: «أتينا من رأس زيوس»، ولعل هذا يفسر شيئًا من تلك الهلاوس التي يراها بعض الرجال المرضى بالعُصاب أو الشيزوفرينيا حين يُخيل إليهم أن الجنين يولد من رأسهم أو من عضو التناسل. وقد نستطيع في هذا الضوء أن نفهم كثيرًا من الأساطير التي سادت عبر العصور والتي نبعت من خيالات ذكر الإنسان بسبب الكراهية والغيرة والعجز النفسي عن الوصول إلى مرتبة المرأة.

وقد صدق العالم النفسي الشهير «جريجوري زيلبورج» حين قال: إن هذه الحقيقة — حقيقة سمو جنس المرأة على جنس الرجل — غير قابلة للشك، وإنه لا يستطيع إدراك ذلك إلا أصحاب العقول المتحررة المتفتحة والذين ألموا بالكثير من المعلومات البيولوجية … وإنه إذا كان هناك بين الجنسين من هو شعر يومًا بأنه الجنس الأدنى بيولوجيًّا ونفسيًّا فهذا هو الرجل وليس المرأة.

إن هذا الشعور لدى الرجل بأنه أقل من المرأة وما ترتب على ذلك من كراهية هو الذي أوجد في الأمراض النفسية ظاهرة الكوفاد Couvade، وتتلخص في أن الرجل المصاب بها يتمثل شخصية الأم، ويصبح هو الأم نفسها بطريقة سحرية، أو بفكرة إجبارية عصبية مسلطة على تفكيره، ويقول «زيلبورج» إنه من خلال هذا التمثيل بالأم استطاع الرجل أن يدرك معنى الأبوة نفسيًّا، ومنها تطورت سيكولوجية الأب الإنسان الذي يستطيع أن يعطي الحب ويتلقاه.

وبهذا المفهوم يعيد «وورد» و«زيلبورج» وغيرهم من أصحاب هذا الرأي، يعيدون الأوضاع إلى طبيعتها بين الجنسين سواء بيولوجيًّا أو نفسيًّا، وينقدون الأساس العلمي والفكري الذي بنى عليه «فرويد» نظريته في سيكلوجية المرأة؛ إذ بنى فرويد هذه النظرية على ما سماه «الغيرة من عضو الذكر»، فالحقيقة هي أن المرأة لا تغار من عضو الذكر، ولكن غيرة الرجل من المرأة هي التي كانت الأساس التي بُنيت عليها سيكلوجية الرجل، ويمكننا أن نتصور كيف تنهار بذلك نظرية فرويد عن المرأة وعن ضعفها النفسي وصفات السلبية والماسوشية التي ألصقها بها. لقد عجز «فرويد» عن أن يفرق بين صفات المرأة الطبيعية وبين الصفات التي فُرضت عليها بواسطة الرجل ليخضعها ويضمن بقاءها تحت سيطرته، وربما أيضًا ورث «فرويد» شيئًا من تلك الكراهية والغيرة من المرأة؛ ولأنه كان ذكيًّا فقد صنع من كراهيته وغيرته نظرية علمية. على أنه من الإنصاف أن أذكر أن «فرويد» لم يدَّعِ أن نظريته هي الحقيقة، واعترف أكثر من مرة في أعماله أنه لا يفهم المرأة بدرجة كافية، وأن أفكاره عنها ليست نهائية، وهو مستعد لتغيير أفكاره دائمًا بتغير ملاحظات ومشاهدات وأفكار الآخرين وملاحظاتهم. وقال إن الباحث العلمي لا بدَّ أن يغير أفكاره بالسهولة نفسها التي تغير بها الحرباء لونها حسب لون الأرض التي تقف عليها. ولعل هذه عبقرية فرويد أو أي عالم عبقري آخر؛ فالعبقرية (في رأيي) هي تلك القدرة العقلية المستمرة على نفض القديم وتقبل الأفكار الجديدة إذا كانت أكثر اقترابًا من الحقيقة.

الطبيعة الجنسية البيولوجية للمرأة

إن البحوث الجديدة في علم الأجنة Embryology أثبتت خطأ الفكرة التي قالت بأن الجنين يكون في أول تكوينه مزدوج الجنس، وقد وُجد أن الجنين في كل الحيوانات الثديية يكون في أول مراحله أنثى، وكذلك في حالة الإنسان، فإن الجنين ينشأ في الأصل أنثى، ويستمر أنثى حتى الأسبوع السادس حين يبدأ الهرمون الجنيني الذكري فعله حتى الشهر الثالث من حياة الجنين. إن أعضاء الأنثى تتكون وحدها في الجنين منذ البداية دون حاجة إلى فعل الهرمونات المؤنثة. وقد وُجد أنه لو استؤصل المبيضان من الجنين الأنثى قبل الأسبوع السادس من عمرها، فإن هذا الجنين يظل أنثى وينمو أنثى مكتملة الصفات، بل إنها تمر كفتاة بجميع مراحل النمو الطبيعي بما في ذلك المراهقة أيضًا إذا ما حُقنت بالهرمونات التي تعوضها عن غياب المبيضين. أمَّا في حالة الجنين الذكر، فقد وُجد أنه إذا استؤصل منه الخصيتان فإنه يصبح جنين أنثى، وينمو ويتطور كأنثى، ويمر بجميع مراحل النمو الطبيعي في فترة المراهقة التي تمر بها أي فتاة إذا ما أُعطيت الهرمونات اللازمة.

ومن هذا الاكتشاف العلمي الجديد وجد علماء الأجنة والبيولوجيا أن الهرمونات الذكرية أقل شمولية أو أكثر تحديدًا في نشاطها من الهرمونات المؤنثة غير المحدودة في نشاطها الجنيني، وهذا هو السبب في أن المرأة تكون أكثر حساسية للهرمونات في مراحل حياتها بعد ذلك، وخاصة هرمون الذكور؛ لأن بعض الهرمونات الأنثوية تكون متوافرة خلال الحياة الجنينية وتؤثر بقوة نشاطها الأنثوي estogenic على الجنين، وتُعطي هذه الحساسية القدرة الفسيولوجية لأعضاء الأنثى فتنمو جنسيًّا بسرعة أكثر. وقد وُجد في

الحيوانات الثديية الراقية أن الأعضاء الجنسية للأنثى أو الجهاز البظري فيها Clitoral system يتطور بقوة وسرعة، وكذلك بعض الصفات الأنثوية الثانوية، ومنها إحساس الجلد الشبقي، ودرجة الإديما edema الجنسية العالية في أسفل الحوض أو العجان Perineum وهي تحدث بفعل الهرمون الأنثوي «برجسترون» الذي يحتوي أيضًا على نشاط ذكري قوي.

وُجد أن كل هذا يجتمع عند إناث الثدييات الراقية ليصنع غريزة جنسية عنيفة عدوانية، تعطي الأنثى قدرة لا محدودة للإخصاب في فترة الحرارة estrus. وهكذا فإن ميزة الإنجاب تزود الأنثى بقدرة جنسية لا محدودة أو لا نهائية. وهذه القدرة في إناث الثدييات الراقية (الأدنى من الإنسان مباشرة) ما كان يمكن أن تتطور على هذا النحو إذا كانت تتعارض مع الأمومة وإرضاع الأم لنسلها؛ ولهذا فإن هذه القدرة الجنسية اللامحدودة تحدث فقط في فترة الحرارة القصيرة estrus وتختفي تمامًا في الفترات اللاجنسية الأخرى الطويلة من حياة إناث الثدييات، وتُسَمَّى الفترات غير الحارة anestrus.

وقد وُجد أن الإنسان لا يختلف كثيرًا عن هذه الحيوانات الثديية، وأن هذه الظواهر لها ما يقابلها في المرأة فسيولوجيًّا وجنسيًّا. ووضح ذلك «ماسترز» وجونسون في بحثهما، وفيما يلي ملخص لما وصلا إليه بالنسبة لطبيعة المرأة الجنسية أو ما يُسمَّى باسم الدورة الجنسية عند المرأة Sexual response cycle.

(١) لا يوجد أي فارق في المرأة بين قمة اللذة أو الأورجازم المهبلي vaginal orgasm وبين الأورجازم البظري clitoral orgasm، إن طبيعة الأورجازم في المرأة واحدة بصرف النظر عن المنطقة المثارة في جسم المرأة. ويتكون الأورجازم من الانقباضات المنتظمة للعضلات المهبلية الخارجية، والتي تدفع في انقباضها شبكة الأوردة المتضخمة بالدم والتي تحيط بالمهبل، وكذلك الأنسجة المحيطة بالثلث الأسفل من المهبل، والتي تحوط فتحة المهبل، والتي تمتلئ بالدم أثناء الإثارة الجنسية.

(٢) أثناء العملية الجنسية فإن طبيعة أعضاء المرأة الجنسية الأخرى الحساسة تحافظ على استمرار إثارة البظر الذي انكمش أثناء تواجد العضو الذكري في المهبل. إن استمرار الحركة القوية المنتظمة داخل المهبل تساعد على الضغط وشد هذه الأعضاء بانتظام (التي تعمل جميعًا كوحدة واحدة) مما يزيد في إثارة رأس البظر. وتحدث الإثارة للبظر بالشد المنتظم المستمر للغشاء المُسَمَّى prepuce، والذي تورم وتضخم بسبب امتلائه بالدم، وتحدث الإثارة نفسها للبظر إذا حدثت هذه الإثارة له مباشرةً باليد.

(٣) إن النساء بطبيعتهن قادرات في حالة حدوث الإثارة الجنسية الكاملة على الوصول إلى الأورجازم أكثر من مرة بل مرات متعددة، قد تصل إلى ست مرات أو أكثر خلال العملية الجنسية الواحدة، ووُجد أنها قد تصل أحيانًا إلى ٥٠ مرة أو أكثر إذا استمرت الإثارة للمنطقة البظرية واستطاعت المرأة أن تتحكم في توترها الجنسي وتحتفظ بمدد أطول من الإثارة.

وقد خرجت «شيرفي» من هذه الملاحظات ومن ملاحظات بيولوجية أخرى بنظرية جديدة تتلخص في الآتي:

(١) إن رأس البظر أكثر حساسية للإثارة الجنسية من الثلث الأسفل للمهبل. وفي تطور القدرة الجنسية في الثدييات الراقية وُجد أن هذه القدرة انبثقت أساسًا من الانتخاب التكيفي للتورم العجان Perineum والجهاز البظري، وليس من المهبل.

(٢) إن قدرة النساء الأورجازمية (في حالة الإثارة الكافية) قد تكون مشابهة لقدرة إناث الثدييات الراقية. وفي الحالتين، فإن أعلى درجة من الأورجازم لا تتحقق إلا بدرجة عالية من التورم والانتفاخ بالدم للأوردة والأنسجة أسفل الحوض، والتي تصاحب فترة الحرارة estrus في الثدييات وفترة Luteal phase من الدورة الشهرية في النساء، أو بالإثارة الطويلة المستمرة. في هذه الحالات فإنه مع كل مرة من مرات الأورجازم يزيد انتفاخ أوردة وأنسجة الحوض بالدم، وهذا يساعد على تكرار الوصول إلى الأورجازم؛ فيزيد هذا من امتلاء أوردة وأنسجة الحوض بالدم؛ فيزيد عدد مرات الأورجازم، وهكذا يستمر الحال حتى يتسبب الإجهاد الجسدي في التوقف.

(٣) وعلى هذا يتضح أنه في إناث الثدييات وفي النساء تطورت قدرة جنسية دائرية لا محدودة، نتج عنها تلك الحالة المزدوجة المتناقضة، وهي عدم الإشباع الجنسي مع وجود قمة الإشباع الجنسي. وقد كان لهذه الحالة أهمية في تطور أرقى فصيلة من الثدييات إلى الإنسان.

(٤) إن الحضارة الحديثة قد قامت لأسباب متعددة، لكن قيامها اقترن بقمع هذه القدرة الجنسية الدائرية في المرأة، لأن:

(أ) ارتفاع درجة تركيز الهرمونات في المرأة البدائية بالإضافة إلى القدرة الجنسية العالية وفترة الحمل الطويلة كان دافعًا قويًّا في أنثى الإنسان للتخلص من فترة الحرارة estrus كفترة جنسية قصيرة ومحدودة، وكذلك — بل الأهم من ذلك — التخلص من

فترة الإرضاع اللاجنسية؛ وهكذا أصبحت قدرة المرأة الجنسية مستمرة بغير انقطاع طوال الشهر. وفي ظل القدرة العنيفة المستمرة لم يكن ممكنًا على الرجل أن ينشئ الأسرة وقيودها بغير أن يكبح جماح المرأة ويقمع هذه الطبيعة العنيفة ويفرغها لرعاية الأطفال وخدمته بالبيت.

(ب) بنشوء النظام الاقتصادي المقترن بنشوء الزراعة المستقرة بدأت ملكية الرجل للأرض، واقترنت قوانين ملكية الأرض مع قوانين امتلاك الأطفال أو قوانين النسب التي أعطت النسب للأب.

ولم يكن لهذه الأسر الكبيرة العدد، والتي لا بدَّ أن يُعرف فيها الأب، أن توجد وأن تستمر، بغير أن تُقمع تلك القدرة الجنسية اللامحدودة في المرأة.

وتحاول «شيرفي» بهذه الأفكار أن توضح بشكل جديد أسباب بعض المشاكل الجنسية عند المرأة وكيفية علاجها ... وهي ترجع أسباب البرود الجنسي عند بعض النساء للآتي:

(١) عدم كفاية الإثارة الجنسية. (٢) عدم الامتلاء الكافي بالدم للأوردة والأنسجة الحساسة القابلة للانتصاب. (٣) عدم امتلاء أنسجة أسفل الحوض بالدم الكافي، وعدم تورمها الكافي؛ وما ينتج عن ذلك من توتر الأنسجة. (٤) عدم الاستجابة الكافية للعضلات في هذه المنطقة. وقد يتجمع عدد من الأسباب البيولوجية التي تسبب درجات مختلفة من البرود الجنسي، ونادرًا ما تعمل هذه الأسباب البيولوجية وحدها، ولكنها تخلق دائمًا أسبابًا نفسيةً تزيدها الضغوط الاجتماعية والثقافية شدة. وقد يحدث العكس، وهو أن تخلق الأسباب النفسية والضغوط الاجتماعية الأسباب البيولوجية التي تصيب المرأة بالبرود الجنسي، وهكذا في حلقة مفرغة لا نهاية لها ... ولهذا فمن الصعب التفريق بين البرود الجنسي النفسي والبرود الجنسي البيولوجي في المرأة. وفيما يلي عرض لبعض العوائق البيولوجية والجسمية التي تؤثر في قدرة المرأة الجنسية وتسبب لها نوعًا من البرود.

(١) تمزق في أعضاء المرأة بسبب الولادة

أكد معظم العلماء على أن تكرار الحمل يزيد من قدرة المرأة على الاستمتاع بالجنس؛ لأن الحمل يغرق جهاز المرأة بالهرمونات الجنسية، ويزيد من توافر الدم ونمو الانتفاخ وامتلاء الأوردة وأسفل الحوض بدرجة عالية قد تزيد عن تلك الدرجة التي تحدث أثناء

النمو الجنسي الشديد في فترة المراهقة. ولعل هذه الصفة والميزة للحمل هي التي ساعدت خلال التطور من الثدييات إلى الإنسان أن تحافظ الطبيعة على تلك القدرة الجنسية في المرأة، لكن الحمل كانت له مشكلة أخرى، ذلك أن جهاز الأنثى التناسلي في الثدييات كان مُعَدًّا لولادة نسل له رأس صغير.

لكن الذي حدث أن حجم رأس الإنسان ازدادت بأسرع مما زاد به اتساع حوض المرأة، وبرغم اتساع حوض المرأة على مر ملايين وآلاف السنين إلا أن عددًا كبيرًا من النساء يُصاب حتى عصرنا هذا بتمزق أثناء الولادة، وإنه قليلًا ما تلد المرأة أول طفل لها دون أن تُصاب بتمزق في بعض أنسجة جهازها التناسلي أو أعضائها الجنسية، وأحيانًا يشق الطبيب بمشرطه أو مقصه فتحة Epissiotomy في أقل أنسجة المرأة حساسية ليتفادى التمزق العشوائي برأس الطفل.

إن التمزق البسيط الذي يحدث عادةً نادرًا ما يعطل قدرة المرأة للوصول إلى الأورجازم، لكنه في بعض الأحيان يضعفها، بالإضافة إلى أن هذا التمزق يحدث عادةً عند ولادة أول طفل، فإذا أُصيبت به المرأة قبل أن تنضج جنسيًّا أو تحصل على كل كفاءتها الجنسية فإن هذا التمزق يلعب دورًا كبيرًا في إصابتها بالبرود الجنسي، خاصة إذا شمل هذا التمزق جزءًا هامًّا من الجهاز البظري أو غيره من الأعضاء الجنسية الحساسة.

(٢) الاختلافات التشريحية

استطاع ماسترز وجونسون أن يلاحظا أن هناك بعض الاختلافات التشريحية في الأعضاء الجنسية لبعض الناس مما يسبب نوعًا من البرود الجنسي إذا لم تعرف المرأة أو زوجها الطريقة الصحيحة لبلوغ الإثارة الكافية، إن الغشاء الذي يحوط رأس البظر prepuce قد لا يكون واحدًا فقط، وإنما قد يكون اثنين وثلاثة، أو تكون له زوائد إضافية، وقد يكون ناعمًا أو متعرِّجًا، سميكًا أو رقيقًا، قصيرًا أو طويلًا. وبالمثل أيضًا قد تكون الشفرتان الداخليتان مزدوجتين وعددها أربعة بدل اثنين، أو تكون لها زوائد إضافية، وقد تكون أيضًا ناعمة أو متعرجة، طويلة أو قصيرة. وكذلك فإن حجم البظر قد يكون كبيرًا، وقد يكون صغيرًا فلا تصل إليه الإثارة الكافية للحصول على الأورجازم، وفي هذه الحالة لا بدَّ من توجيه الإثارة إليه مباشرة وبدرجة كافية.

(٣) طفولة أعضاء المرأة

بعض الفتيات المراهقات يتأخرن في النضوج، وقد تحتفظ الواحدة منهن بحوض وأعضاء نصف طفولية حتى الحمل الأول، وفي هذه الحالات قد يكون الطمث قليل الكمية، والثديان صغيران، والجسم صبياني، مع وجود البرود الجنسي. ومن المفهوم أن نِسبًا معينةً من الهرمونات الجنسية لا بدَّ أن تكون متوافرة لتساعد على تطور انتفاخ الأوردة الدموية وتورم الأنسجة بالأديما، وهي التي تصنع التمدد الشديد في الأنسجة المحيطة بالمهبل والانتفاخ الذي هو ضروري لوصول المرأة إلى الأورجازم حين تحدث العملية الجنسية مع الرجل. إن الحصول على هذه النسب المعينة من الهرمونات يتم ببطء في هذه الحالات من الفتيات، وقد يستمر بطيئًا طول العمر في حالة استمرار تلك الحالة الطفولية، والتي تمنع التمدد والانتفاخ الكامل للأوعية الدموية؛ وبهذا فإن أي نشاط من الجهاز البظري والشفرتين لا يكون مؤثِّرًا بالدرجة المطلوبة. إن كل ما يمكن أن تحصل عليه المرأة حينئذٍ هو نوع من الأورجازم السطحي في الأنسجة السطحية المحيطة بفتحة المهبل إذا ما أُثيرت إثارة مباشرة باليد.

(٤) عدم كفاية الإثارة الجنسية

إن عدم كفاية الإثارة الجنسية هو السبب وراء معظم حالات البرود الجنسي البيولوجي عند المرأة. وقد أوضح «ماسترز وجونسون» عددًا من النقاط التي تستحق الإشارة إليها هنا:

(٤-١) الإثارة المستمرة

من المعروف أن درجة التأثر الجنسي تهبط عند المرأة بسرعة إذا انقطعت الإثارة أو توقفت، وإلى هذا السبب ترجع نسبة كبيرة من البرود الجنسي؛ لأن معظم الرجال في سن الثلاثين (وأحيانًا تحت الثلاثين) لا يستطيعون أن يؤجلوا القذف إلى حين أن يكتمل امتلاء وانتفاخ الأوردة والأنسجة في منطقة أسفل الحوض عند المرأة، والحالة الوحيدة التي تحول دون برودة المرأة في تلك الحالات هي قدرة الرجل على ممارسة القذف عدة مرات دون أن

يفقد الانتصاب. ومن المحتمل أن تُصاب المرأة بالبرود الجنسي إذا كان زوجها عاجزًا عن الوصول إلى الأورجازم عدة مرات متتالية، أو يصل إلى ذلك قليلًا أو كان عاجزًا عن الاحتفاظ بالانتصاب لأكثر من أربع أو خمس دقائق.

(٤-٢) بطء المرأة في الإثارة

لوحظ طبيًّا أن البرود الجنسي يُصيب المرأة إذا عجزت — رغم ازدياد الخبرة الجنسية — أن تختصر الوقت الذي يُستنفد في المداعبات والتمهيد السابق للعملية الجنسية، إن الرجل إذا كان سريع الإثارة، ولم يكن قد تدرب على تأجيل القذف (أو يخشى ذلك التأجيل)؛ فإن النتيجة في كثير من الأحيان هو برود المرأة.

(٤-٣) فترة الإثارة في الدورة الشهرية Luteal phase

لقد وُجد أنه من الطبيعي لمعظم النساء في جميع أيام الشهر ما عدا فترة Luteal phase أن يعجِزن عن الحصول على الأورجازم عدة مرات، أو تقل درجة إحساسهن بالأورجازم، أو تقتصر هذه القدرة الأورجازمية على الإثارة الشديدة باليد. على أنه لوحظ أن حالات البرود نادرة في تلك الفترة Luteal من الدورة الشهرية، وخاصة البرود الجنسي الكامل (حين لا تحدث إلا المرحلة الأولى من التوتر)، أو حين تعجِز المرأة عن الوصول إلى الأورجازم رغم حدوث درجة من التمدد والانتفاخ في الأنسجة، إن هذه الحالات من البرود نادرة بحيث يصعب معرفة أسبابها الحقيقية.

(٤-٤) محاولة إثارة البظر أثناء العملية

أكَّد «ماسترز وجونسون» أهمية إثارة البظر باستمرار طوال العملية الجنسية، لكن هذا قد لا يكون ممكنًا، خاصةً في الوضع الشائع للعملية الجنسية حين تكون المرأة في وضع أسفل الرجل؛ وبذلك لا تصل الإثارة إلى البظر إلا في حالة وجود فتحة واسعة للمهبل، وبغير ذلك فإن ضغط العضو الذكري يسبب ضغطًا على المستقيم (نهاية الأمعاء الغليظة قبل فتحة الشرج)، وقد يسبب ألمًا للمرأة أو ضيقًا.

(٤-٥) بعض مشاكل يسببها الحمل والخبرة الجنسية

لوحظ أن حدة الأورجازم تكون أشد طبيعيًّا في شباب الرجال عنها في شباب النساء اللائي لم ينجبن، لكن هذا الاختلاف يضيع تقريبًا بعد سن الثلاثين في الرجال، وبعد ولادة الطفل الثاني أو الثالث في النساء، أو بعد خبرة جنسية كافية في حالة النساء اللائي لم ينجبن، بل لوحظ أن قدرة المرأة الأورجازمية واشتداد حدة الأورجازم وتعدده، تفوق قدرة الرجل، وذلك بتقدم المرأة في العمر وازدياد خبرتها الجنسية وممارستها للحمل والولادة. وتعتقد «شيرفي» أن الظاهرة المنتشرة بين الأزواج والزوجات، وهي أن الزوجة تبدأ أوجها الجنسي حين يقترب زوجها من نهايته ليس سببها هو تخلص المرأة من مخاوفها وعقدها النفسية الناتجة من الكبت، وإنما سببها هو الخبرة الجنسية وأثر الحمل والولادة. وتقول «شيرفي»: إن المرأة في العصر الحديث أصبحت تؤجل الحمل إلى سن متأخرة بسبب انتشار وسائل منع الحمل، وبسبب تأجيل سن الزواج أيضًا، وهذا يؤخر حصول المرأة على قدرتها الجنسية المكتملة إلى سن الثلاثين أو ما بعدها؛ لأنها لا تلد طفلها الثاني أو الثالث إلا في هذه السن أو بعدها.

وتدعو «شيرفي» العلماء إلى أن يعيدوا دراسة أسباب حالات الشبق غير العادي الذي يصيب بعض النساء rymphomenia، وحالات الرغبة في ممارسة الجنس مع عدد متغير من الرجال promiscuity (دون أن يصاحب ذلك برود جنسي)، وهي ترى أنه حتى اليوم لا يعرف الكثيرون أنه سواء كانت بظرية أو مهبلية، فإن تعدد مرات الأورجازم المتكررة بانتظام وبغير توقف (حتى يحدث الإرهاق الجسدي) قد تكون الطبيعة البيولوجية لقدرة المرأة الجنسية، بل إن المرأة التي لم تنجب مطلقًا تستطيع أن تصل إلى الدرجة التي تصل إليها المرأة التي أنجبت عددًا من الأطفال؛ وذلك عن طريق الخبرة الجنسية الطويلة وخلو حياتها من أسباب الكبت الجنسي. وقد تكن تلك المرأة المسماة بالمرأة الشبقية overaexed هي المرأة الطبيعية جنسيًّا.

(٤-٦) بعض مشاكل بسبب ظاهرة الإشباع المصاحب لعدم الإشباع

قد يُفهم مما سبق أن المرأة لا تصل أبدًا إلى درجة الإشباع مهما تعرضت للإثارة الجنسية ولأية مدة من الزمن، وهذا صحيح نظريًّا من حيث إن المرأة يمكنها أن تحصل على أي عدد من الأورجازم، ولا يوقفها إلا الإرهاق الجسدي. وقد وُجد أن مرات الأورجازم المتكررة، والتي تقود إلى تلك الحالة من الإشباع المصاحب لعدم الإشباع، تحدث (في النساء اللائي

أنجبن، واللائي خبرن الجنس) أثناء الفترة بعد خروج البيضة من المبيض حتى ظهور الطمث Luteal أكثر من حدوثها في أية فترة أخرى من فترات الدورة الشهرية. وهذا يمثل أهم فارق بيولوجي بين الأنثى والذكر في الإنسان والثدييات الراقية؛ وهذا الفارق قد وُجد بسبب قدرة الأنثى على إحداث تلك الإديما وذلك الانتفاخ الشديد في الأوعية الدموية والأنسجة أسفل الحوض. هذه القدرة تنبع من مجموعة الهرمونات الجنسية في الأنثى التي ترفع كفاءة الخلايا والأنسجة في امتصاص السوائل في الجسم، وهي لا توجد إلا في الإنسان والثدييات الراقية وبعض الفصائل الثديية الأدنى. وتقول «شيرفي»: إن هذه الظاهرة لا تعني أن المرأة لا تشعر بالرضا الجنسي أبدًا؛ فهناك فارق بين الرضا والإشباع، فإن المرأة قد ترضى عاطفيًّا كل الرضا في غياب أي شكل من أشكال الأورجازم (بالرغم من أن هذا يكون نادرًا جِدًّا بعد سنوات من الممارسة الجنسية والإثارة المتعددة). وقد وصف «ماترز» هذه الظاهرة من الإشباع المصاحب لعدم الإشباع حين قال: «إن المرأة سوف ترضى عادةً بثلاث إلى خمس مرات من الأورجازم.»

وتقول «شيرفي»: إنه من النادر أن نقول عن الرجل إنه «سوف يرضى» بثلاث إلى خمس مرات من القذف، ولكنا نقول: إن الرجل «يرضى»، أمَّا المرأة فهي «سوف ترضى»، ومعنى ذلك أنها تحاول بإرادتها أن ترضى؛ وذلك لأنها غير واعية بقدرتها الضخمة على الأورجازم. وتتوقع «شيرفي» أن هذه الحقيقة قد تصدم بشدة كثيرًا من النساء اللائي يدركن بالفطرة عدم حصولهن على الإشباع.

وتخرج «شيرفي» من كل هذا بأن السبب الأساسي لمعظم حالات البرود الجنسي عند النساء ليس إلا غياب الممارسة الجنسية لفترات طويلة أو ممارستها بشكل متقطع ولفترات قصيرة. وهذه الحقيقة يؤيدها أيضًا ماسترز وجونسون، اللذان حاولا في بحثهما علاج مجموعات من الأزواج والزوجات المُصابين بالبرود الجنسي، وكان جميعهم قد حصل من قبل على علاج طبي ونفسي دون جدوى. وكان العلاج (في حالة الزوجة التي لم تصل إلى الأورجازم بعد خمس سنوات فأكثر من الزواج) يتألَّف من تدريب الزوج على استخدام طرق الإثارة الضرورية لجميع النساء والخاصة بزوجته أيضًا، وقد كان هذا وحده كافيًا لعلاج كثير من الحالات، وفي حالات أخرى كان العلاج يتألف من حث الزوجين على ممارسة العملية الجنسية بكثرة وكل يوم أو استخدام بعض الوسائل الصناعية لرفع درجة الإثارة أو زيادة مدتها لفترة طويلة. وبهذه الطريقة شُفيت معظم النساء من البرود الجنسي، وأصبحن قادرات على الوصول إلى الأورجازم عدة مرات، ولم يعدْنَ بحاجة إلى العلاج

السابق بمجرد حصولهن على قدرتهن الطبيعية. وعلى أية حال، فإن هذا الموضوع لا زال جديدًا، ولا زال في حاجة إلى المزيد من الدراسات.

(٥) وضع المرأة في المجتمع وهذه الأفكار العلمية الجديدة

«إن طبيعة المرأة الجنسية — كما وضحت لنا مما سبق — تدل على أنه بمثل ما لم يعمل مهبل المرأة لولادة الأطفال ذوي الرءوس الكبيرة، فإن قدرة المرأة الجنسية اللامحدودة لم تعمل للأنظمة الاجتماعية والثقافية التي تفرض على المرأة الوحدانية في الزواج، أو الحياة المكبوتة أو الخاملة. وليس من المعقول أن نتصور أن هذه القدرة الجنسية الضخمة للمرأة يمكن أن ترضى في ظل الحضارة الذكورية القائمة على كبت المرأة. ويزداد الأمر صعوبة بالذات في حالة ذلك التأجج الجنسي المتأخر الذي يحدث للنساء بعد سن الثلاثين، والذي حين تبدأ المرأة في الحصول عليه يكون زوجها قد بدأ يضعف جنسيًّا عن ذي قبل.» ويبدو أن عدم الاتفاق هذا في تطور القوى الجنسية للرجل والمرأة لم يحدث إلا في القرن الأخير؛ لأنه منذ أقل من مائة عام كانت المرأة تلد طفلها الثالث أو الرابع ببلوغها سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، (وهذا يحدث حتى اليوم عندنا في الريف)، ولم يكن متوسط عمر الإنسان يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا في معظم أنحاء العالم.

وتدل النتائج التي خرجت بها «شيرفي» وغيرها من العلماء أنه لا المرأة ولا الرجل (وعلى الأخص ليست المرأة) قد تكوَّنا بيولوجيًّا لنظم الوحدانية في الزواج أو الزواج الواحد، أو المراهقة الطويلة التي تفرضها عليهما نظم التعليم في العصر الحديث. وبصفة عامة لم يخضع الرجال أبدًا لنظام الزوجة الواحدة إلا نظريًّا، أمَّا المرأة فقد فُرض عليها الزواج الواحد بالقوة، وقد دُفعت إلى قبول ذلك عن طريق القانون الصارم الذي وضعه الرجل على المرأة ولم يضعه لنفسه.

وتقول «شيرفي»: إن نظام الأسرة الدائمة، ونسب الأطفال إلى الأب، وفرض الزوج الواحد على المرأة، كان شرطًا ضروريًّا لبقاء الرجل واستمراره رجلًا. وقد وُجد أنه في كل العصور والنظم والثقافات التي درست فإن الانتقال من مرحلة الصيد إلى مرحلة الرعي المتنقل إلى مرحلة الزراعة المستقرة كانت بدايتها هي بداية نشوء الأسرة ثُمَّ الحضارة الحديثة ثُمَّ الرجل المتحضر. وفي مجتمعات ما قبل الزراعة كان الطعام قليلًا، وكان قتل الأطفال ضروريًّا لبقاء القبيلة، لكن بنشوء الثورة الزراعية وتربية المواشي أصبح بقاء القبيلة لأول مرة في تاريخ البشرية يحتاج إلى الأسرة وملكية الأرض، ونسب الأطفال إلى

الأب ليورثهم أرضه، وأهم من هذا كله الحاجة إلى عدد كثير من الأطفال ليشغلهم الأب في أرضه ثُمَّ يورثهم هذه الأرض.

وقد تزايدت العوامل بالتدريج التي تفسر أسباب نشوء الأنظمة الأبوية القائمة في معظمها على تعدد الزوجات، وكيف صاحب ذلك ازدياد الصرامة في قمع طبيعة المرأة الجنسية (والتي قمعت بالضرورة أيضًا كل طاقتها العاطفية والفكرية). وكان هذا القمع ضروريًّا لاستمرار الأسرة الأبوية ونشوء حضارة الرجل؛ حيث إن قوة الغريزة الجنسية عند المرأة البدائية كانت عنيفة ومتغيرة وغير قابلة للخضوع لرجل واحد أو التفرغ لإطعامه وخدمته، ولكثرة الأطفال، وحيث أصبحت الأبوة مطلوبة، ولا بدَّ أن تُعرَف ليُنسَب إليها الأطفال الذين سيرثون الأرض. ولم يكن من الممكن في ظل طبيعة المرأة الجنسية العنيفة المتغيرة واللامحدودة أن يُعرَف الأب بحال من الأحوال إلا عن طريق القمع الجنسي الصارم وفرض رجل واحد على المرأة.

وتدل الدراسات لعصور ما قبل التاريخ أن عملية إخضاع المرأة استنفدت خمسة آلاف سنة حتى أمكن أن تتم، وتدل معظم المعلومات عن الفترة ما بين ١٢٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ق.م أن المرأة قبل بدء الحضارة كانت تستمتع بحرية جنسية كاملة. وتعتقد «شيرفي» أن أحد أسباب تلك الفترة الطويلة التي انقضت من ١٢٠٠٠ سنة ق.م إلى سنة (٨٠٠٠–٥٠٠٠ق.م) والتي تأخر فيها ظهور الحضارة الذكرية رغم بدء الزراعة، لم يكن إلا تلك الطبيعة الجنسية غير المحدودة وغير المحكومة للمرأة؛ ولهذا كان التحكم في هذه الطبيعة أمرًا ضروريًّا لقيام الحضارة الذكرية والأسرة الأبوية المبنية على ملكية الأرض وتوريثها للأطفال. ولا شك أنه بسبب قوة طبيعة المرأة فقد استلزم الأمر قمع هذه القوة بجميع الوسائل القانونية والفلسفية والدينية والأخلاقية. وكان لا بدَّ لجميع هذه العوامل أن تعمل معًا بقوة وشدة وصرامة من أجل التحكم في تلك الطبيعة العنيفة للمرأة، وهذا أمر طبيعي، فإن قوة الشيء هي التي تحدد القوة المطلوبة لإخضاعه أو التحكم فيه؛ ولهذا فإن أشد القوانين عنفًا وصرامةً تلك المتعلقة بالتحريمات والمحظورات على حياة المرأة الجنسية. ولا زالت المرأة حتى يومنا هذا تُقتَل في أماكن مختلفة من العالم (صعيد بلدنا أحد الأمثلة) إذا مارست الجنس في غير الحالات التي ينص عليها القانون أو التقاليد التي لها فعل القانون. ويمتلئ التاريخ في مختلف العصور بحالات من التعذيب أشد من القتل، وكلها بسبب خروج المرأة (ولو قيد أنملة) على القانون الصارم الذي يحكمها جنسيًّا.

وإزاء هذه المعلومات الجديدة عن طبيعة المرأة يبرز السؤال الآن: هل استطاعت هذه السبعة آلاف سنة الماضية، والتي تم فيها التحكم وإخضاع غريزة المرأة، هل استطاعت أن تُضعف هذه الغريزة وتفقدها صفاتها الأصلية القوية غير المحدودة؟!

وهل أصابتها بنوع من البرود الجنسي شبه الدائم، والذي يمكن أن يُسمَّى «البرود الجنسي الاجتماعي العام للمرأة في العصر الحديث؟!»

ولا يمكن لأحد بحال من الأحوال أن يعلن أن هذه المعلومات البيولوجية الجديدة عن المرأة هي الحقيقة، أو أنها ليست الحقيقة. إن كل ما أردته من عرض مثل هذه الأفكار أن أقول: إن الفكرة القائلة بأن جنس الرجل أقوى من جنس النساء، أو أن طبيعة المرأة أضعف من الرجل، أو أن الطبيعة هي التي جعلت الرجل يسود والمرأة تُستعبَد، كل هذا يحتاج إلى تفنيد علمي وإلى إثبات وإلى حقائق بيولوجية وتاريخية ونفسية. وقد أصبحت الحقائق البيولوجية الجديدة تفيد بأن طبيعة المرأة الجنسية والبيولوجية قد لا تساوي الرجل فحسب، ولكنها قد تكون أقوى.

ولا أظن أنه من الممكن الآن — بعد وضوح بعض هذه النواحي البيولوجية في طبيعة المرأة وقوتها — أن نقتنع بتلك الأفكار التي تقول بأن الرجل يحظى بحرية جنسية أكثر من المرأة؛ لأنه بطبيعته البيولوجية الجنسية لا يستطيع الاكتفاء بزوجة واحدة كما تستطيع المرأة أن تكتفي بزوج واحد، وأن غريزته أرقى من غريزة المرأة، وإلى غير ذلك من الأفكار التي يحاول أن يبرر بها الرجل الحرية الجنسية التي يعطيها لنفسه ويحرم المرأة منها. إن الطبيعة ليست بحال مسئولة عن تلك القيود الجنسية (والتي تقتضي بالضرورة أيضًا قيودًا نفسيةً وفكريةً واجتماعيةً) المفروضة على المرأة، ولكنه الأب الرجل الذي اكتشف أبوته متأخِّرًا حين امتلك الأرض ورغب في نسل يورثه، ولم يكن من الممكن لأبوته الحديثة الضعيفة الجذور الفاقدة لمشاعر الحب ولدليل الإثبات أيضًا، لم يكن لهذه الأبوة لضعفها وعدم ثبوتها أن تصمد أمام الأمومة القوية الثابتة المؤكدة معنًى وشعورًا ودليلًا ماديًّا. لم يكن للأبوة أن تظهر وتقوى وتسيطر إلا بأساليب القمع العنيفة والبطش، ولا يدل على هذا البطش إلا تلك القوانين التي صنعها الرجل في فترات من التاريخ التي أعطت له حق قتل زوجته لمجرد مخالفته، ولا تزال بعض صور هذا البطش موجودة بشكل ظاهري أو خفي في القوانين التي تنظم علاقة الرجل والمرأة في عصرنا الحديث، ويعرف الكثيرون أن ضرب الرجل لزوجته إذا خالفته مُباح حتى اليوم في بعض المجتمعات عُرفًا وقانونًا. وقد دُهشت أثناء بحثي حين علمت أن عددًا غير قليل من الزوجات المصريات المثقفات لا زلن

يتعرضن للضرب من أزواجهن لأتفه الأسباب، أمَّا بين الزوجات غير المتعلمات أو الزوجات الفلاحات فالضرب من الزوج أكثر انتشارًا وشيوعًا، وكم سمعت من الأزواج المصريين هذه العبارة: «إن زوجتي لا تُطيع إلا إذا ضُربتْ.» وبعض الرجال يتصورون أن المرأة بطبيعتها تحب الضرب، وقد تصور هذا أيضًا علماء كبار من أمثال فرويد، الذي قال: إن المرأة ماسوشية بطبيعتها تحب الإيلام والإذلال، وتُقنع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد. وكم تصبح المهمة شاقة بعد كل ذلك لإيضاح الحقيقة، ولكشف كل تلك الطبقات المتراكمة من التبريرات والأوهام والأفكار المعكوسة التي خلعها الرجل على المرأة لمجرد أن يثبت أبوته المتأرجحة بين الشك واليقين، والتي لم يكتشفها أصلًا إلا بسبب امتلاك الأرض والتوريث، وليس بسبب الحب أو المشاعر الإنسانية كما حدث مع الأمومة منذ نشأتها الأولى.

مشكلة الذكورة والأنوثة

لو عاد كل مِنَّا بذاكرته إلى الوراء، حين كان طفلًا، كيف عرف لأول مرة في حياته أنه ذكر أو أنثى، أنه ولد أو بنت، ربما نسي الكثيرون مِنَّا كيف حدث ذلك بالضبط أو متى، وقد يتصور البعض أن الطفل يعرف ذلك تلقائيًّا دون أن يعرِّفه أحد، ودون أن يعرف أن ذلك العضو هو عضو الذكر أو عضو الأنثى.

وقد أجرى العلماء والباحثون محاولات عديدة في السنوات الأخيرة لكشف النقاب عن تلك العوامل التي ترسب في الإنسان إحساسًا بالذكورة أو الأنوثة، ولعل من أشهر هؤلاء العلماء في هذا المجال هم ماني وهامبسون وروبرت ستولر، الذين وجدوا في بحوثهم أن الطفل الذكر الذي يُولَد بغير عضو الذكر penis لا يتشكك في أنه ذكر إذا اعتقد والداه أنه ذكر وعاملاه على هذا الأساس. إن غياب هذا العضو من جسمه يسبب له حين يكبر بعض المشاكل الجنسية بلا شك، ولكنه يعيش ويسلك في الحياة كذكر. وقد وجد ستولر النتيجة نفسها مع البنت حين تولد بغير بظر أو حين يُبتَر هذا العضو أو يُستأصل المهبل في عملية جراحية طبية؛ فإن الأنثى لا تتشكك في أنوثتها إذا عوملت بواسطة الأسرة على أنها أنثى، وهي تشب وتكبر وتسلك في الحياة كأنثى، وبالطبع تصادفها مشكلات جنسية بسبب غياب هذا العضو، كما حدث في حالة غياب عضو الذكر.

وقد وصل إلى هذه النتيجة نفسها «ماسترز وجونسون» في بحثهما في تلك الحالات من النساء اللائي أُجريت لهن عملية استئصال المهبل (لمرض ما بالمهبل)، وقد وجدا أن المرأة في تلك الحالات تظل أنثى طبيعية من النواحي البيولوجية والفسيولوجية، بل إنها تصل إلى الأورجازم الطبيعي حين يعمل لها مهبل جديد من قطعة من الجلد.

وقد رتب ستولر العوامل التي تجعل الإنسان يدرك أنه ذكر أو أنثى كالآتي حسب أهميتها:

(١) موقف الوالدين والإخوة والأسرة تجاه هذا الطفل كذكر أو كأنثى.
(٢) أعضاء هذا الطفل الجنسية من الناحيتين التشريحية والفسيولوجية.
(٣) القوة البيولوجية داخل هذا الطفل والتي تشكل إلى حد ما الآثار المترتبة على موقف الأسرة والأهل.

وبهذه النتائج العملية نُقدت نظرية «فرويد» عن التطور الجنسي عند المرأة، والذي أعلن بها فرويد أن: «حياة المرأة الجنسية تنقسم إلى مرحلتين، المرحلة الأولى هي مرحلة لها صفة الذكورة، والمرحلة الثانية هي مرحلة أنثوية.» وقد أثبت عدد من العلماء، ومنهم ستولر، أن هذه النظرية شوهت حقيقة تطور الحياة الجنسية في كلا الجنسين (الرجل والمرأة)؛ فقد أصرَّ فرويد على أن يبدأ نظريته بالمرحلة القضيبية phalic phase، لكنه لاحظ بعد ذلك الأهمية القصوى لعلاقة الطفل بأبويه وخاصة علاقته بأمه قبل مرحلة تكون العقدة المسماة بعقدة أوديب؛ ولهذا جاء وصف فرويد مشوِّهًا للحياة الجنسية في الطفولة، والتي عنى بها تطور القدرة على الإحساس باللذة الجنسية، وكذلك تكون الشخصية الذكرية أو الأنثوية. ويرجع فشل فرويد إلى أن ما اعتبره المرحلة الجنسية الأولى عند البنت ليس إلا مرحلة ثانوية، نتجت بسبب تزايد إدراك البنت بأن هناك جنسًا آخر غير جنسها يتمتع بحريات وامتيازات وسعادة أكثر منها، ألا وهو جنس الذكور. وكان من أوائل من وضَّح هذه الحقيقة كارين هورني وأرنيست جونز في العشرينات من هذا القرن، ثُمَّ جريجوري زيلبورج في الأربعينات. وقد استطاع هؤلاء الرواد الثلاثة وغيرهم أن يكتشفوا الخطأ الذي وقع فيه فرويد. وقد كتب أرنيست جونز في سنة ١٩٣٣ يقول: «… إن اعتبار «فرويد» للمرحلة القضيبية كالصفة الأساسية في كلا الجنسين يدل على اعتقاده بأن العضو الجنسي الوحيد الموجود في العالم هو عضو الذكر.» وقد أيَّد هذا الرأي أيضًا جريجوري زيلبورج حين كتب: «إن هذه النقطة التي نبحثها قد تبدو قليلة الأهمية، ولكنها أساسية؛ لأنها تناقش هل الأنوثة صفة أساسية في المرأة المتحضرة، أم أنها ثانوية وإحدى مخلفات الذكور الأصلية.»

وقد خرج ستولر من أبحاثه بأنه: حتى البنت التي ليست أنثى بيولوجيًّا (وتُسَمَّى «المعادل» بيولوجيًّا)، هذه البنت تنشأ وتكبر كامرأة إذا عوملت كامرأة بواسطة أهلها، ولم

يتشكك أحد من نوع جنسها، إنها تعرف أن هناك نقصًا عضويًّا فيها، لكن شخصيتها تتشكل كأي أنثى أخرى، وتتصرف وتلبس، وتحاول أن تبدوَ جذابة في عيون الرجال، وترغب في الزواج وإنجاب الأطفال كأية امرأة أخرى.

ويتضح من هذا خطأ فرويد حين قال: «إن الخطوات الأولى نحو الأنوثة المؤكدة تحدث فقط عن ذلك الطريق الدائري.» ويعني بذلك أن الأنوثة الأولى المؤكدة لا تحدث إلا بعد المرحلة القضيبية (من سن ٣ إلى ٤ سنوات). وقد قال فرويد أيضًا: إن زواج المرأة الثاني يكون عادةً أنجح من زواجها الأول؛ لأنها تنفس في الزواج الأول عن غضبها الناتج من حسد عضو الذكر penis envy. وقد عرف الجميع رأي فرويد في المرأة (بسبب الاختلافات التشريحية بينها وبين الرجل) حين قال: إنه لا يستطيع أن يتخلص من فكرة أن للنساء قيَمًا أخلاقيةً تختلف عن الرجال، وأن الأنا العليا Super ego عند المرأة لا تكون أبدًا مستقلة عن جذورها العاطفية كما في الرجل الذي تكون فيه الأنا العليا أكثر موضوعية (ليست ذاتية) وأقل دماثةً وتهذيبًا، وأن الصفات الشخصية التي وُصفت بها المرأة في مختلف العصور؛ ذلك أن المرأة أقل تعقُّلًا من الرجل، وأقل قدرةً على الحكم الصحيح على الأمور، وأقل إدراكًا لضرورية الحياة الهامة، وأن المرأة تغلبها عاطفتها سواء كانت حُبًّا أو كُرهًا، كل هذه الصفات يوافق عليها فرويد ويفسِّرها بأن الأنا العليا عند المرأة تتشكل وتتطور منذ طفولتها عن طريق ذلك الطريق الدائري الملتوي، الذي تسير فيه شخصيتها نحو الأنوثة الكاملة بعد أن تجتاز المرحلة القضيبية، وعقدة حسد عضو الذكر وعقدة الإخصاء، وعقدة أوديب وعقدة اليأس من الحصول على العضو واستبدال ذلك العضو بالطفل، وعقدة الحصول على رجل من أجل الحصول على طفل، ثُمَّ الاستسلام النهائي للرجل في ظل عُقد الماسوشية والألم والمهانة؛ لتصبح بذلك الأنثى الكاملة الأنوثة، والتي تعتبر وضعها الأدنى ونقصها جُزءًا لا يتجزأ من طبيعتها الأنثوية.

وبرغم أن فرويد لاحظ أن القوة الليبيدية (الجنسية) عند الأطفال متساوية في الذكور والإناث، إلا أنه عجز عن تفسير ذلك، وإنما قال: «لقد وجدنا أن القوى الليبيدية نشطة في الطفلة الأنثى تمامًا كما هي في الطفل الذكر، وقد استطعنا أن نقنع أنفسنا أن هذه القوى تتبع الطريق نفسه في الولد والبنت لفترة من الوقت، لكنها تنحرف عند البنت عن أهدافها الأساسية بسبب عوامل بيولوجية، وتسبب ذلك النشاط الذكري الجنسي الذي يسري في جسم البنت.» ومن الواضح أن فرويد لم يكن محايدًا في ملاحظاته؛ لأنه لاحظ حقيقة معينة أولى حين قال: «لقد وجدنا أن القوى الليبيدية نشطة في الطفلة الأنثى تمامًا كما هي

في الطفل الذكر.» لكنه لم يحاول فهم هذه الملاحظة الصحيحة فهمًا علميًّا محايدًا، وإنما استطاع أن يقنع نفسه بشيء آخر حين قال: «وقد استطعنا أن نقنع أنفسنا ...» ومعنى ذلك أنه لاحظ شيئًا لكنه تجاهله وأقنع نفسه بشيء آخر.

وقد أراد فرويد أن يقول بنظرية الدائرة الملتوية عن بلوغ المرأة أنوثتها: إن أنوثة المرأة ليست أصلية، وقائمة في ذاتها في الأنثى منذ الولادة، (بل قبل الولادة حين كانت جنينًا)، بل إنها ثانوية للذكورة، وناتجة عن إحساس الأنثى بأنها ذكر ينقصه العضو.

وقد اتضح للعلماء أن أول وأهم عامل يحدد إحساس الشخص بكونه ذكرًا أو أنثى هو نظرة الأسرة (ومن حوله) إليه كذكر أو أنثى، ووضح لهم من البحوث العلمية أن الولد أو البنت (رغم سلامة الأعضاء التناسلية كلها بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا) يتغير إحساسهما بالذكورة أو الأنوثة حسب نظرية الأسرة، وقد يكتسب الولد صفات أنثوية لأن أسرته تنظر إليه كأنثى وليس كذكر، وقد تكتسب البنت صفات ذكورية لأن أسرتها تنظر إليها كذكر وليست كأنثى.

والعكس صحيح، فإن غياب بعض الأعضاء الجنسية من الذكر أو الأنثى لا تمنع تطور كل منهما نحو الأنوثة أو الذكورة، طالما أن الأسرة لم تتشكك في حقيقة كونهما ذكرًا أو أنثى؛ وعلى هذا فإن العوامل الاجتماعية والثقافية والتربوية تحدد أنوثة المرأة أو ذكورة الرجل.

لكننا يجب هنا أن نلقي الضوء على العوامل البيولوجية التي سماها فرويد «الصخرة» التي تواجه نظريته السيكلوجية في الإنسان، وهي أساسًا ذلك الازدواج الجنسي Bisexuality الفسيولوجي والبيولوجي في الإنسان، وانعكاس ذلك على سلوك الإنسان. والمعروف بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا أنه ليس هناك من هو ذكر خالص مائة في المائة، ومن هي أنثى خالصة مائة في المائة، بل إن الأعضاء الجنسية والهرمونات الجنسية في كل الجنسين تتداخل، ويحتفظ الرجل ببقايا أعضاء أنثوية منذ كان جنينًا، وتحتفظ المرأة ببقايا أعضاء ذكرية، ويجري في الجنسين في مختلف مراحل العمر هرمونات مؤنثة ومذكرة.

وقد تحير فرويد طويلًا أمام هذه الحقيقة البيولوجية، واعترف أنها تقف «كالصخرة» أمام أفكاره، وأن جميع أنشطته الذهنية تقف أمام هذه الصخرة وتنتهي عندها، وهذه هي كلماته: «كما نشعر دائمًا أننا بوصولنا إلى «الرغبة في الحصول على عضو الذكر» (في الأنثى) «ورفض الأنوثة» (في الذكر) قد اخترقنا كل الطبقات النفسية وأصبحنا أمام

الصخرة، وهكذا فإن جميع أنشطتنا تنتهي.» وهذا قد يكون صحيحًا؛ لأنه في المجال النفسي فإن المجال البيولوجي يلعب في الحقيقة دور الصخرة الراكدة في القاع. ولم يستطع فرويد أن يقول إن رفض الذكر للأنوثة أو رغبة الأنثى في الحصول على عضو الذكر لهما أساس بيولوجي؛ لأنه لم يستطع أن يبرهن على ذلك. وقد اعتنق فرويد هذه الأفكار حين لاحظ أن هذه الظواهر موجودة في كل الحالات، وبسبب عجزه عن علاجها بالتحليل. ويقول ستولر: إن معظم المحللين النفسيين ومنهم فرويد حين يواجَهون بظاهرةٍ ما موجودة في الكل وغير قابلة للتحليل فإنهم يفكرون الفور فيما هو «ميتابيولوجي»، أو فيما هو «فوق البيولوجي» (على شاكلة الميتافيزيقي أو ما فوق الطبيعة)؛ مثال ذلك تفسير «لاماركين» للازدواجية الجنسية في الإنسان على أنها بقايا موروثة من العصر الثلجي، وأن المعامل الميكانيكي وغريزة الموت يفسران ماسوشية المرأة، وأن الذكورة تساوي الحركة والأنوثة تساوي السلبية؛ لأن الحيوان المنوي يتحرك لكن البيضة تنتظر في سكون.

ويخرج «ستولر» وغيره من العلماء في بحوثهم الأخيرة في الحيوانات والإنسان ببعض النقاط الهامة، والتي أوضحت أن الأنوثة والذكورة في الإنسان يمكن أن تتشكل منذ الطفولة وبشكل نهائي بواسطة القوى النفسية المتعارضة مع الحالة البيولوجية الموجودة أصلًا. وتتلخص هذه النقاط في الآتي:

(١) في حالة الأطفال الذين يولدون بغير جنس محدد (خنثى)، فإنهم يكتسبون شخصية الخنثى إذا نظر إليهم الأهل على هذا النحو، وتشككوا في كونهم ذكورًا أو إناثًا، ولكن حين لا يكون لدى الأهل هذا الشك فإن هؤلاء الأطفال رغم وضوح نوع أعضائهم الجنسية فإنهم يكتسبون الذكر إذا نظر لهم الأهل كذكور، أو يكتسبون الأنثى إذا نظر إليهن الأهل كإناث.

(٢) إن الذكور الذين يتحولون إلى إناث (بعمليات جراحية أو بسبب حوادث معينة كتلك التي تحدث حين يُبتر عضو الذكر خطأً أثناء طهارته أو لأسباب أخرى)، فإن التحول من الذكورة إلى الأنوثة يتم كاملًا، ويعيشون كنساء طبيعيات، ويطلبون تغير أجسامهم لتصبح كأجسام النساء تمامًا، وهم رغم كل هذا طبيعيون بيولوجيًّا.

(٣) في تلك الحالات التي يظهر بها الذكر على أنه أنثى (يُسمَّى بالمخنث) في ملابسه وحركاته وصوته كنتيجة لمواقف معينة وسلوك الأب والأم، فإنه يسلك بطريقة تمزج بين صفات الأنوثة والرجولة، أو الصفات المخنثية؛ من أجل الدفاع عن ذكورته المهددة (القلق الناتج عن الخوف من الإخصاء). هذه الحالات أمثلة لما أطلق عليه فرويد اسم

«العامل الطارئ»، لكنه أدرك بعد ذلك أن هذا العامل الطارئ ليس طارئًا في الطفولة، وأنها ظاهرة في جميع الأطفال ذكورًا أو بناتًا؛ وعلى هذا كان الحل الوحيد هو نظريته (الرغبة في الحصول على عضو الذكر (في الأنثى) ورفض الأنوثة في الذكر)، وأخذ فرويد يبحث عن أسباب ذلك ويتساءل مثلًا: لماذا يشعر الولد برفضٍ للأنوثة؟ هل لأنه يحاول التخلص من صورة أمه التي تمثلها وهو طفل؟! ولكن لماذا يحاول الذكر التخلص من صورة أمه؟! هل هي صورة قبيحة؟! والبنت؟! لماذا ترغب في الحصول على عضو الذكر؟! هل لأنها عرفت أنها ناقصة بيولوجيًّا وأنها الجنس الأدنى؟! وهكذا يعكس فرويد شعوره الداخلي للمرأة على نظريته ويغرق في تعقيدات لا طائل وراءها لمجرد أنه عاجز عن اجتياز تلك الصخرة التي تقف في وجهه، والتي تقول له ببساطة ووضوح: إن البنت والولد كلاهما مزدوج الجنس بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا؛ ولأنه عاجز أيضًا عن التخلص من نظرته غير المحايدة للمرأة.

وقد أوضحت الدراسات البيولوجية والفسيولوجية الأخيرة بعضًا من الغموض الذي كان يكتنف هذه الازدواجية الجنسية. هذا وإن البحوث الجديدة على الحيوانات وعلى الإنسان تنبئ بأن المستقبل يحمل الكثير من الحقائق التي تجعل الإنسان يعرف المزيد عن نفسه؛ أي عن الأنوثة وعن الذكورة، كذلك البحوث الجديدة عن مخ الإنسان، والبحوث عن ظواهر الازدواجية الجنسية في السلوك الطبيعي، وتلك الاكتشافات الجديدة عن التشابهات الكيميائية للهرمونات المؤنثة والمذكرة، واكتشاف علماء الغدد بأن كثيرًا من أنسجة الذكر تتفاعل مع الهرمونات المؤنثة (مثل الثديين والجلد والشعر والمناطق الدهنية)، وأن كثيرًا من أنسجة الأنثى تتفاعل مع الهرمونات المذكرة.

وقد بدأ علماء فسيولوجيا المخ يصلون إلى فهم العمليات المركزية للسلوك في الحيوانات، بما في ذلك السلوك الخاص بالأنوثة، والسلوك الخاص بالرجولة. وهذا لا شك يمزق الحجُب عن تلك القوى (الخفية سابقًا) والتي تتألف من خلايا مخية مرتبة ترتيبًا تصاعديًّا، وتتأثر بالهرمونات، والمؤثرات الخارجية والداخلية على حواس الإنسان، والمراكز المخية الأخرى، وخلايا أرشيف ذكريات التجارِب السابقة، وخلايا التجارِب النفسية الجديدة.

وقد اكتشف العلماء هنا شيئًا جديدًا غريبًا، ذلك أن الحالة الأصلية للعمليات المركزية المخية هي الأنثى، أي أن مخ الجنين «الهبوثلاماس hypothalamus» لا ينتج عنه سلوك ذكري إلا إذا تأثر بفعل الهرمونات المذكورة، ولو أن هذه الهرمونات المذكرة تعطلت بسبب أو آخر في الذكر فإن الأنوثة تحدث على الفور. ومعنى هذا أن مخ الجنين يحتاج إلى تنشيط من هرمون الذكور ليشكل أعضاء، ولكنه بغير هذا التنشيط فإنه يصبح الأنثى.

وهذا يتفق مع الحقيقة التشريحية التي تقول بأنه في تطور الجنين فإن عضو الذكر يتطور من بظر الأنثى، أي أن عضو الذكر ليس إلا بظرًا مذكَّرًا. وقد أوضحت الدراسات الفسيولوجية للجهاز العصبي حقيقة أن مخ الذكر ليس إلا مخ الأنثى بعد أن أصبح مذكَّرًا بفعل الهرمون الذكري.

وقد وجد أن القوة البيولوجية (التي كانت العامل الثالث التي قد تشكل صفات الأنوثة والذكورة) تصل في طريقها النهائي إلى المخ. وقد ظهرت هذه الحقيقة في تجارِب الحيوانات؛ حيث يتحول المؤثر الكيميائي إلى دافع وفعل. وبدراسة بعض الحالات في الإنسان وجد بعض العلماء، ومنهم جون ماني John Money، أن هذه القوة البيولوجية موجودة في الإنسان أيضًا على نحو مشابه لتلك في الحيوانات. وفيما يلي ملخص لبعض الحالات التي دُرست في الإنسان:

(١) فحصت بعض الحالات المُصابة بما يُسمَّى أعراض تيرنر Turner Synchrome، وفي هذه الحالة فإن الإنسان يكون ناقص الكروموسومات، وليس لديه إلا الكروموسومات المؤنثة، وكذلك ليس لديه مبيضان ولا خُصيتان. ومن المعروف أن الإنسان طبيعيًّا يملك نوعين من الكروموسومات: الإناث عندهن كروموسومات مزدوجة من الكروموسومات x، والذكور لديهم كرومسوم واحد x وكروموسوم آخر y (هذه الحروف أُخذت من شكل الكروموسوم تحت الميكروسكوب). بالرغم من أن هؤلاء الأشخاص يفتقدون الكروموسوم الذكري، وكذلك يفتقدون المبيض والخُصيتين التي تفرز الهرمونات الجنسية، فإن نموهم التشريحي يقودهم إلى أن يصبحوا إناثًا، كما أن سلوكهم في الحياة يكون أنثويًّا، ولكنهم يميلون إلى الجنس الآخر كاختيار جنسي heterosexual.

(٢) في حالات الذكور ذوي الكروموسومات xy فإن الشخص ينمو ويتطور ويصبح امرأة طبيعية المظهر رغم نقص الهرمونات الجنسية. وهذه الحالات من الصعب شرحها بالتفصيل هنا حيث إن الكروموسومات الذكرية y والأنثوية x موجودة، وكذلك كمية من الهرمونات الذكرية في الدم، ولكن يبدو أن أنسجة الجسم لا تتأثر التأثر الكافي بالتنشيط الذكري الذي يحدث في الذكور الطبيعيين. وتحتاج مثل هذه الحالات إلى دراسات أكثر لمعرفة هل هذا التطور الأنثوي بسبب عدم تأثير المخ (الأنثوي أصلًا) بالهرمون الذكري.

(٣) هؤلاء الذكور الذين يظهرون عند الولادة بأجسام طبيعية، ثُمَّ في المراهقة يُكتشف أن الخُصيتين تفرزان هرمون الذكورة بكميات قليلة جدًّا منذ كان الشخص جنينًا. ومعظم هؤلاء يكتسبون صفات أنثوية منذ الطفولة أو بعدها، ويقولون إنهم يفضِّلون أن يكونوا بناتٍ.

(٤) في حالات اضطراب الفص الصدغي للمخ، فإن عددًا من التقارير التي تتضمن اضطرابات في الشخصية الجنسية (الذكورة أو الأنوثة) لم تحدث إلا في الرجال (ويكون السلوك عادة تشبه الرجل بالأنثى في الملابس)، ويحدث هذا السلوك بسبب موجات كهربية معينة تنبعث من الفص الصدغي للمخ.

وقد وُجد أنها تعالج أو تتحسن بأثر بعض الأدوية التي تُعطى للشخص وتؤثر على هذه الموجات الكهربية.

(٥) في الحالات التي تتلقى الجنين الأنثى تنشيطًا ذكريًّا شديدًا حين تتناول الأم أثناء الحمل كميات كبيرة من هرمون البروبترون (للوقاية من الإجهاض) فإن هؤلاء الإناث يأخذن سلوك الذكور، ولكنهن يفضلن الجنس الآخر كاختيار جنسي heterosexual.

(٦) إن الغدد الفوق الكلوية adrenal التي تفرز عددًا من الهرمونات تفرز أيضًا جزءًا صغيرًا من الهرمون الذكري، وهي مصدر الهرمونات المذكرة في الأنثى. وفي هذه الاضطرابات التي يزداد فيها نشاط هذه الغدد، فإن كمية كبيرة من الهرمون الذكري يُفرَز، وقد يحدث ذلك للجنين قبل ولادته؛ فيتسبب في تذكير أعضاء الجنين الأنثى، ويسلكن سلوكًا ذكريًّا وإن كن يحتفظن برغبتهن في الجنس الآخر heterosexual.

ولا شك أن هذه الملاحظات في الإنسان ليست بقوة التجارِب التي أُجريت على الحيوانات، ولكنها توصي ببعض الحقائق التي نتجت من تجارِب الحيوانات، وهي أنه في حالة الذكر فإن الازدواجية الجنسية يمكن أن تُعزى إلى التذكير (بفعل الهرمون الذكري) الذي حدث للمخ الأنثوي أصلًا، ولكن هل معنى ذلك أن مخ الأنثى ليس مزدوج الجنس كمخ الرجل؟! وهذا هو السؤال الذي لم يستطع «ستولر» أن يجيب عليه، ولم يستطع أحد من علماء البيولوجيا أن يردَّ عليه. ويعترف هؤلاء أن هذا البحوث والاكتشافات الجديدة ليست إلا ضوءًا خافتًا في ذلك الخِضَمِّ الكبير المظلم المُسَمَّى بالبيولوجيا، وبالذات بيولوجيا الجنس، أو الازدواجية الجنسية، أو الذكورة أو الأنوثة، وعملياتها المعقدة في المراكز العليا للمخ والجهاز العصبي.

لكن الذي يتفق عليه معظم العلماء المحدثين الآن هو أنه فيما يختص بالإنسان، فليس هناك جنس يعتبر أسمى من الجنس الآخر، وأنه إذا فُرض وكان هناك جنس أسمى من جنس، فإن الجنس الأسمى ليس هو الجنس الذكري بالتأكيد، وإنما قد يكون هو الجنس الأنثوي بسبب تلك الحقائق البيولوجية والفسيولوجية السابق ذكرها، وكذلك الحقائق التاريخية منذ قديم الأزل، والسبق التطوري الذي أحرزته الأمومة على الأبوة بيولوجيًّا ونفسيًّا وإنسانيًّا.

الطريق الملتوي نحو الأنوثة

بدأت الأفكار الجديدة تتحدى الأفكار القديمة عن سيكلوجية المرأة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، واضطرب المجتمع (لأسباب تجنيد الرجال في الحرب) في مختلف نواحي الإنتاج الصناعي والوظائف المختلفة، ومنذ ذلك الحين بدأت أعداد النساء في الإنتاج والأعمال الأخرى تزداد.

وبرغم أن الدوافع الحقيقية لعمل المرأة خارج البيت كانت اقتصادية، إلا أن المجتمع كعادته دائمًا مع النساء لا يُظهر الأسباب الاقتصادية.

لكن خروج المرأة للعمل ومشاركتها في الإنتاج واستقلالها الاقتصادي عن الرجل، وكذلك أيضًا انتشار الأفكار الاشتراكية في العالم، جعل المرأة تكسب صفات جديدة، فهي قوية إيجابية شجاعة مثابرة، قادرة على تحمل مشاق العمل خارج البيت وداخله، وهي تدخن وتشرب وتسهر، وتختار بنفسها رجلها وتقرر مصيرها بيدها ولا تخاف. ومعظم هؤلاء النساء اللائي خرجن إلى العمل وحظين بشيء من الحرية والاستقلال والمساواة مع الرجال أثبتن كفاءتهن وقدراتهن العقلية والنفسية، ولم يعد في استطاعة أحد أن يقول عنهن إنهن سلبيات أو ضعيفات أو ماسوشيات وغير ذلك من الصفات التي ألصقتها نظرية التحليل النفسي بالمرأة.

وقد عجزت نظرية التحليل النفسي (التي أرست منذ بدايتها قواعد الاختلاف بين نفسية المرأة ونفسية الرجل)، عجزت عن أن تفسر هذا التغير في صفات المرأة منذ خروجها إلى العمل بعد الحرب العالمية الأولى، بل إنها عجزت عن مناقشته مباشرة، وإنما لجأت إلى البحث عن الفروق البيولوجية بين الجنسين، ثُمَّ وجدت في بعض الفروق التشريحية تبريرًا لأفكاره؛ ولهذا أشاد فرويد بعبارة نابليون «التشريح هو المصير Anatomy destiny»؛ وبهذا شاركت نظرية التحليل النفسي في تعميق الفروق بين الرجل والمرأة نفسيًّا، كما

شاركت في ذلك أيضًا علوم البيولوجيا والاجتماع والفلسفة والحضارة الرأسمالية الذكورية ككل.

وقد حاول عدد من رواد التحليل النفسي خوض ميدان سيكلوجية المرأة والفرق بينها وبين الرجل، ومن هؤلاء: كارب أبراهام، هيلين دوتيش، كارين هورني، جوسين مولر، إيرنست جونز، ميليني كلاين، فان أفيوجين، مولر برونسويج، وغيرهم، وكان سيجموند فرويد بطبيعة الحال على رأسهم.

وقد دخل فرويد هذا الميدان مدعَّمًا بشهرته وعبقريته واهتمامه العميق باكتشاف نفس الإنسان. وفي سنة ١٩٢٧ وضع فرويد كتابه المُسَمَّى: «بعض النتائج النفسية للفروق التشريحية بين الجنسين»، وفي سنة ١٩٣٢ حاول أن يوضح أفكاره أكثر عن المرأة في أجزاء متعددة من هذا الكتاب، ولا أظن أحدًا لم يسمع عن ذلك الاصطلاح الفرويدي «حسد عضو الذكر penis envy» أو عقدة الإخصاء عند المرأة أو عقدة أوديب.

وليس هناك بلا شك ما يوضح رأي فرويد في المرأة إلا كلمات فرويد نفسها، وسوف أسوق بعضًا منها هنا؛ لنرى كيف نظر فرويد إلى المرأة على أنها جنس أدنى من الرجل، وكانت هذه النظرية هي التي شكلت نظريته عن سيكلوجية المرأة.

كتب سيجموند فرويد يقول: «إن «النساء» يرفضن قبول الحقيقة بأنهن مخصيات، ويعشن بأمل الحصول على عضو الذكر في يوم ما، وبالرغم من كل شيء ... إنني لا أستطيع أن أتخلص من الفكرة (رغم ترددي في التعبير عنها) بأن القيم الأخلاقية التي تحكم النساء تختلف عن تلك التي تحكم الرجال، وعلينا ألا ننسى هذه الحقيقة؛ لأن الثائرات من النساء يرفضنها، هؤلاء النساء اللائي يرغبن في دفعنا إلى اعتبار المرأة مساوية للرجل في المركز والقيمة.»

ويقول فرويد أيضًا: «ونقول أيضًا على النساء أن اهتماماتهن الاجتماعية أضعف من اهتمامات الرجل، وأن قدرتهن على إعلاء رغباتهن أقل من الرجال ... ويبدو أن طريق التطور الشاق الذي يقود إلى الأنوثة يستنفد كل إمكانيات المرأة.»

والحقيقة أن الذي عقَّدَ طريق المرأة إلى الأنوثة هو فرويد نفسه بنظريته المعقدة عن أن البنت الطبيعية حين تولد تحسد أخاها الولد بسبب امتلاكه عضو الذكر، وأنها تتقرب إلى أبيها بأمل الحصول على طفل يعوضها عن فقدانها عضو الذكر، وحين يخذلها أبوها ولا يمنحها الطفل فهي تُشفى من عقدتها الأوديبية، لكنها تظل تأمل في الحصول على الذكر بلا جدوى، ثُمَّ تقبل الحقيقة، وهي أنها ذكر مخصي، وتحاول أن تعوض عن نقصها بالحصول على طفل؛ وبهذا تسعى إلى الرجل.

وقد اتضح من الدراسات الجديدة من سيكلوجية المرأة أن المرأة الطبيعية لا تمر بهذا الطريق الملتوي المعقد نحو الأنوثة أو نحو الأمومة. واتضح أن وصول المرأة إلى الأمومة أسهل وأبسط من وصول الرجل إلى الأبوة، وأن أمومة المرأة تطورت نفسيًّا على نحو طبيعي بسيط، أمَّا أبوة الرجل فقد كان عليها لتتطور نفسيًّا أن تشق طريقًا أصعب.

وقد شاركت هلين دوتيش مشاركة ذكية في نظرية التحليل النفسي، لكن مفهومها عن المرأة ظل في اتفاق مع أفكار فرويد وأبراهام وغيرهم من أعضاء نظرية التحليل النفسي.

وقد استطاع أرنست جونز في كتابه سنة ١٩٢٧ عن «المراحل الأولى لتطور جنسية المرأة»، ثُمَّ في كتابه سنة ١٩٣٣ عن: «المرحلة النظرية» أن يضيف بعض الأفكار الذكية المختلفة، لكنه لم يخرج كثيرًا عن أفكار فرويد؛ لأنه كان يميل إلى اعتبار المرحلة البظرية في النساء كظاهرة عُصابية ونكوص أكثر مما كان يعتبرها مرحلة طبيعية في النمو الجنسي. وكان يرى أن الخوف من التدمير الجنسي الذي سماه aphanisis عند المرأة يتساوى في الأهمية والعمق مع عقدة الخوف من الإخصاء عند الرجل.

وتعتبر «كارين هورني» من رائدات الاتجاه الجديد في سيكلوجية المرأة. وبالرغم أنها كانت تُعتبَر تلميذة لفرويد إلا أنها لم ترثْ كل أفكاره كقضية مسلَّمة، وإنما استطاعت بذكائها وشجاعتها أن تنقد بعض هذه الأفكار وتأتي بأفكار جديدة. وقد كانت من أوائل طبيبات النفس في العالم التي كشفت عن الأخطاء التي اعتنقتها نظرية التحليل النفسي عن المرأة.

وقد لخصت كارين هورني أفكار التحليل النفسي وأفكار فرويد بهذا الجدول الذي نشرته في كتاب بعنوان «سيكلوجية المرأة»، والذي يوضح الاختلافات الطبيعية بين نفسية الولد ونفسية البنت منذ الطفولة.

أفكار الولد	أفكارنا (نظرية التحليل النفسي) عن تطور الأنوثة
(١) التطور الساذج أن البنات مثل الأولاد لهن عضو الذكر.	(١) أنه عضو الذكر وحده الذي يمكن أن يلعب أي دور في كلا الجنسين.
(٢) اكتشاف أن البنات ليس عندهن عضو الذكر.	(٢) الاكتشاف الحزين بأن عضو الذكإن من عادة الرجل أن يُسقط كراهيته الداخلية العميقةر غير موجود.

أفكار الولد	أفكارنا (نظرية التحليل النفسي) عن تطور الأنوثة
(٣) اعتناق الفكرة أن البنت ليست إلا ذكرًا مخصيًّا أو مُشوَّهًا.	(٣) اعتناق الفكرة بأن البنت كانت تمتلك في يوم ما عضو الذكر ثُمَّ فقدته بسبب الإخصاء.
(٤) الاعتقاد بأن البنت تلقت العقاب الذي يهدده أيضًا.	(٤) الاعتقاد بأن الإخصاء كان نوعًا من العقاب الذي أصابها.
(٥) النظر إلى البنت كجنس أدنى منه.	(٥) نظرة البنت إلى نفسها كجنس أدنى من الذكر. حسد عضو الذكر penis envy.
(٦) عجز الولد عن تصور كيف يمكن للبنت أن تعوض هذا النقص أو الحسد.	(٦) عجز البنت الأبدي عن التخلص من الإحساس بالنقص والوضع الأدنى من الذكر، وعليها أن تتحكم على الدوام في رغبتها لأن تكون رجلًا.
(٧) خوف الولد من حسد البنت له.	(٧) رغبة البنت طوال حياتها كلها في الانتقام من الرجل؛ بسبب امتلاكه للعضو الذي فقدته.

وأثبتت هورني في بحوثها خطأ هذه الأفكار، وتقول إنها لا تعبر عن حقيقة سيكولوجية الأنثى، وإنما هي تعبر عن وجهة نظر الرجل في الأنثى بسبب تلك الحضارة الذكورية والعلوم التي صنعها الرجال. وتقول «هورني»: إننا لو حررنا عقولنا من تلك الأفكار الذكورية فإننا سنرى موضوع سيكولوجية الأنثى على نحو مختلف تمامًا. ولعل أول ما رأته «هورني» هو أن الفروق التشريحية بين الولد والبنت هي التي كانت أساسًا لسيكلوجية المرأة في نظرية التحليل النفسي، وأن هذه النظرية غفلت كثيرًا عن العوامل الأخرى، ومنها اختلاف الوظيفة البيولوجية التناسلية لكل من الذكر والأنثى، وأن الأنثى هي التي تلد الذكر، وأن قدرة المرأة على الإنجاب (هذه القدرة التي لا يملكها الرجل) قد لعبت دورًا هامًّا في أن يحسد الرجل المرأة منذ القدم، لا لأن تحسد المرأة الرجل بسبب امتلاكه عضو التناسل.

إن محاولة الرجل لعكس الأمور والحقائق المتعلقة بالمرأة شيء معروف في التاريخ وفي العلوم، ويظهر ذلك بوضوح في نظرية «فيرنزي» ومفهومه عن الأمومة، إنه يرى أن المعنى الحقيقي للعملية الجنسية عند كلا الجنسين ليست إلا رغبة الذكر في العودة إلى رحم الأم، وقد استطاع أن يحقق الرجل ذلك بواسطة عضوه الذكري، ولم يكن أمام المرأة

إلا أن تخضع لعدوان الرجل عليها، وأن تعوض ذلك عن طريق حصولها على طفل ترعاه؛ ولهذا تحاول المرأة أن تجد في الولادة لذة تعوضها عن اللذة المعقودة مع الرجل.

ومعنى مثل هذه الأفكار أن المرأة لا تشعر بلذة جنسية، وأن اتصالها الجنسي بالرجل ليس في نظرها إلا تعويضًا لها عن شيء آخر. وهذا بالطبع إنكار للحقيقة التاريخية والبيولوجية التي تؤكد سمو الأمومة وأصالتها وقوتها. وكم سببت هذه القدرة على خلق الحياة الجديدة في الرجل البدائي من كراهية للمرأة وغيرة منها، وتتضح تلك الغيرة في نفوس الذكور من الأولاد. وتقول كارين هورني: إنها دُهشت حين كانت تفحص الرجال نفسيًّا وتكتشف تلك الغيرة الدفينة من قدرة المرأة على الحمل والولادة والأمومة ووجود الثديين والقدرة على الإرضاع. ولم يكن أمام الرجل لعلاج غيرته هذه إلا أن يجعل من هذه الصفة (التي تثير غيرته) قيدًا على المرأة، بل وصمة ضعف ونقص، وكم استخدم الرجل صفة الحمل والولادة ليقيد المرأة ويكبتها ويربطها في البيت لتخدمه وتخدم الأطفال.

أمَّا أن المرأة لا تشعر بلذة جنسية وإنمَّا تخضع لرغبة الرجل فهذا أيضًا لا يتفق مع الحقائق البيولوجية من قدرة المرأة الجنسية، تلك القدرة التي اتضح من الدراسات البيولوجية الحديثة أنها عنيفة ودائرية ومستمرة، وأن الرجل لم يستطع أن ينشئ أسرته الأبوية وحضارته الذكورية إلا عن طريق قمع هذه القدرة الجنسية الحساسة (عملية ختان البنت أخف صورة منها)، أو ذلك الكبت الجنسي المفروض على المرأة في مختلف عصور التاريخ حتى اليوم بالقوانين الذكرية والمحرمات والمحظورات الواقعة على المرأة وحدها. ولا شك أن صرامة هذه القوانين وشدة هذا القمع من جانب الرجل تدل بوضوح على أنه حاول أن يخضع ماردًا جبَّارًا أحس به وأدركه منذ البداية، وهذا هو قدرة المرأة الجنسية العنيفة واللامحدودة كما عبَّر عنها ماسترز وجونسون وشيرفي بأنها قدرة دائرية مستمرة تُشبع ولا تَشبع في الوقت نفسه.

وبرغم وضوح أصالة الأمومة عند المرأة، وأن المرأة عرفت أمومتها الجسدية والنفسية منذ أول الحياة الإنسانية، وأن هذه الأمومة كانت عنيفة بيولوجيًّا، وكانت سامية نفسيًّا؛ بسبب قدرتها على إعطاء الحب لأطفالها، وأن الرجل لم يكتشف أبوته النفسية إلا حديثًا، وأن الذي ربطه بأطفاله أو الذي جعله ينشئ الأسرة أو ينسب إليه الأطفال لم يكن هو الحب الأبوي، وإنما كان هو العامل الاقتصادي وامتلاكه الأرض ورغبته في توريث الأرض لأطفاله، رغم هذا فإن هذه الأمومة بُترت وشُوِّهت في الحضارة الذكرية وفي نظرية التحليل النفسي.

ومن المهم لنا هنا أن نعرف كيف رأى فرويد الأمومة وكيف فسرها، وتتلخص نظرية فرويد عن الأمومة في أن البنت الطبيعية حين تكتشف أنها لا تملك عضو الذكر تشعر أنها تحسد الذكر على هذا العضو، ويزيد هذا الحسد penis envy من رغبتها الليبيدية من أجل الحصول على طفل، وعلى الرجل أيضًا، لكن رغبتها في الحصول على الرجل تنشأ عندها منفصلة عن رغبتها في الحصول على طفل. وتطورت أفكار فرويد من هذه الفكرة الأولى، وأصبح أكثر ميلًا إلى أن يعتبر أن هذا الحسد penis envy يتحول عند البنت ليصبح الرغبة في الحصول على الطفل، وأن رغبة الأمومة عند المرأة تنبع فقط من ذلك الحسد وخيبة أمل المرأة الأبدية بسبب عدم حصولها على عضو الذكر، بل إن تلك الصلة العاطفية التي تربطها بالرجل لم تنشأ إلا عن الطريق المعقد الملتوي، وهو الرغبة في الحصول على عضو الذكر واستبدالها بالحصول على طفل.

ويقتنع الرجل من زملاء فرويد وتلاميذه بهذه الأفكار الغريبة، إلى حد أن يسأل أحدهم وهو جروديك Groddeck قائلًا: إنه يفهم أنه من الطبيعي للولد أن يحتفظ بصورة أمه كموضوع حب، ولكنه لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن للبنت الصغيرة أن تتعلق بالجنس الآخر!

وقد خرجت كارين هورني من بحوثها في حالات مختلفة من النساء والبنات أن هذه الرغبة التي يُظهرها عدد كبير من النساء والبنات في أن يكنَّ ذكورًا ليس بسبب حسد عضو الذكر والرغبة في الحصول عليه، ولكن بسبب حياة الأنثى المفروضة عليها من المجتمع، أي أن هذه الرغبة ليست أصلية في المرأة أو البنت بسبب تكوينها النفسي، ولكنها رغبة ثانوية نشأت لأسباب اجتماعية وثقافية.

وتقول كارين هورني: إنه من أجل أن نفهم الأسباب التي من أجلها تحاول الأنثى الهروب من أنوثتها المفروضة لا بدَّ لنا أن ندرس الحياة التي تتعرض لها البنت منذ طفولتها، وبالذات حياتها الجنسية، وكذلك العادة السرية التي هي في مفهوم نظرية التحليل النفسي التعبير الجسدي عن عقدة أوديب.

وفي موضوع العادة السرية عند البنات الصغيرات؛ فالمعلومات قليلة جدًّا (بالنسبة لتلك المعلومات عن الولد) وغامضة أيضًا، وغموضها ليس إلا لأنها معلومات تعبر عن وجهة نظر الرجال. إن العادة السرية ليست إلا نشاطًا ذكريًّا في رأي نظرية التحليل النفسي، والبنت حين تمارس العادة السرية فهي تمارسها بسبب ذلك القلق الناتج عن الإخصاء الذي وقع لها (وهو بتر عضو الذكر من جسمها)؛ ولذلك فإن البنت تمارس العادة السرية ليس عن طريق المهبل ولكن عن طريق البظر، والذي نُظر إليه بالتالي (من أصحاب نظرية

التحليل النفسي) على أنه عضو ذكوري نبت خطأ في جسم الأنثى، وأن نضوج المرأة الجنسي والنفسي وبلوغها الأنوثة الحقيقية لا يتحقق إلا بانتقال منطقة الإثارة والحساسية الجنسية من البظر إلى المهبل، وحيث إن هذا الانتقال كان مستحيلًا بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا، فقد وقع فرويد وزملاؤه وتلاميذه في حيرة حينما اكتشفوا أن معظم النساء الناضجات (في نظرهم) باردات جنسيًّا، وأن البظر يظل منطقة جنسية حساسة في المرأة، والمهبل يظل منطقة غير حساسة؛ ولهذا لم يجدوا حلًّا لحيرتهم سوى أن يزعموا أن البظر عضو ذكري لأنه عضو نشط جنسيًّا، وهذا النشاط الجنسي صفة الذكور والأعضاء المذكرة فحسب. وربما كان ذلك أحد الأسباب القديمة في بتر البظر من جسم البنات (في بعض المجتمعات القديمة وفي بعض المجتمعات العربية حتى اليوم) من أجل تطهير الأنثى من ذلك العضو النشط الآثم، ولتصبح بعد ذلك الأنثى الكاملة الأنوثة، والتي لا أثر للذكورة فيها، وليصبح النشاط الجنسي من حق الذكور فقط، أمَّا الإناث فليس لهن إلا الحسد والأمل اليائس إلى الأبد.

إن هؤلاء العلماء لو كانوا ينظرون إلى المرأة نظرة علمية حقيقية لوجدوا أن المرأة خُلقت بهذا العضو النشط جنسيًّا، وأن هذا البظر موجود في جسمها بالطبيعة، وكان الأجدر بهم أن يدرسوا نشاطه، ويعترفوا بمظاهر هذا النشاط الذي يُرى في البنت الصغيرة على شكل العادة السرية.

ويرى عدد من العلماء أن العادة السرية نشاط جنسي طبيعي عند الولد والبنت سواء بسواء، لكن كارين هورني تعتقد أن هناك بعض الاختلافات بين الذكور والإناث في ميكانيزم هذا النشاط، رغم أنها تمارَس في الجنسين على نحو تلقائي. وكان تحليل كارين هورني يرتكز على نظرية التحليل النفسي للعادة السرية، والاختلاف بين الجنسين بالنسبة لما عُرف بعقدة أوديب. وهي ترى أن الخيالات الأوديبية عند البنت الصغيرة ترتكز على خوفها الناشئ من كِبَر حجم الأب، الذي تتخيل الاتصال به من أجل الحصول على الطفل، وذلك الخوف من التمزق الذي سيحدث لأعضائها أثناء الولادة. وتعتقد «هورني» أن هذه الخيالات الأوديبية وهذا الخوف من تمزق المهبل تدل على أن المهبل والبظر يلعبان دورًا في التكوين الجنسي للمرأة منذ الطفولة، وأن البرود الجنسي قد يرجع في بعض الحالات إلى هذا، أو ذلك الخوف الدفين في المرأة من الولادة (بسبب كبر حجم رأس الطفل بالنسبة لفتحة المهبل). هذا وإن الرغبة للاتصال بالأب جنسيًّا لا يقابل عند البنت الصغيرة بالإحساس بالذنب نفسه الذي يشعر به الولد الصغير حين يرغب الاتصال جنسيًّا بأمه؛ وذلك لأن البنت تجد في ولادة الطفل تبريرًا مريحًا، أمَّا الولد فليس لديه تبرير بالمثل.

هذا عن الخيالات الجنسية في الطفولة، أمَّا الممارسة ذاتها التي تتم عن طريق العادة السرية، فتقول «هورني»: إن الولد يختلف عن البنت في أنه يجد أثر الممارسة واضحًا؛ بسبب كبر عضوه بالنسبة لبظر البنت الصغير، التي تظل هذه العملية أمامها غير مؤكدة. ولهذا تقول «هورني»: إن مخاوف الولد من هذه الممارسة أثناء الطفولة والمراهقة أكثر من مخاوف البنت.

ولا شك أن «كارين هورني» كانت عُضوًا من أعضاء نظرية التحليل النفسي، وكانت تعتنق بعض أفكار فرويد عن عقدة أوديب، سواء في الولد أو البنت، لكنها استطاعت فيما يختص بسيكلوجية المرأة أن تنتبه إلى الأسباب الاجتماعية والضغوط الثقافية التي تؤثر في طبيعة المرأة وتشوهها، وأن تلاحظ أن البنت الطبيعية لا تحسد الولد بسبب امتلاكه عضو التناسل، ولكن بسبب الميزات الاجتماعية والحرية التي يتمتع بها لمجرد كونه ذكرًا، وأن البنت لا تهرب من أنوثتها وتتمنى أن تكون ذكرًا لتحصل على هذا العضو، وإنما لتحصل على تلك الميزات الاجتماعية والحرية التي يستمتع بها. وتكتب كارين هورني تقول: إن البنت في الحقيقة تتعرض منذ ولادتها حتى مماتها لتلك المحاولة الصارمة أو غير الصارمة (التي تتخذ أحيانًا شكل الرقة) لإقناعها بنقصها ووضعها الأدنى، وهذا بطبيعة الحال يُثير فيها على الدوام رغبتها في أن تكون رجلًا (عقدة الذكورة) ... وبسبب أن الحضارة هي حضارة ذكورية، فقد كان صعبًا على المرأة أن تحقق أي نوع من الإعلاء Sumblimation لهذه الرغبة الذكورية؛ لأن كل المهن في الحياة كان يشغلها الرجال؛ وهذا بالطبع رسَّب في نفس المرأة مزيدًا من الإحساس بالنقص ... وإنه لواضح تلك العلاقة الوثيقة بين العوامل الاجتماعية والنفسية، وخطورتها بحيث تستحق الدراسة. وقد أثَّرَت العوامل الاجتماعية نفسها على التطور النفسي للرجل، ولكن على نحو مختلف، فهي جعلته يكبت رغبته في أن يكون أنثى بسبب وضع الأنثى الأدنى، كما ساعدته أيضًا على إعلاء هذه الرغبة بنجاح.

وبرغم انتماء كارين هورني إلى أعضاء نظرية التحليل النفسي إلا أنها استطاعت أن تقدم شيئًا جديدًا يُلقي بعض الضوء على نفسية المرأة.

لكن علماء التحليل النفسي في جملتهم ظلُّوا عاجزين عن تقديم الجديد فيما يتعلق بسيكلوجية المرأة، وظل الطريق السيكلوجي نحو الأبوة بالنسبة للرجل ممهَّدًا وسهلًا وأكثر بساطةً وطبيعيةً من طريق المرأة نحو الأمومة الذي أُحيط بالتعقيد والغموض ومزيج من الخزعبلات الفلسفية والتاريخية والعلمية، بل لم تستطع نظرية الازدواجية الجنسية أيضًا أن تخلص سيكلوجية المرأة من الأفكار الخاطئة المحيطة بها.

وليس أدل على هذا العجز من أنه منذ سنة ١٩١٨ حين كتب فرويد كتابه عن: «التحريم والعذرية»، حتى سنة ١٩٣٢ حين أصدر كتابه: «جنسية المرأة»، لم يستطيع فرويد نفسه أن يقترح أي مفاهيم علمية جديدة في هذا المجال، وصرح فرويد حينئذٍ أن هناك الكثير في موضوع المرأة الذي لا زال مجهولًا، وأن تلك المحاولات والنظريات النفسية التحليلية التي بدأت في أوائل العشرينات لم تساعد في فهمنا لحقيقة المرأة، بل لعلها زادت الموضوع تعقيدًا وغموضًا، لكن أحدًا لم يعترف بفشل نظرية التحليل النفسي في فهم المرأة.

ولكن كيف كان يمكن الاعتراف بفشل نظرية التحليل النفسي في فهم المرأة، هذه النظرية التي اعتُبرت في ذلك الوقت ثورة علمية ليس في مجال علم النفس فحسب، وإنما في العلوم الإنسانية والاجتماعية كالأنثروبولوجيا والسيوسيولوجيا والتاريخ، بل وفي علم الأمراض العضوي الباثولوجيا أيضًا والبيولوجيا والفسيولوجيا، بل وفي الأدب والفن والثقافة بوجه عام.

ولا يمكن لأحدٍ منَّا أن ينكر أنه رغم تلك المحاولات المستمرة في تاريخ البشرية للإقلال من قيمة المرأة واعتبارها الجنس الأدنى، إلا أن موضوع المرأة جسدًا ونفسًا ظل مسيطرًا على أذهان الرجال والعلماء والكُتَّاب والمفكرين والشعراء والأدباء، والذي يستعرض إنتاج هؤلاء على مر العصور يندهش لهذا الكم الهائل من الموضوعات والكتب والروايات والأشعار التي تتناول المرأة. إن معظم هذه الكتابات تصور المرأة تصويرًا خاطئًا أو متناقضًا، لكنها تدل على أن موضوع المرأة يحتل في أذهان الرجال (عن وعي أو عن غير وعي) أجزاء كبيرة إن لم يكن أكبر الأجزاء.

وفي أدبنا العربي الكثير من هذه النماذج، لقد كنت أدهش وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية لكثرة قصائد الغزل المقررة علينا والتي نحفظها ونسمِّعها في حصة المحفوظات، وحينما بحثت في الشعر العربي القديم والحديث وجدت أن أكثر القصائد قيلت في الغزل وفي الشوق إلى المرأة والحب والهجران واللوعة ووصف الحبيبة جسدًا ونفسًا.

وحين قرأت أجزاء من الأدب العالمي دُهشت أيضًا حين وجدت أن أذهان الرجال في العالم لم تكن أقل انشغالًا بموضوع المرأة من الرجال العرب. وقد انشغل «ترجنيف» بشدة وبعمق في معظم أعماله بالمرأة والأنوثة ودورها في الحضارة، وكذلك كان إبسن وتولوستوي وزولا وجورج برنارد شو وغيرهم. وقد كان تولوستوي يرى أن سلبية المرأة التامة تحقيق تام لرسالتها البيولوجية في الحياة، وأشاد بحماس شديد بقصة «تشيكوف» المسماة «حبيبتي»، والتي تغزَّل فيها تشيكوف في سلبية المرأة. وفي «نورا» إبسن،

و«كانديدا» برناردشو، و«سارة» عباس العقاد، و«دعاء الكروان» طه حسين، وغيرها نجد ذلك الصراع الأبدي داخل ذهن الرجال بين المرأة الأم والمرأة العشيقة.

ولا يمكن أن نغفل أن نظرية التحليل النفسي حاولت أن تفسر أسباب هذه التراجيديا الأنثوية في فكر الرجل، وأن تدرس طبيعة ذلك الصراع وتلك الحرب الداخلية بين الجنسين، لكنها في الحقيقة عجزت عن فهم الأسباب الحقيقية، وفشلت في إلقاء ضوء على كراهية الرجل الدفينة للمرأة، ولم تسُقْ إلينا تبريرًا أكثرَ من أن العالم هو عالم الرجل، وأن المرأة تحيا فيه حياة قاسية، وأن هذا هو قدَرها وعليها أن تستسلم لهذا القدَر. وقد كانت نظرية التحليل النفسي إحدى النظريات في الحضارة الحديثة التي دعمت الأفكار القديمة منذ العصور الوسطى، ونشرت الفكرة التي تقول بأن المرأة ناقصة جسدًا ونفسًا وعقلًا.

وفي كتابه بعنوان: «التحريم والعذرية» قال فرويد: «... إن من عادة الرجل أن يُسقط كراهيته الداخلية العميقة على العالم الخارجي، أي ينسبها إلى أي شيء يكرهه أو أي شيء لم يألفْه. وينظر الرجل إلى المرأة أيضًا على أنها مصدر للخطر، وأول علاقة جنسية بينه وبين المرأة تظل في ذاكرته محفوفة بالخطر.»

وقد وقع فرويد بهذه العبارة فيما وقع فيه أجداده رجال العصور الوسطى، ولا تزال بعض القبائل الإفريقية تؤمن بأن المرأة إذا خَطَتْ فوق ساق رجل نائم فإنه يعجز جنسيًّا، أو أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميِّتًا. وتدل عبارة فرويد على أن الرجل يقترب من المرأة وهو يكرهها أصلًا؛ وعلى هذا فإن خوفه من إخصائها له قد يكون هو الدافع إلى أن يسقط عليها كراهيته.

وقد أكَّدَ فرويد فكرة أن الغريزة الجنسية عند الرجل تحتوي في أصلها على الكراهية، هذه الكراهية التي يوجهها الرجل إلى الرجل الآخر الذي ينافسه في المرأة. ويتضح ذلك من كلمات فرويد الشهيرة: «إن الحاجة الجنسية لا توحِد الرجال، ولكنها تفرق بينهم»، وهذه الكراهية أيضًا يوجهها إلى المرأة التي يقربها كما يرى فرويد في عبارته السابقة.

وقد رأى جوسين مولر وإيرنست جونز أن البنت تشعر بالذنب، ليس بسبب خوفها من الإخصاء ولكن بسبب خوفها من ألا تنجب أطفالًا، أو بمعنًى آخر خوفها من أن يحدث تدمير لأحشائها الداخلية فتصبح غير قادرة على الحمل والولادة. لكن كارين هورني رأت أن خوف البنت هو خوف من الاغتصاب، وترغب في الانتقام من الرجل الذي يَفُضُّ بَكارتها، ويُخيَّل إليها أن جسدها سوف يُدمَّر أو يُغتال أو يُمتص.

وقد أخذ فرويد فكرة أن جنس الرجال أعلى من جنس النساء على أنها شيء طبيعي، وأن من حق الرجال امتلاك المرأة، وقال في كتابه: «التحريم والعذرية» إن أهمية أن البنت

عذراء حتى تتزوج ليس إلا نتيجة طبيعية لحق الرجل المطلق في امتلاك المرأة، وهذا هو أساس فكرة الوحدانية في الزواج monogamy، وهي ليست إلا امتدادًا لهذا الاحتكار، احتكار الرجل للمرأة؛ منذ الماضي. وبرغم مناقشة فرويد لكثير من المحظورات والمحرمات الجنسية والفلسفية في عصره، إلا أنه لم يناقش فكرة امتلاك الرجل للمرأة كحق مطلق لجنس الذكور، وتركها دون مناقشة، بل لعله أكَّدها بنظريته السيكلوجية عن أن المرأة ناقصة عن الرجل جسدًا ونفسًا.

ولهذا نجد أن فكرة فرويد (وزملائه) لا تختلف كثيرًا عن فكرة رجال العصور الوسطى عن المرأة. لقد ورث فرويد أفكار أجداده عن النساء كما هي، وورث فلسفتهم اليهودية التي يصلي فيها الرجل كلَّ صباح ويشكر الرب؛ لأنه لم يخلقه امرأة. وبالرغم من إلحاد فرويد العقلي، إلا أنه ظل يهوديًّا في وجدانه وشعوره، وليس أدل على ذلك من النظرية النفسية التي وضعها عن المرأة، والتي لا تختلف كثيرًا في مضمونها عن نظرية كهنة العصور الوسطى إلى الساحرات الشريرات أو الحكيمات الساحرات.

حياة المرأة الجنسية

معظم الناس يعرفون أن حياة الرجل الجنسية لا تبدأ ليلة الزفاف، وإنما قبل ذلك بكثير، ولكن معظم الناس يتصورون (أو يحاولون تصور) أن حياة المرأة الجنسية تبدأ فقط ليلة الزفاف، وهم بذلك يُغمضون أعينهم عن حقائق كثيرة، ويتناسون طفولتهم (إذا كانوا آباء وأمهات).

وإني أتخيل هؤلاء الناس كالنعام الذي يضع رأسه في الرمال، متوهِّمًا أنه في مأمن وأن أحدًا لا يراه، على حين أن بقية جسمه خارج الرمال ظاهر وواضح وضوح الشمس.

وقد أدرك هذه الحقيقة عددٌ من العلماء في بداية هذا القرن، وأُجريت عدة بحوث علمية للتعرف على الحياة الجنسية للإنسان (ذكرًا أو أنثى) في جميع مراحل حياته، في الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة حتى الممات. ومن أهم البحوث العلمية في هذا الميدان بحوث كينزي التي ظهرت نتائجها في الخمسينات، وبحوث ماسترز وجونسون التي ظهرت نتائجها في الستينات، وأخيرًا بحوث شيرفي وجون ماني وهامسون وبيتش وستولر وغيرهم. وقد أجمع هؤلاء العلماء على أن حياة الإنسان الجنسية (ذكرًا وأنثى) تبدأ منذ الولادة وتنتهي بالممات. وقد كان فرويد من أوائل العلماء الذين واجهوا العالم بحقيقة أن الأطفال لهم حياة جنسية، وأنهم يشعرون باللذة الجنسية ويمارسونها بطريقتهم الطفولية الخاصة بهم، لكنه فسر بعض ملاحظاته عن الأطفال ذكورًا وإناثًا تفسيرًا خاطئًا كما اتضح من البحوث العلمية الجديدة.

وقد اعتقد فرويد أن الجنين في نموه التكويني يمر بمراحل الازدواجية الجنسية التي تنعكس على حياته النفسية بعد أن يولد، وأنه نتيجة لهذه الازدواجية الجنسية التكوينية، «فإن الطفلة البنت تملك عضوًا ذكريًّا (البظر)، والذي هو مصدر إثارتها الجنسية خلال

مرحلة الطفولة؛ ولهذا فهي تصادف صعابًا للتخلص من الازدواجية الجنسية أكثر من الصعاب التي يواجهها الطفل الذكر الذي لا يملك عُضوًا أنثويًّا له مثل ذلك النشاط.»

وقد أوضحت البحوث في البيولوجيا وعلم الغدد أنه لا يوجد أي دليل علمي على هذه الازدواجية التكوينية في الجنين، بل على عكس ذلك أوضحت البحوث الجديدة أن الجنين في بداية تكوينه لا يكون مزدوج الجنس (أو خنثى)، ولكنه يكون أنثى، وأن أعضاء الجنين الأنثوية لا تتشكل لتصبح أعضاء ذكرية إلا بعد تأثر الهرمونات الجنينية الذكرية. وبهذه النتائج تنهار نظرية فرويد تخلف فيها عن طريق الازدواجية الجنينية. كما اتضح أن نظرية فرويد عن أن شخصية الأنثى تتشكل بسبب حسد عضو الذكر وصراعها الأبدي من أجل الحصول عليه ليس لها أساس بيولوجي أيضًا.

ولقد أوضحت بحوث جون ماني وهامبسون أن شخصية الإنسان تتحدَّد ذكرًا أو أنثى على الخبرات النفسية والاجتماعية التي تؤكد للإنسان كونه ذكرًا أو أنثى، وذلك من محيط الأسرة والمجتمع الذي حوله. وقد ثبت أن الإنسان يتأكد من نوع جنسه ذكرًا أو أنثى حين يصبح في الثالثة من عمره؛ وبذلك أيضًا تنهار نظرية فرويد عن المرحلة «القضيبية» وما بعد المرحلة القضيبية Phalic and Post Phalic Psychosexual Stages وأن هاتين المرحلتين لا يمكن أن يلعبا الدور الرئيسي (كما فكر فرويد) في تحديد الأنوثة أو الذكورة، وينهار معها أسس نظرية التحليل النفسي عن سيكلوجية الأنثى، والتي تقول: «إنه في المرحلة القضيبية (أو البظرية عند الأنثى) فإنه من المستحيل للشخصية الأنثوية أن تتحقق بيولوجيًّا؛ حيث إن «البظر» هنا هو أساس الإثارة والرغبة الجنسية.»

وقد أثبتت البحوث الجديدة التي أجريت على الأطفال البنات والذكور عددًا من الحقائق الجديدة عن مرحلة الطفولة، كما أنه بُذلت أيضًا محاولات مع البحوث التي أُجريت على الشباب وكبار السن من أجل تذكر فترة الطفولة وخيالاتها والتغلب على الظاهرة التي سُمِّيَت في علم النفس «فقدان ذكريات الطفولة infantile amnesia».

وبالنسبة لحياة الأطفال البنات الجنسية، فقد اتضح من بحوث كينزي وماسترز وجونسون أن الطفلة البنت (كالطفل الذكر) تعرف الجنس مبكِّرًا جدًّا في حياتها، وأحيانًا قبل أن تصل الثالثة من عمرها، لكن البنت تنسى معظم الذكريات الجنسية عن الطفولة (وكذلك الولد)؛ بسبب طبيعة هذه المداعبات الجنسية وتلقائيتها، وبسبب أن البنت تشعر أنها يجب أن تخفي هذه الممارسات عن أمها وعن أي فرد في الأسرة، وما ينتج عن ذلك من إحساس بالذنب لدى البنت يصيبها بالعجز النفسي عن تذكر مثل هذه الذكريات الآثمة،

وتنساها فعلًا، ولكن رغم نسيان الطفلة للتجرِبة أو التجارِب التي مرت بها فإنها تكون قد حصلت على خبرة معينة قد تؤثر على سلوكها الجنسي فيما بعد.

وقد وجد كينزي أن ١٪ من النساء اللائي أُجريَ عليهن البحث (٨٠٠٠ امرأة) يتذكرن المداعبات الجنسية التي مارسنها مع الأطفال الذكور وهن في سن الثالثة من العمر، و٨٪ يتذكرون هذه الممارسات وهن في الخامسة من العمر، و٣٪ يتذكرنها وهن في السن قبل البلوغ أو قبل المراهقة.

ويُقارن الأطفال أعضاءهم التناسلية كما يقارنون أصابعهم وأنوفهم، ويفعلون ذلك بتلقائية طبيعية؛ لأن الأعضاء الجنسية مثلها مثل أي أعضاء أخرى في الجسم، لكن تحذير الكبار لهم وتخويفهم هو الذي يربكهم ويجعلهم أكثر رغبةً للممارسة الخفية وراء أعين الكبار، لكن الإحساس بالذنب يسود معظم هذه التجارِب المبكرة، ويترك آثارًا نفسيةً ضارةً بالبنت الصغيرة (الولد أيضًا)، وتزداد الحالة سوءًا لو اكتشفها أحد الكبار وعوقبت بالضرب مثلًا أو الإهانة، إن مثل هذا الإحساس بالذنب يجعلها لا تقبل العلاقة الجنسية حين تتزوج، وإن قبلتها عن وعي فإنها لا تقبلها عن غير وعي. أمَّا إذا لم يُظهر الكبار أي فزع عند اكتشافها لمثل هذه الممارسات فإن الطفلة لا تشعر بالذنب، ولا يؤثر ذلك على تقبلها الجنسي فيما بعد.

وتنقطع هذه الممارسات الجنسية الطفولية قبل المراهقة بقليل أو أثناءها حسب ضغوط الأسرة والمجتمع، ولولا هذه الضغوط الاجتماعية لاستمرت هذه الممارسات طبيعية. وقد ظن فرويد وزملاؤه أن هذا الانقطاع فترة انكماش، وسماها الفترة الكامنة Latency.

أمَّا العلماء الآخرون فيرَوْن أن هذه الفترة هي فترة «عدم نشاط» تُفرض على البنت بواسطة المجتمع وليست هي فترة كمون بيولوجي كما اعتقد فرويد، وقد وجدوا أن معظم البنات يمارسن العادة السرية في هذه الفترة، وهذا يدل على أن النشاط موجود ولكنه مخيف ومكبوت.

وقد وُجد أن نسبة غير قليلة من البنات الأطفال يتعرضن لاعتداءات جنسية مختلفة من الرجال الكبار، وأن نسبة كبيرة منهن ينسَوْنَ هذه الحوادث، خاصة إذا كان الرجل المعتدي أحد أفراد الأسرة المحرمين مثل الأخ أو العم أو الخال أو الأب.

ووجد كينزي في بحثه أنه من بين ٤٤٤١ امرأة هناك ١٠٧٥ امرأة تذكر أنه حدث لها أثناء الطفولة اتصال جنسي بأحد الرجال الكبار، أي بنسبة ٢٤٪ (٧٦٪ من النساء لم يذكرن هذا). ووجد كينزي أن معظم هذه الحالات من الطبقات الفقيرة حيث الزحام

في الحجرات وتلاصق الأجسام، وتقل هذه النسبة قليلًا عن النسبة التي نتجت عن البحث الذي قمت به على ١٨٠ امرأة مصرية في العام الماضي.

وقد صنف كينزي أنواع الرجال الكبار الذين مارسوا هذه الاعتداءات الجنسية على البنات كالآتي:

نوع الرجل الكبير	نسبة حوادث الاعتداء على الأطفال البنات	
غرباء		٥٢٪
معارف وأصدقاء		٣٢٪
الخال أو العم	٩٪	
الأب	٤٪	
الأخ	٣٪	٢٣٪
الجد	٢٪	
أقارب آخرون	٥٪	

أي أن أفراد الأسرة والأقارب يمثلون ٢٣٪، أمَّا هاميلتون (١٩٢٩) Hamilton فقد وجد أن هؤلاء ٢٠٪، ولانديز (١٩٤٠) Landis Etal وجد أنها ٣٥٪، وباومان (١٩٥٢) Bowman وجد أنه من ٤٩ حالة فإن ٧ حالات فقط كانت الغرباء، والباقي من أفراد الأسرة والأقارب.

وقد درس هؤلاء العلماء مشاعر الطفلة النفسية في تلك الحالات، ووجدوا أن هذه المشاعر كالآتي:

- اهتمام.
- استطلاع.
- سرور ولذة.
- شعور بالحرج.
- خوف أو فزع.
- شعور بالذنب أو الإثم.

وقد وجدوا أن اكتشاف الأسرة للحادث أو البوليس أو المدرسة يسبب ذعرًا للطفلة البنت أكثر من العمل الجنسي ذاته، وتكتم البنت في معظم الأحوال هذه الحوادث بسبب الشعور باللذة الذي قد يكون ضئيلًا جدًّا أحيانًا، ولكنه يكفي لأن يجعل البنت تشعر بالخوف والذنب. وفي معظم هذه الحالات لا تحدث أضرار جسيمة للبنت إلا في حالات نادرة جدًّا حين يحدث نزيف شديد أو قطع في الأنسجة، ولكن معظم الحالات تمر بغير أضرار جسيمة، وأحيانًا يتمزق غشاء البكارة، وفي أحيان أخرى لا يتمزق. ولا يعتبر هؤلاء العلماء تمزق الغشاء من الأضرار الجسيمة لأنه لا يضر بصحة الفتاة الجسمية، ولكنه قد يؤثر على حياتها النفسية فيما بعد إذا كانت تعيش في مجتمع يعتبر أن سلامة غشاء البكارة دليل شرف الفتاة.

وتصل البنت إلى المراهقة جسديًّا أسرع من الولد، ويرى العلماء أن هذه القدرة البيولوجية في الأنثى على النمو والنضوج بأسرع من الذكر تتفق مع الحقائق البيولوجية الجديدة التي تقول إن الجنين يبدأ أنثى؛ وبذلك يكون تكوين الأنثى البيولوجي أكثر متانة وكفاءة (لأنه الأصل) من تكوين الذكر؛ ولهذا يكون نموه ونضوجه أبطأ من نموها.

وتتأخر مراهقة الولد عن مراهقة البنت سنة أو سنتين، كما أنها تمتد فترة أطول ٤ سنوات أو أكثر. وهكذا تنضج البنت جسديًّا أسرع من الولد، لكن الضغوط الاجتماعية على البنت قد تعرقل نموها النفسي والجنسي وتعطله عن الولد.

وكان هناك اعتقاد بأن مراهقة البنت تبدأ بالحيض، وهذا غير صحيح؛ لأن المراهقة تبدأ قبل ذلك، معظم البنات تبدأ عندهن بظهور شعر العانة، وقد يبدأ مبكِّرًا في بعض البنات سن ٨ سنوات، وقد يتأخر حتى سن ١٨ سنة (المتوسط عند سنة ١٢٫٣). نمو الثديين قد يصاحب شعر العانة وقد يسبقه، قد ينمو الثديان مبكِّرًا عند سن ٨ سنوات، وقد يتأخر نموهما حتى سن ٢٥ سنة (المتوسط ١٢٫٤)، ويتوقف طول قامة البنات من ٩ سنوات إلى ٢٥ (المتوسط ١٥٫٨)، ويبدأ الحيض من ٩ سنوات إلى ٢٥ سنة (المتوسط ١٣ سنة). والحيض قد يكون أول علامات المراهقة، وهو حادث مفاجئ، ويجب أن تُعَدَّ له البنت من قبل وإلا أصابها بصدمة نفسية وفزع. وقد وجد كينزي أن ٩٪ من البنات يُفاجأن بالحيض دون سابق معرفة، وأن ٨٪ يعرفن عن الحيض من مصادر غير الأم، وأن ٢٪ فقط يعرفن من الأم. ويتفق هذا مع النتائج في البحوث الأخرى (وأيضًا البحث الذي أجريته حيث يمر بك في هذا الكتاب)، ويدل على تلك العلاقة الصامتة بين الأمهات وبناتهن والآثار النفسية السيئة لإخفاء الأمهات لأبسط حقائق الحياة عن بناتهن.

وقد يفرز المبيضان البيض الناضج قبل ظهور الحيض، وهناك حالات حمل حدثت قبل ظهور الحيض بسبب إفراز البيض الناضج، لكن في معظم البنات لا يُفرَز البيض الناضج إلا بعد ظهور الحيض بعدة سنوات، وتُسَمَّى هذه الفترة بعقم المراهقة adolescent sterility، وهو ليس عُقمًا كاملًا؛ لأنه أحيانًا تُفرَز بيضة ناضجة من حين إلى حين، لكن إفراز البيض الناضج شهريًّا بصفة منتظمة لا يحدث عند الفتاة إلا في سن من ١٦–١٨ سنة.

وقد وُجد أن اكتساب الفتاة لأية كفاءة في الاستجابة الجنسية تتوقف على نوع الخبرة الجنسية التي خبرتها في الطفولة والمراهقة، وعلى العوامل الاجتماعية التي تؤثر عليها نفسيًّا وتجعلها تكبت رغباتها.

وقد وجد كينزي أن العادة السرية هي أكثر الأنشطة الجنسية التي تسبب الأورجازم (قمة اللذة) للمرأة، وأن ٩٥٪ من النساء يصلن إلى الأورجازم من خلال العادة السرية. ووجد دافيز (١٩٢٩) Davis أن هذه النسبة ٨٨٪.

أمَّا في الزواج فقد وجد أن كثيرًا من النساء يفشلن في الوصول إلى الأورجازم؛ وذلك بسبب محاولة الزوجة إخفاء كثير من الحقائق عن زوجها، وإخفاء رغباتها، ومحاولة التكييف مع رغباته هو. أمَّا في العادة السرية فهي تعرف كيف تتصرف مع جسدها دون أن تخشى شيئًا.

وقد وجد كينزي أن ٨٥٪ من النساء يمارسن العادة السرية في أي مرحلة من مراحل عمرهن، ووجد أن ممارسة العادة السرية تزداد بين النساء كبار السن بسبب خبرتهن الجنسية؛ وبسبب عدم إقبال الرجال عليهن في هذه السن. وقد وجد أن ٣٦٪ من النساء لم يعرفن الأورجازم من أي نوع قبل الزواج، وأن عدم معرفة الأورجازم قبل الزواج تسبب تأخر المرأة في الاستجابة الجنسية ثلاثة أضعاف عن استجابة النساء اللائي عرفن الأورجازم قبل الزواج، ووجد أن ٥٠٪ فقط من النساء من يعرفن الأورجازم بصفة منتظمة قبل الزواج.

وقد اعتُقد خطأ أن الذكور فقط هم الذين يمارسون الأحلام الجنسية (الاحتلام)، وقد وُجد أن الأحلام الجنسية تُمارَس في كلا الجنسين، وتسبب الأورجازم والقذف في كلا الجنسين. وقد تكونت فكرة خاطئة من أن الاحتلام في الذكور يحدث بسبب تجمع السائل المنوي في الخُصيتين، وأنه حين تمتلئ الخُصيتان فإن السائل يسبب ضغطًا، وهذا بدوره يقود إلى الأورجازم ثُمَّ القذف أثناء النوم.

وقد أثبت التشريح والفسيولوجيا خطأ هذه الفكرة؛ فإن السائل المنوي يتكون من إفرازات غدة البروتستاتا والحويصلتين المنويتين، ويُضاف إليه شيء صغير جدًّا (ميكروسكوبي) من الحيوانات المنوية من الخُصيتين، وليس هناك ما يوضح أن الضغط في البروتستاتا أو الحويصلتين المنويتين أو أي غدة أخرى يؤثر على المراكز السفلى للنخاع الشوكي، وهي المراكز التي تصنع الاستجابة الجنسية. ثُمَّ إن النساء يمارسن الأحلام الجنسية إلى حد الأورجازم دون أن يكون لهما خُصيتان أو بروتستاتا أو حويصلتان منويتان؛ وهذا كله يعطي دليلًا على أن الضغط داخل الغدد لا دخل له في القذف الليلي عند الذكر.

وقد اعتُقد خطأ أيضًا أن الأحلام الجنسية عند المرأة ليست إلا تعبيرًا عن حالة عُصابية مرضية Neurotic، وأن المرأة السليمة نفسيًّا لا تمارس الأحلام الجنسية حتى الأورجازم، وقد اعتُقد ذلك لأن العلماء كانوا يجهلون الكثير عن حياة المرأة الجنسية، ويتصورون أن نسبة قليلة منهن تمارس هذه الأحلام. ومن المعروف في الطب النفسي أن أي ظاهرة غير معروفة لدى الأطباء فإنهم سرعان ما يفسرونها على أنها بسبب المرض والعُصاب، ولكن حين اتضح أن حوالي ٧٠٪ من النساء يمارسن الأحلام الجنسية لم يعدْ في إمكان هؤلاء الأطباء اعتبار أن ٧٠٪ من النساء مُصابات بالعُصاب.

ولم يُعرَف علميًّا حتى الآن مبعث هذه الأحلام الجنسية في الإنسان (ذكرًا أو أنثى)؛ لأنه لم يُعرف مبعثها في الحيوانات الثديية. وقد وُجد أن بعض الحيوانات الثديية (ذكورًا وإناثًا) تمارس الأحلام الجنسية. لوحظ انتصاب عند الكلب وهو نائم، والقطط تقذف وهي نائمة، ومهبل الكلبة يتورم وهي نائمة ويفرز (أبحاث فورد وبيتش (١٩٥١) Ford and Beach)، ولكنه وجد أنه من الصعب معرفة هذه الأحلام في حيوان لا يفصح عنها. ولا شك أن الأبحاث في المستقبل ستوضح مبعث هذه الأحلام في فصائل أخرى من الثدييات، وكذلك في الإنسان.

وقد وُجد أن الأحلام الجنسية تزيد عند المرأة كلما كبرت في السن حتى سن ٤٥ سنة، أو إذا حُرمت من عقار أدمنت عليه (كالأدوية المهدئة أو المنومة)، ولكن النساء بصفة عامة يمارسن الأحلام الجنسية أقل من الرجال (٨٠٪ من الرجال يمارسون الأحلام الجنسية)؛ وقد يرجع ذلك إلى الضغوط الاجتماعية النفسية التي تزيد على النساء والتي قد تعطل مختلف الأنشطة الجنسية عندهن ومنها العادة السرية والأحلام الجنسية.

وقد وُجد أن الأحلام الجنسية عند الرجال تكون أكثر ما تكون في سن ٢٠ سنة، ولكن عند النساء في سن ٤٥–٥٠ سنة (معظمهن متزوجات أو سبق لهن الزواج، الأقلية لم يتزوجن)، وقد تصل المرأة إلى سن ٧٠ سنة وتمارس الأحلام الجنسية.

فُسِّرَ ذلك على أن الزواج أو الممارسة الجنسية المنتظمة تنشط المرأة جنسيًّا وتزداد كفاءتها بازدياد الممارسة. وقد وُجد أن الأحلام الجنسية تزداد أيضًا حين يغيب الزوج، أو في حالة المسجونات. لكن وُجد أن الأحلام ليست تعويضًا عن حرمان فحسب، ولكنها تنشط مع أي نشاط جنسي آخر كالعادة السرية أو ممارسة الجنس مع الزوج. وقد يكون الحلم إعادة للأورجازم الذي حدث في الليلة نفسها مع الزوج.

ووجد فرويد أن ٢٥٪ من النساء يحصلن على الأورجازم من العادة السرية والأحلام الجنسية، وأن البقية وهي ٧٥٪ تحصل على الأورجازم عن طريق الاتصال الجنسي السطحي مع الذكور قبل الزواج، وعن طريق العلاقات الجنسية مع الزوج خلال الزواج، وعن طريق العلاقة الجنسية مع نفس الجنس (النساء مع النساء).

وقد لاحظ العلماء أن الاتصال الجنسي السطحي أو المداعبات الجنسية ليست صفة في الإنسان وحده، ولكن بعض فصائل الثدييات تمارس المداعبات الجنسية، وفي بعض الفصائل تستمر هذه المداعبات الجنسية ساعات طويلة — وأحيانًا أيَّامًا — دون الاتصال الجنسي الكامل، لدرجة أن بعض الباحثين كانوا ينتظرون أيَّامًا وهم يراقبون هذه المداعبات، وفي النهاية تحدث العملية الجنسية.

هذه الفصائل هي: البقر، الخيول، الخراف، القطط، الأسد، اللبؤة، الكلاب، الأرانب، الفئران، القرد، الشمبانزي، وغيرها. وتتم المداعبات في الحيوانات عن طريق اللسان والشم والقفز والقبل وملامسة الأعضاء الجنسية. وتستخدم الحيوانات اللسان والأنف في هذه المداعبات أكثر من الإنسان الذي يستخدم يده أكثر بسبب تطور يده عن الحيوانات.

وفي بعض الفصائل الحيوانية تكون الإناث أكثر إيجابية من الذكور في هذه المداعبات، وخاصة في فترة الحرارة estrus، وهي التي تبدأ، وقد تكون عدوانية كما هو الحال في بعض النساء، ولكن الذكر هو الذي يبدأ في فترة عدم الحرارة؛ إذ عادةً تكون الأنثى هادئة وغير مُثارة جنسيًّا كالذكر.

والمداعبات الجنسية في الإنسان طبيعية، ولكن بعض الناس يتصورون أنها غير طبيعية، وأن العملية الجنسية المعروفة بين الرجل والمرأة هي الشكل الطبيعي الوحيد للممارسة الجنسية؛ لأنها التي تسبب الحمل والإنجاب، أمَّا الممارسة الجنسية التي لا تسبب

الحمل والإنجاب فينظر إليها بعض الناس على أنها غير طبيعية. وهذه النظرة خاطئة للنشاط الجنسي في الإنسان. إن المداعبات الجنسية نشاط جنسي طبيعي في جميع الثدييات ومنها الإنسان، وإن كبت الرغبة في ممارسة هذه المداعبات هو الشيء غير الطبيعي.

ويظن بعض الناس أن هذه المداعبات بدعة من الطبقات المثقفة التي تبحث عن تنوع النشاط الجنسي، وعن وسائل متنوعة للذة الجنسية، ولكن الذي يلاحظ حياة الحيوانات الثدييات يدرك أن هذه المداعبات الجنسية ليست بدعة الإنسان المثقف أو المتحرر، وإنما هي طبيعة الحيوانات والإنسان، وقد يكبتها أحيانًا حين لا يجد الوقت أو القدرة على تحطيم المحظورات التقليدية حول الجنس. وقد وجد كينزي أن ٤٠٪ من النساء — في البحث الذي أجراه — مارسن المداعبات الجنسية قبل وصولهن سن ١٥ سنة، وأن ٧٠–٩٥٪ مارسنها بوصولهن سن ١٨ سنة، ووجد أن ١٠٠٪ من النساء المتزوجات لهن تجارِب في المداعبات الجنسية قبل الزواج، وأن ٣٩٪ فقط يصلن إلى الأورجازم عن طريق هذه المداعبات.

والقبلات نوع من أنواع المداعبات الجنسية، وقد تكون قبلات بسيطة أو قبلات عميقة، القبلات البسيطة قد تثير المرأة جنسيًّا وقد لا تُثيرها، لكن القبلات العميقة لها تأثير قوي؛ لأن الشفتين واللسان وداخل الفم كلها غنية بالأعصاب، وقد تصل المرأة أحيانًا إلى الأورجازم من مثل هذه القبلات وحدَها دون أي اتصال جنسي حر، وبعض النساء يرفضن القبلات بسبب تربية معينة، ولكنهن يوافقن على مداعبات أخرى. وقد تفقد المرأة عقَدها النفسية بالتدريج بعد استمتاعها بالقبلات. والثدي من المناطق الحساسة في المرأة، ولكن هناك بعض العقد النفسية الخاصة بالثدي؛ لأنه مصدر إرضاع الطفل، وقد ظل المجتمع الصيني لعدة قرون يعتبر ثدي المرأة بغير جاذبية جنسية بل مُنفِّرًا بسبب المحظورات على الجنس؛ ولأن الثدي يُرضع الطفل.

ومن المفاهيم الشائعة الخاطئة أن الرجل وحده هو الذي يشعر بضيق وألم إذا أُثير جنسيًّا ولم يصل إلى النهاية أو القذف، ولكن اتضح أن المرأة أيضًا تشعر بضيق وألم إذا لم تصل إلى الأورجازم، وهذا له سبب فسيولوجي كما في حال الرجل تمامًا، وله سبب نفسي أيضًا. وبعض النساء يمارسن العادة السرية للتخلص من الألم أو التوتر. إن الإثارة الجنسية غير المكتملة تسبب نوعًا من التوتر «العصبي العضلي»، إذا لم يحدث الأورجازم فإن هذا التوتر يبقى فترة طويلة قد يصل إلى ساعات قبل أن يضيع، ولكن الأورجازم يضيع هذا التوتر في ثوانٍ أو دقيقتين؛ وتشعر المرأة كالرجل بالراحة الكاملة ما لم يكن هناك شعور بالذنب أو الإثم أو الندم أو الخوف من الحمل.

وقد وجد كينزي (١٩٥٣) وديل (١٩٣٠) ونيرمان (١٩٣٨) وليفي ومونرو (١٩٣٨) وسكوير (١٩٣٨) ولانديز (١٩٤٠) وبول لانديز (١٩٤٥) وماكاندرو (١٩٤٦) وبراون وكيمتون (١٩٥٠) وتبرمان (١٩٥١)، وجد كل هؤلاء العلماء في بحوثهم أن المداعبات الجنسية لكلا الجنسين تمهد لحياة جنسية أكثر نضوجًا في الزواج، وتساعد النساء بعد الزواج على الوصول إلى الأورجازم. وقد وجد كينزي أن ٤٤٪ من الزوجات اللائي لم يعرفن الأورجازم على الإطلاق قبل الزواج فشلن في الوصول إلى الأورجازم على الإطلاق في السنة الأولى للزواج، على حين أن ١٣٪ فقط من الزوجات اللائي عرفن الأورجازم من قبل فشلن في الوصول إليه في السنة الأولى من الزواج (كينزي ١٩٥٣، ص٢٦٥).

وقد وجد كينزي أن ٦٤٪ من النساء خبرن الأورجازم قبل الزواج عن طريق مختلف الأنشطة الجنسية، ابتداءً من العادة السرية إلى الأحلام إلى المداعبات السطحية من الجنس الآخر أو الجنس نفسه إلى العملية الجنسية ذاتها، لكن العملية الجنسية لم تمثل إلا ١٧٪ فقط من الأسباب التي تسبب الأورجازم قبل الزواج.

وتُباح العملية الجنسية بين الجنسين في عدد من المجتمعات قبل الزواج، وهناك مجتمعات تبيحها للرجال فقط ولا تُباح للنساء؛ ولذلك يُضطر هؤلاء الرجال إلى ممارستها مع المومسات أو مع الخادمات ونساء الطبقة الأدنى. وقد أباحت بلاد أوروبا وأمريكا جميعًا العلاقة الجنسية للرجال والنساء بعد انهيار الأخلاقيات المسيحية، وكانت السويد والبلاد الإسكندنافية في مقدمة هذه البلاد.

وفي بحث كينزي وُجد أن ٥٠٪ من النساء الأمريكيات مارسن العلاقة الجنسية الكاملة مع الجنس الآخر قبل الزواج، وأن ٢ / ٣ فقط حصلن على الأورجازم. ووُجد أن ٨٧٪ من هؤلاء النساء تزوجن الرجل الذي مارسن معه الجنس قبل الزواج. ووُجد أن ٥٣٪ من النساء مارسن الجنس قبل الزواج مع رجل واحد فقط، وأن ٣٤٪ مارسن مع ٢–٥ رجال، وأن ١٣٪ مارسن مع ٦ رجال فأكثر. وقد وجد أن ٤٥٪ من الزوجات الأمريكيات يمارسن الجنس في الوضع الأعلى للزوج، والباقيات ٥٥٪ يمارسن في الوضع الأسفل الشائع.

وقد وُجد أن ٦٩٪ من النساء اللائي مارسن الجنس قبل الزواج لم يشعرن بالندم على ذلك، والباقيات ٣١٪ شعرن بالندم. كما وُجد أن ٤٠٪ من الرجال الأمريكيين يفضِّلون العذراء في الزواج، وأن ٢٣٪ من النساء يفضلن الرجل البكر أيضًا (لم يسبق له ممارسة الجنس).

ويقول معظم علماء الجنس: إن الطريقة المتحفظة والقيود الصارمة على بنات الأسرة المتوسطة والعالية تدفع الرجل إلى أن يعرف أكثر طرق المومسات في الجنس وطريقتهن

عن أن يعرف طريقة الفتاة التي سيتزوجها، كما أن هذه التربية نفسها تجعل الأزواج يشعرون باحترام لزوجاتهم كأمهاتهم وأخواتهم؛ وبالتالي لا يشعرون بلذة جنسية معهن، وبعد الزواج يظل عدد كبير من الأزواج يسعَوْنَ إلى ممارسة الجنس مع المومسات من أجل الحصول على المتعة الجنسية التي تعودوا عليها.

أمَّا البنت فإن القيود الصارمة التي تتعرض لها والحرمان الطويل الذي تعيشه يجعلها بعد الزواج عاجزة عن التخلص من عقدها النفسية والجسدية، ولا يمكن أن نتصور أن الفتاة يمكن بطريقة سحرية (لسبب ما سحري في حفل الزواج) أن تتخلص فجأة من عقدها. وتوضح نتائج البحوث أن معظم النساء ومعظم الرجال أيضًا يجدون صعوبة بعد الزواج في استعادة طبيعتهم الحرة التي كانوا عليها في الطفولة، ويصعب عليهم أن يستجيبوا للرغبة واللذة بدون القيود الجسدية والنفسية التي فُرضت عليهم وفرضوها على أنفسهم.

إن الوصول إلى الأورجازم قدرة جسدية تحتاج إلى ممارسة وخبرة؛ ودليل ذلك أن المرأة المتزوجة لا تصل إلى الأورجازم إلا بعد عدة سنوات من الزواج قد تصل إلى ٢٨ سنة. وقد وجد كينزي أن ٧٥٪ من النساء اللائي خبرن الجنس إلى الأورجازم قبل الزواج وصلن إلى الأورجازم في السنة الأولى للزواج.

وقد وُجد أنه في السنة الأولى للزواج يرغب الرجل في الجنس أكثر من المرأة، وبمرور السنين تتغلب الزوجة على عقدها، وحين تصبح قادرة على الجنس وراغبة فيه (ويكون ذلك عند ٤٠–٥٠ سنة من عمرها) تكون قدرة زوجها الجنسية قد انخفضت (الزوج غالبًا يكبر زوجته بعدة أعوام)، ويكون الزوج أيضًا قد تعود منها عدم الاستجابة الكافية أو الرفض؛ ولهذا تلجأ بعض هؤلاء الزوجات الكبيرات السن إلى الشباب من أجل الإشباع الجنسي الذي فقدته في سنوات شبابها.

ومن الأفكار الشائعة الخاطئة أن الوضع الطبيعي الوحيد للمرأة في الجنس هو الوضع الأسفل والرجل أعلى، ولكن بعض علماء الجنس يرَوْنَ أن وضع المرأة أعلى هو وضع أكثر طبيعية، ويسهل عليها الوصول إلى الأورجازم، وكذلك الرجل؛ بسبب سهولة التلامس الكلي للأعضاء، كما أن هذا الوضع يساعد المرأة على الحركة والإيجابية أكثر من الوضع الأسفل. وقد وجد أن في السنين الأولى للزواج تتغير الأوضاع ويتبادل الزوجان، ثُمَّ يستقران في النهاية على الأوضاع التي تعطيهما اللذة القصوى.

وتدل معظم البحوث أن كثيرًا من الزوجات لا يصلن إلى الأورجازم، ولكنهن يشعرن بالرضا حين يرضى الرجل، ويستمر الزواج ناجحًا رغم ذلك؛ لأن المرأة تعودت على التضحية

بنفسها ورغباتها من أجل الرجل، لكن ذلك ينعكس على صحتها النفسية فيما بعد. وقد وُجد أن المداعبات الجنسية قبل العملية الجنسية ذاتها تساعد الزوجة على الحصول على الأورجازم، وتستمر هذه المداعبات عادةً من ٤ دقائق إلى ٢٠ دقيقة، وأحيانًا إلى ٣٠ دقيقة، وخاصة بين المثقفين المتحررين من العُقَد، ولكن هناك بعض الأزواج والزوجات يكرهون هذه المداعبات ويتصورون أنها نوع من الانحراف أو الفسق، وتتصور بعض الزوجات أن خلع ملابسهن كلها أثناء الجنس نوع من الحرام أو العيب، وبعض الزوجات لا يستطعن ممارسة الجنس إلا في الظلام التام بسبب الخجل والحرج والشعور بالذنب. ومعظم الزوجات مُصابات بالبرود الجنسي بدرجات متفاوتة حسب التربية في الطفولة والمراهقة. وفي الحالات التي تصل فيها الزوجة إلى الأورجازم فإنها تكون عادةً أبطأ من زوجها في الوصول؛ وذلك بسبب الكبت الذي تعانيه أكثر من زوجها، ووجد أن في الزوجات غير المكبوتات فإن المرأة قادرة على الوصول إلى الأورجازم عدة مرات (من ٤ إلى ٢٠ مرة) في الوقت الذي يقذف فيه زوجها مرة واحدة فقط.

ووجد العلماء أن الاستجابة الجنسية تعتمد على ثلاثة عوامل:

(١) نوع المؤثر وقوته.
(٢) القدرة الجسمية والنفسية.
(٣) نوع التجرِبة السابقة والقيود الاجتماعية السابقة.

وقد وُجد أن أهم العوامل هي نوع التجارِب السابقة، ثُمَّ نوع الرجل الذي مع المرأة، ثُمَّ القدرة الجسمية من حيث الجهاز العصبي والعضلي والدوري، وغير ذلك من النواحي الفسيولوجية والبيولوجية التي قد تساعد المرأة أكثر على الوصول إلى الأورجازم.

وقد وجد كينزي أن ٢٤٪ من الزوجات الأمريكيات يمارسن الجنس خارج الزواج من أجل الحصول على الأورجازم. وتختلف قدرات النساء على الوصول إلى الأورجازم، وهناك بيانات عن أطفال بنات سن ٤ شهور وصلن إلى الأورجازم، وهناك نساء لم يصلن إلى الأورجازم حتى سن ٥٠ سنة ثُمَّ وصلن بعد ذلك، وهناك نساء يصلن عدة مرات في كل اتصال جنسي. وقد وُجد أن المرأة حتى سن ٩٠ سنة تستجيب للجنس يعرفن الأورجازم، لكن الكبت والضغوط تجعل معظم النساء لا يعرفن الأورجازم إلا نادرًا، (والأطفال الذكور يصلون إلى الأورجازم ولكن دون قذف؛ لأن غدة البروتستاتا لا تكون قد أفرزت بعد).

ومن المعروف علميًّا أن تجويف المهبل عند المرأة (كتجويف الأمعاء الغليظة) فقير جِدًّا في الأعصاب الحساسة للمس، بعكس البظر والشفرتين الداخليتين. وقد أخطأ بعض علماء

النفس حين ابتدعوا ذلك الاصطلاح وهو الأورجازم المهبلي، وهو الأورجازم الذي تشعر به المرأة فقط حين يكون العضو الذكري داخل المهبل، واعتبروه أورجازم المرأة الناضجة. وقد أدرك فرويد أن البظر حساس في البنت، والمهبل غير حساس عندها، ولكنه قال إن نضوج المرأة الجنسي معناه انتقال الإحساس من البظر إلى المهبل ونمو الإحساس في المهبل، لكن ليس هناك في علم التشريح ما يثبت صحة ذلك التحول في الإحساس، والأعصاب لا تنمو في المهبل حين تكبر البنت، ومن المستحيل أن تنزرع أعصاب جديدة فجائية في البنت بمجرد أن تصبح زوجة أو امرأة.

وقد كتب فرويد سنة ١٩٣٣ (ص١٦١): «إن البظر عند البنت (في المرحلة البظرية) يسيطر على المنطقة الحساسة، لكنه لا يستمر كذلك؛ فإنه بالتحول نحو الأنوثة فإن البظر يعطي للمهبل حساسيته.»

وحيث إن هذا التحول مستحيل عُضويًّا، وليس له أي دليل تشريحي عن انتقال الأعصاب من البظر إلى المهبل، فإن التبرير الوحيد الغامض الذي ساقه فرويد هو أن هذا التحول يحدث نفسيًّا، ولكن السؤال الآن: كيف يصبح عضو بدون أعصاب حسَّاس نفسيًّا؟!

وفي نظرية التحليل النفسي بقيادة فرويد فإن المرأة التي لا يحدث لها تلك الأعجوبة النفسية (التي بغير أساس تشريحي أو فسيولوجي)، فإنها تصبح امرأة مُصابة بالبرود الجنسي (ص٢٧٨).

ويكتب فرويد (١٩٣٥): «في هؤلاء النساء الباردات جنسيًّا فإن البظر يعاند ويحتفظ بحساسيته.»

ويكتب آخرون يقولون: «البرود الجنسي معناه أن المرأة تعجِز عن الحصول على الأورجازم المهبلي.» ويكتب أبراهام يقول: «في حالة البرود الجنسي فإن البظر يظل مبعث الإحساس الجنسي، أمَّا المهبل فلا يكون.»

وقد ثبت خطأ هذه الفكرة من أساسها؛ لأنه في الأورجازم تتدخل أجزاء متعددة من الجهاز العصبي وجميع أعضاء الجسم التي يتحكم فيها الجهاز العصبي، وفي بعض النساء تكون الانقباضات العضلية المصاحبة للأورجازم عنيفة وفي جميع أجزاء الجسم، وتستمر مدة طويلة، وفي بعض النساء تكون أقل قوة وأقصر مدة، وفي هؤلاء النساء اللائي يحدث لهن الانقباضات في كل الجسم، فإن انقباضات المهبل تكون قوية جدًّا، والأخريات اللائي يحدث لهن انقباضات ضعيفة تكون انقباضات المهبل ضعيفة، وهذا كله لا علاقة

له بالنضوج. ليس هناك ما يثبت علميًّا أن المهبل يستجيب وحده كعضو منفصل عن بقية أعضاء الجسم، أمَّا أن تشعر المرأة أو الرجل بالرضا النفسي أكثر حين تشتد انقباضات المهبل فهذا شيء نفسي بحت ولا علاقة له بما يحدث في الجسم حقيقة، وكم ضاع وقت أطباء النفس من أجل علاج النساء المُصابات بالبرود الجنسي لكي يحوِّلوا الاستجابة البظرية إلى استجابة مهبلية دون جدوى، وكم اضطربت النساء نفسيًّا وعصبيًّا لعجزهن عن تحقيق هذه الأعجوبة المستحيلة بيولوجيًّا وتشريحيًّا وفسيولوجيًّا.

ومن الأخطاء الشائعة أيضًا أن ثدي المرأة وحدها هو الحساس للمس والإثارة الجنسية، ولكن عددًا من العلماء وجدوا أن ثدي الرجل أيضًا حساس للمس والإثارة الجنسية، ولكن بسبب المحظورات الاجتماعية إيجابية المرأة في الجنس ولصغر حجم ثدي الرجل فلم يُعرَف أنه حساس للمس إلا في بعض حالات الاتصال الجنسي بين الرجل والرجل؛ وهذا ليس بسبب اختلاف أحاسيس هؤلاء الرجال عن الآخرين من الرجال الذين يُفضِّلون الجنس مع المرأة، ولكنه بسبب أن قليلًا من النساء من يحاولن لمس ثدي الرجل أو إثارته، ولكن هذه الإثارة تحدث مع زميله الرجل أكثر من المرأة، ويُعرَف أن الثدي عند الرجل حساس أيضًا.

وقد وجد العلماء أيضًا أنه بسبب المحظورات الاجتماعية على لذة المرأة الجنسية، ولصغر حجم البظر عند المرأة، فلم يعرف الرجال أنه أشد حساسية من المهبل، لكنه وُجد أن النساء اللائي يمارسن الجنس مع النساء يركزن على البظر؛ وليس ذلك بسبب اختلاف أحاسيس هؤلاء النساء عن الأخريات اللائي يفضلن الجنس مع الرجل، ولكنه بسبب أن قليلًا من الرجال من يفهم أهمية البظر وأهمية إثارته، لكن هذه الإثارة البظرية تحدث مع زميلتها المرأة التي تفهم جسم المرأة أكثر مما يفهمه الرجل، وكذلك تحدث الإثارة البظرية في العادة السرية عند المرأة لأنها تفهم جسمها.

وبمقارنة الرجال والنساء توصل علماء الجنس إلى النتائج الآتية:

(١) في الجنسين بالتساوي تلعب نهايات الأعصاب في الجسم الدور الأساسي في الإثارة الجنسية، وهي موجودة وموزعة في أعضاء الجسم عند الذكر والأنثى بالتساوي؛ ولهذا ليس هنا ما يثبت أن هناك فروقًا بين حساسية جسم المرأة والرجل للجنس في جميع أعضاء الجسم المتشابهة والمناطق المتشابهة.

(٢) أعضاء المرأة والرجل الجنسية أصلها التشريحي واحد، ولها الوظائف نفسها تقريبًا والأحاسيس. إن عضو الذكر (رغم كبر حجمه) لم يُعرَف عنه علميًّا أنه أكثر ثراءً بنهايات

الأعصاب من البظر الأصغر حجمًا، وهما على نفس الأهمية من الحساسية للإثارة الجنسية، لكن كبر حجم العضو عند الذكر قد يكون له تأثير نفسي، وأيضًا قد يتلقى تأثيرات مباشرة (أكثر من البظر) بسبب بروزه خارج الجسم.

(٣) الشفرتان الداخليتان وفتحة المهبل مناطق حساسة في المرأة لا يقابلها مناطق مثلها عند الرجل، وهذا يزيد من حساسية المرأة ويعوضها عن كبر عضو الرجل.

(٤) إن كِبَر حجم عضو الرجل ووجود تجويف للمهبل عوامل قد تساعد على تحديد دور كل جنس أثناء العملية، المرأة قد تجد راحة نفسية في تلقي عضو الرجل داخل المهبل، والرجل يشعر براحة نفسية من قدرته على ذلك، ولكن هذا لا يفسر إيجابية أو عدوانية الرجل وسلبية المرأة، فلا يوجد في الفروق التشريحية والفسيولوجية للذكور والأنثى ما يجعل الذكر أكثر عدوانية من الأنثى أثناء الجنس، إن هذه العدوانية اجتماعية وثقافية ونفسية، وليس لها أي أسباب داخل جسم الإنسان، وليس هناك ما يثبتها علميًّا في التشريح أو الفسيولوجيا أو البيولوجيا.

(٥) مهبل المرأة ليس له مقابل عند الرجل، ولكن أهميته قليلة جدًّا في الجنس، إنه قد يثير الرجل، ولكنه لا يلعب دورًا في إثارة المرأة.

(٦) مناطق الجسم المختلفة في الرجل والمرأة متساوية الحساسية، وتغذيها الأعصاب نفسها عددًا وكميةً، والثدي أيضًا متساوي الحساسية في الجنسين، ولا توجد فروق في الأحاسيس السطحية أو العميقة لأي عضو أو منطقة في جسم المرأة تختلف عن جسم الرجل.

(٧) ليس هناك ما يثبت وجود فروق في استجابات الرجل أو المرأة تجاه البصر أو الشم أو السمع أو التذوق.

(٨) لا توجد فروق بين الرجل والمرأة تشريحيًّا وفي الوظائف الأساسية للجنس.

(٩) الرحم عند المرأة ليس له مقابل عند الرجل، وليس له أهمية في الجنس كالمهبل، ولكنه العضو الذي ينمو فيه الجنين حتى الولادة.

وقد وُجد أن القيم الاجتماعية الصارمة والخوف من عقاب المجتمع يفعل عند الإنسان ما يفعله الألم العضوي عند الحيوان؛ فتبتعد المرأة عن الرجل خوفًا من المجتمع مثلما يبتعد الحيوان عن شعلة من النار أو فخ مؤلم، إن معظم الاستجابات العكسية استجابات تعلمها الحيوان والإنسان من خبراته السابقة، وهي لا تمثل الاستجابة الطبيعية.

إن ابتعاد المرأة عن الرجل أو البرود الجنسي أو عدم صحة العلاقة بين الأزواج والزوجات ليست إلا نتيجة التشويه الاجتماعي للاستجابات الطبيعية في كلا الجنسين.

إن الجنس في الإنسان إنساني، من أجل الحب واللذة والسعادة الجنسية، وليس من أجل التناسل فحسب، لكن التربية الخاطئة والتعليم الخاطئ بسبب ما سُمِّيَ في الفسيولوجيا وعلم النفس بالارتباط الشرطي Conditioning.

إن من خصائص المادة الحياة أنها تتكيف وتكيف نفسها حسب التجرِبة والخبرة السابقة في جميع مراحل العمر منذ الولادة حتى الممات. وقد ركز «فرويد» على خبرة الطفولة، لكنه ثبت أن خبرة المراحل الأخرى كالمراهقة والشباب لا تقل أهمية عن خبرة الطفولة.

ولا شك أن الإنسان أكثر قدرة على التعليم والتكيف من الثدييات الأخرى بسبب تطور فص المخ الأمامي عند الإنسان. إن الإنسان أو الحيوان لا يتعلم وظائف الفسيولوجية، ولكنه يولد بها، ولكن عملية التعليم هي التي تشكل العلاقات الجنسية بين البشر.

وعملية التعلم تتكون من: التجرِبة السابقة، مشاركة الآخرين عند سماع تجارِبهم، العقاب أو اللذة الناتجة، نظرة المجتمع، الأشياء المصاحبة للتجارِب الجنسية، الأصوات، الروائح، الأشكال، حركات معينة، كل ذلك قد يصبح أقوى من المؤثر الجنسي المباشر.

ومن هنا خطر التعليم الخاطئ وخطر التجارِب السيئة السابقة وخطر التخويف والعقاب، وخطر تعليم الأطفال الكذب وإخفاء الحقائق، وخطر تعويد الشباب على التلصص وسرقة اللذة الجنسية، ثُمَّ الوقوع بعد ذلك فريسة العذاب النفسي والإحساس بالذنب خاصة عند البنات والنساء، اللائي يفرض المجتمع عليهن قيودًا لا يفرضها على الرجال.

هل المرأة تعشق التعذيب

برغم تلك المكانة الرفيعة والسيادة الاجتماعية والجنسية التي كانت تتمتع بها المرأة البدائية، إلا أن الحضارة الذكورية صوَّرت لنا العكس دائمًا، وانطبعت في أذهاننا تلك الصورة عن الرجل البدائي العنيف الذي يشد المرأة من شعرها إلى داخل الكهف ثُمَّ يغتصبها. وقد امتلأت الثقافة الذكورية بصور متعددة ومتنوعة من هذا الاغتصاب، وانتشرت في الأدب والفن وأجهزة الإعلام والأفلام والصور الملونة إلى حد أن جعلوا الاغتصاب حلمًا يراود الفتاة المراهقة في أحلامها، ويصبح هو واللذة الجنسية جزءًا لا يتجزأ.

وقد حاول «فرويد» ومعظم زملائه من أعضاء نظرية التحليل النفسي أن يبحثوا عن سبب هذه الظاهرة في الفروق التشريحية بين أعضاء المرأة والرجل، وخرجوا بالنظرية التي تقول: إن المرأة بطبيعتها الأنثوية تعشق تعذيب الرجل لها، وأن «الماسوشية» إحدى الصفات الأساسية للأنوثة المكتملة. وهكذا لم يختلف هؤلاء العلماء عن كهنة العصور الوسطى حين جهلوا الميكروبات، واعتقدوا أن الذي يسبب الأمراض هو سحر الساحرات من النساء؛ لأن المرأة بطبيعتها الجنسية تميل إلى الشر ولها صلة وثيقة بالشيطان.

ومن المهم هنا أن ألخص نظرية التحليل النفسي فيما يتعلق بما سمَّته ماسوشية المرأة. قال هؤلاء العلماء أعضاء هذه النظرية: إن الرغبة في الإشباع الجنسي عند المرأة، وفي إشباع الأمومة أيضًا، لها طبيعة ماسوشية؛ وذلك لأن الخيالات الجنسية التي تتخيلها الطفلة الصغيرة مع أبيها هي خيالات تنطوي على الرغبة في الإخصاء بواسطة الأب. إن دم الحيض في الأنثى يكتنفه المعنى الخفي بتلك الخبرة الماسوشية، وإن ما ترغبه المرأة «سريًّا» في العملية الجنسية إنما هو الاغتصاب والعنف في المجال الجنسي، أو المهانة والإذلال في المجال النفسي، وإن عملية الولادة المؤلمة تمنحها نوعًا من الرضا الماسوشي غير الواعي،

وكذلك أيضًا علاقتها الأمومية بطفلها. إن بعض الرجال أيضًا يمارسون الماسوشية في الخيالات أو في الواقع؛ فهذا ليس إلا لرغبتها في أن يلعبوا دور الأنثى.

وبرغم تناقض هذه الأفكار مع كثير من الظواهر والحقائق التاريخية والبيولوجية في حياة الإنسان، فإن عددًا من أعضاء نظرية التحليل النفسي أخذوها كقضية مسلَّمة، وبدءوا يبحثون عن أسباب ماسوشية المرأة في خلاياها وفي هرموناتها وفي الكروموسومات داخل خلاياها وغير ذلك. وأحد هؤلاء العلماء امرأة هي «هيلين دوتيش»، تسلمت وجهة نظر الرجل في المرأة كحقيقة علمية، وراحت تبحث التفصيلات دون أن تُناقض الجوهر. وتصورت هيلين دوتيش أن ماسوشية المرأة ترجع إلى عوامل بيولوجية وراثية، وأن هناك عاملًا جينيًّا genetic في الموضوع. وأيَّد هذه الفكرة أيضًا بعض العلماء، ومنهم «ساندر رادو» الذي أشار إلى وجود عامل جيني في المرأة يدفع بتطورها الجنسي نحو الماسوشية. ويرتكز هؤلاء العلماء في نظريتهم عن الماسوشية في المرأة على الفكرة الثابتة لديهم بأن الطفل البنت تصيبها صدمة قوية في أول حياتها حين تكتشف غياب عضو الذكر من جسمها. كيف تكونت هذه الفكرة لديهم؟ لقد تكونت لأنهم لاحظوا أن الخيالات التي تتخيلها النساء العصابيات (المريضات بالعصاب neurotic) تنطوي على رغبة في الحصول على عضو الذكر، وأن الطفلة البنت أيضا تظهر رغبتها في الحصول على هذا العضو.

ولم يسأل هؤلاء العلماء هل هذه الرغبة للحصول على عضو الذكر موجودة عند النساء غير المريضات بالعُصاب. وليس هناك ردٌّ على هذا السؤال؛ لأن بحوث هؤلاء العلماء النفسيين لم تكن إلا عن الحالات العُصابية. والسؤال الثاني أيضًا هو هل هذه الرغبة للحصول على عضو الذكر متساوية عند كل النساء وفي كل العصور وفي مختلف الظروف الاجتماعية والثقافية؟ وهل كانت المرأة ذات السيادة والمكانة الاجتماعية الرفيعة، والتي كانت تنسب أطفالها إليها وتتحكم في جميع أمور حياتها، ومن بينها علاقتها بالرجل، هل كانت هذه المرأة ترغب في الحصول على عضو الذكر؟ وفي غياب الردود على هذه الأسئلة لا يمكن لأي عقل علمي أن يقول: إن هذه الرغبة في المرأة جزء من طبيعتها، أو أساس تطورها الجنسي الذي آمن به هؤلاء العلماء، والذين تجاهلوا بعض الملاحظات الهامة في الطفلة البنت، وفسَّروها تفسيرًا مُلتويًّا من أجل أن تتفق مع نظريتهم.

مثال ذلك أنهم لاحظوا أن البظر عند البنت الصغيرة له نشاط جنسي إيجابي وسادي أيضًا (أي عدواني على نقيض الماسوشية)، يشبه تمامًا نشاط عضو الذكر في الطفل الذكر، وأنها تجد في ممارسة العادة السرية اللذة والأورجازم نفسه الذي يجده الذكر، ولم يكن

أمامَهم إزاءَ هذه الحقيقة سوى حلين، إمَّا أن يعتبروا هذا البظر عضوًا ذكريًّا نبت خطأ في جسم الأنثى، أو يعتبروا أن المرحلة البظرية السادية عند البنت تنحرف لأسباب ما بيولوجية (لم يفكروا بالأسباب الاجتماعية والثقافية) لتأخذ طريقها الأنثوي نحو النضوج، أي نحو الماسوشية. وقد جمعت نظرية التحليل النفسي بين هذين الحلين. وتقول هيلين دوتيش ما يأتي: إن هذا النشاط الجنسي العدواني «السادي» للبظر يصطدم بذلك المتراس داخل نفس البنت، وهو اكتشافها لنقص في جسمها بسبب غياب عضو الذكر … ولهذا فإنه ينحرف دائمًا في اتجاه «نكوصي» تراجعي نحو الماسوشية … وإن هذا النكوص نحو الماسوشية جزء من مصير المرأة التشريحي. وقد كان الاعتقاد الفرويدي السائد حينئذٍ أن الفروق التشريحية هي التي تحدد مصير الإنسان.

وقد وقع أصحاب هذه النظرية في خطأ بيولوجي كبير، فكيف لعضو من أعضاء الجسم (البظر) أن يكون له نشاط جنسي بيولوجي عدواني سادي، ثُمَّ إذا به ينحرف داخليًّا أو نفسيًّا ليصبح ماسوشيًّا، وليفقد نشاطه الإيجابي أيضًا ويصبح سلبيًّا؟ وقد حاولت هيلين دوتيش أن تدرس كما أسمته «الطبيعة الأنثوية السلبية الماسوشية» في حياة المرأة النفسية، وقد أكَّدت أن الماسوشية هي القوة الفطرية الأولى في حياة المرأة النفسية، واعتقد بعض العلماء الفرويديين الآخرين أن النرجسية هي الصفة النفسية الطبيعية للمرأة، وقالوا: إن البنت الطفلة حين تكتشف غياب عضو الذكر من جسمها تصيبها صدمة نرجسية narcissistic shock، وتشعر بالألم؛ لأنها تتصور أن الذكر يحصل من ممارسة العادة السرية على لذة أكثر منها، وأن هذا الألم يكون شديدًا إلى حد أنه يحطم كل اللذة التي تحصل عليها البنت من العادة السرية؛ فتكف عن ممارستها.

وقد أثارت هذه الفكرة غير المنطقية دهشة العلماء من ذوي المنطق والذين نقدوا هذه الأفكار بشدة، وأحد هؤلاء هي «كارين هورني»، التي رغم عضويتها لنظرية التحليل النفسي إلا أنها صاحت في دهشة: «وكيف يمكن أن نطبق هذه الفكرة في الحياة اليومية؟! إنها تشبه حالة الرجل الذي يعتقد أن «جريتا جاربو» أكثر جاذبيةً من النساء الأخريات، ولكنه لا يجد الفرصة لمقابلتها، وإنه إزاء «اكتشافه» لجاذبيتها المتفوقة يفقد كل لذة في الاتصال بأية امرأة أخرى يمكنه الاتصال بها.»

ولكن كيف تكون الماسوشية عند المرأة؟ يقول «راديو»: «إن الألم النفسي الشديد الذي يحدث للبنت الصغيرة حين تكتشف غياب عضو الذكر يثيرها جنسيًّا، وهذه الإثارة الجنسية تعوضها عن النقص الذي شعرت به، ولكن حيث إنها حُرمت من الوسائل

الطبيعية للإشباع فلا يصبح أمامها إلا طريق واحد للإشباع الجنسي، وهو العذاب، وهكذا تصبح رغبتها الجنسية ماسوشية، وتستمر على هذا النحو طوال حياتها.»

وتنقد كارين هورني بذكاء هذا التسلسل غير المنطقي لهذه الأفكار وتتساءل: كيف يمكن للألم أن يثير البنت جنسيًّا؟ وإذا كان الألم يسبب إثارة جنسية ماسوشية، فلماذا لا يصبح الولد الذكر ماسوشيًّا أيضًا؟ فإن كل الأولاد الذكور يرَوْنَ أن أعضاءهم الجنسية أصغر حجمًا من أعضاء آبائهم الكبار (كما ترى البنت أن بظرها أصغر من عضو أخيها)؛ وعلى هذا فإن هذا الأب يحصل على لذة أكثر منهم، وعلى هذا فإن الألم الناتج عن هذا الاكتشاف يفسد لذة الولد في العادة السرية، فيكف عنها ويشعر بالألم، وهذا الألم يثيره جنسيًّا ويجد فيه تعويضًا، وبهذا تصبح رغبته الجنسية ماسوشية.

لكن هذا التساؤل لم يخطر ببال هؤلاء العلماء الفرويديين؛ لأن أسلوب تفكيرهم فيما يتعلق بسيكلوجية الأنثى يختلف عن أسلوبهم فيما يتعلق بسيكلوجية الذكر؛ وهذا يكشف أنهم لم يسلكوا المنهج العلمي الصحيح في تفكيرهم الخاص بالمرأة، وأنهم لم يحاولوا فهم طبيعتها الحقة، وإنما صنعوا للمرأة طبيعة جديدة تتفق مع وجدانهم الذكري، الذي ورث عن أجدادهم فكرة أن الرجل شيء والمرأة شيء آخر أو جنس آخر، له صفات أدنى وأقل، ولا يخضع إلا بالضرب والتعذيب؛ وعلى هذا فلا بدَّ أن يُفرَض هذا الضرب وهذا التعذيب كرغبة طبيعية في المرأة، وإذا قالت المرأة إنها لا تحب الضرب ولا التعذيب، قالوا لأن هذه الرغبة سرية (أي مدفونة في عقلها الباطن أو اللاوعي)، وإذا قالت المرأة إنها لا تحب الضرب ولا التعذيب لا علنًا ولا سرًّا، قالوا لأنها مريضة نفسيًّا أو منحرفة، أو بسبب عقدة الحسد وكراهية الرجال الدفينة فيها بسبب غياب عضو الذكر من جسمها، وإلا فكيف يمكن لهذه المرأة الشاذة ألا تحب التعذيب وترفض أنوثتها وماسوشيتها الطبيعية؟!

لا يمكن لأي عقل علمي محايد أن يقتنع بأن الماسوشية جزء من طبيعة المرأة إلا إذا عملت الدراسات العلمية التي تجيب على هذه الأسئلة:

(١) ما هي نسبة أساليب الضغط والقمع والإيلام والتعذيب التي تواجهها النساء في مختلف الظروف الاجتماعية والثقافية؟

(٢) ما هي نسبة الماسوشية في كل من النساء والرجال في مختلف الظروف الاجتماعية والثقافية؟

وقد عرفنا من الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة أن المرأة بيولوجيًّا تتمتع بقدرة جنسية ضخمة، وأنه لم يكن في إمكان الرجل أن ينشئ أسرته الأبوية بغير قوانين صارمة

تقمع قوة المرأة البيولوجية، وتفرض عليها رجلًا واحدًا من أجل أن يعرف هذا الرجل أنه الأب الحقيقي للأطفال؛ فينسبهم إليه ويورثهم الأرض، وبسبب قوة المرأة وقدرتها اللامحدودة فقد استلزم هذا القمع وسائل متعددة من التعذيب الشديد حتى القتل لكل من وسوس لها الشيطان وخرجت عن النظم الأبوية وقوانين الأسرة.

وكان أحد وسائل القمع هي أن تُجرد المرأة لا من قدرتها البيولوجية فحسب، وإنما أيضًا من قدرتها الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وأن تصبح حياتها تعتمد في كل شيء على الرجل. وهكذا حُرمت المرأة من حقها في أن تعمل فقط داخل البيت (من أجل خدمة الرجل والأطفال)، وبغير أجر، حتى تظل عالة على الرجل دائمًا، ولا تجد لنفسها مأوًى غيره، ولا سبيل للخلاص مهما لاقت من زوجها الهوان والإذلال.

وجُرِّدَت المرأة أيضًا من كثير من حقوقها الاجتماعية والأخلاقية، وضيَّقوا الخناق عليها حتى لم يعُدْ في إمكان المرأة أن تعيش في المجتمع إلا في كنَف رجل؛ ليَعولَها اقتصاديًّا وليحميَها اجتماعيًّا، وليعطيَها الشرف الذي يمتلكه وحده، ولا يمكن لها أن تكون امرأة شريفة إلا إذا اقترنت برجل، ومعنى هذا لا بدَّ لها أن تصبح زوجة، ومعنى هذا أن تصبح خاضعة لقانون الزواج الذي وضعه الرجل، والذي في ظله يقودها زوجها إلى السجن أو العذاب أو الموت إذا خانته بل إذا خالفته الرأي.

ووجدت المرأة نفسها في وضع يفرض عليها الاحتفال بزوجها بأي شكل ومهما كان، حتى وإن كان سِكِّيرًا عربيدًا وزير نساء وله وجه قرد، ويضربها كلَّ يوم بالسوط. إنها تحاول الاحتفاظ به رغم كل هذا، وتخشى أن يتركها ويذهب إلى امرأة أخرى؛ ولهذا فإن المرأة تشعر بما يُسمَّى «الغيرة» أكثر مما يشعر بها الرجل. وقد لاحظ فرويد هذه الصفة في النساء، فقال: إن الغيرة في المرأة كالماسوشية جزء من طبيعتها بسبب الفروق التشريحية بينها وبين الرجل، وبسبب عقدة الحسد وعقدة الإخصاء ... إلخ.

لكن «غيرة» المرأة على زوجها ليست إلا محاولة واعية منها للاحتفاظ بذلك الزوج، الذي لو تركها فقد انتهت حياتها الاقتصادية والاجتماعية والجنسية والأخلاقية؛ لأنها خارج الزواج لا تستطيع أن تعيش اقتصاديًّا، ولا تستطيع أن تُرضيَ رغبتها الجنسية، وإذا تشجعت ومارست الجنس خارج الزواج فإنها لا تستطيع أن تنسب طفلها إليها، وعليها أن تقبل الموت أو العار أو العذاب، أو تعود مرة أخرى إلى جحيم أشد خارج الزواج؛ فهي تفضل الجحيم داخل الزواج ...

ويلتقط فرويد (وزملاؤه) هذه العبارة (المرأة تفضل الجحيم ...) فلا يحاولون أن يعرفوا أول القصة، بل يحاولون أن يعرفوا آخرها أيضًا، وهي كلمة «داخل الزواج» التي

تكمل العبارة، لكنهم رغم كونهم علماء، والعلم يفرض على العلماء تقصي الحقائق من أولها إلى آخرهم، رغم ذلك فإنهم يكتفون بذلك الجزء الصغير من القصة الطويلة، ويخرجون بنظرية علمية تقول: «إنه حيث إن المرأة تفضل الجحيم؛ فمعنى ذلك أنها تفضل العذاب؛ فمعنى ذلك أنها تعشق الألم؛ فمعنى ذلك أنها ماسوشية. وهذه الماسوشية من أين جاءت؟ من أين جاءت؟ آه! لا بدَّ أنها جاءت من عقدة الحسد الذي تُكِنُّه المرأة للرجل بسبب امتلاكه العضو الذكري.»

غضب المرأة ومرض الاكتئاب

خُدعت المرأة في العصر الحديث أكثر مما خُدعت في العصور القديمة؛ ذلك أن حقيقة وضعها الأدنى وسلبها من حقوقها أصبح مغلَّفًا بالاحترام الظاهري، والإتيكيت والمعاملة الرقيقة أمام الناس؛ وبسبب هذا الغلاف الخارجي لم ترَ المرأة أن وضعها لا زال هو الأدنى، وأن زوجها وإن كان يفتح لها باب العربة أو يجعلها تدخل من الباب قبله فهو لا زال الوصي عليها (كما لو كانت طفلًا قاصرًا) بحكم قانون الزواج، ولا زال من حقه أن يعاشر أي امرأة يشتهيها، ويتزوج غيرها في أي وقت، ويطلقها في أي وقت، ويتحكم في دخولها وخروجها وسفرها وجسدها وكل شيء. أمَّا هي فلا تستطيع أن تفعل أي شيء من هذا، وليس لها أن ترفض أو تتذمر وإنما تطيع وتستكين وتهدأ؛ لأن الطاعة والاستكانة والهدوء صفات الأنوثة الكاملة، أمَّا الرفض والتذمر فهي صفات ذكرية عدوانية تُسيء إليها في نظر الناس، وتشوه أنوثتها، وتجعلها من هؤلاء النساء غير الطبيعيات أو المريضات نفسيًّا؛ ولهذا السبب تستكين معظم النساء، ويكبتن في أعماقهن الكراهية للرجال وللحياة ولكل شيء بما في ذلك أنفسهن، وبسبب كراهية أنفسهن فإنهن يكرهن النساء الأخريات أيضًا، وبالذات أولئك النساء اللائي يكشفن الظلم الواقع عليهن، فكأنهن يكشفن عن الجرح العميق المؤلم الذي ينزف كل يوم وببطء. وبسبب الألم والذعر والكراهية تمقت معظم النساء أولئك القلة القليلة من بنات جنسهن اللائي يرفضن الظلم ويحاولن الإصلاح، أو ينادين بالمساواة والحرية للمرأة.

وإنها لقصة قديمة معروفة في التاريخ، فأصحاب السلطة متى حصلوا على السلطة فليسوا على استعداد أبدًا للتفريط فيها إلا بالقوة والضغط المفروض عليهم من ثورة المحكومين والمظلومين. ولم تمثل النساء أبدًا تلك القوة الثورية التي يمكن بها أن تفرض على الرجال رفع الوصايا عنهن. لماذا لم يصبح النساء قوة ثورية في أي مجتمع من المجتمعات

الأبوية الحديثة رغم شدة الظلم الواقع عليهن؟! لماذا لم تصبح النساء قوة رافضة وغاضبة وثائرة؟ ... السبب في ذلك ليس هو أن النساء سعيدات راضيات بحياتهن وألمهن، وليس هو أن النساء بطبيعتهن سلبيات عاجزات عن التغيير؛ ولكن السبب الحقيقي هو أن القهر الذي وقع على المرأة لم يكن قهرًا قانونيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وجسديًّا فحسب، ولكنه كان قهرًا نفسيًّا أيضًا.

ويتمثل القهر النفسي في أن المرأة (عن طريق علماء النفس الرجال من أمثال فرويد) عجزت عن الغضب، والغضب عند الإنسان ثلاث مراحل:

(١) أن يشعر الإنسان بالإساءة.

(٢) أن يكره الإنسان الشخص الذي أساء إليه.

(٣) أن يعبر الإنسان عن كراهيته بفعل خارجي أو عدواني ضد ذلك الشخص الذي أساء إليه.

إن الثورة ليست إلا هذا الغضب بصورة جماعية يشترك فيها أغلبية المظلومين أو المقهورين، لكن النساء عجزوا عن الغضب، والسبب في عجزهم عن الغضب ليس لأن النساء بطبيعتهن البيولوجية لا يغضبن، لكن السبب هو أن الرجل حين قهر المرأة لم يسلب منها النسب والشرف فحسب، ولكنه سلب منها الغضب أيضًا، وجعل الغضب من نصيب الرجال، والغضب صفة الذكورة، أمَّا الأنوثة فمعناها أن تظل المرأة باسمة مهما حدث لها. إن المرأة التي لا تبتسم دائمًا يُشكُّ في أنوثتها ورقتها ودعتها، أمَّا المرأة التي تكشر أو تقطب جبينها فهي ليست امرأة. إن التكشيرة أو التقطيبة يجب ألا تظهر على وجه الأنثى، وتتعلم البنت الصغيرة أن تبتسم، وأن يشرق وجهها بالابتسام دائمًا؛ فهذا يزيد من جمالها الأنثوي، أمَّا التكشيرة فهي تعطي وجه الرجل ذكورة ورجولة. وهكذا تعلمت المرأة كيف تخفي غضبها، وكيف حين يُساء إليها تكبت الكراهية في قلبها، وحين تتراكم الكراهية يومًا بعد يوم تتعلم كيف تكبتها أكثر وأكثر، وحين تضغط الكراهية على قلبها وصدرها وأحشائها وتكاد تخنقها فهي تفضل أن تختنق داخليًّا عن أن يخرج جزء من هذه الكراهية على شكل فعل خارجي أو عدواني. إن العدوانية أقبح صفة يمكن أن توصَف بها المرأة، وهي ليست صفة فحسب، إنها مرض أو شذوذ، وإذا أصبحت المرأة عدوانية فهي في حاجة إلى عقاب أو علاج نفسي، أو جلسات كهربية لتعود إلى طبيعتها الأولى الهادئة الراضية المكبوتة.

في مرة من المرات وكنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الطب (في السابعة عشرة من عمري تقريبًا)، حين ركبت الأتوبيس كعادتي يوميًّا لأعود إلى البيت، وبينما أنا واقفة في الأتوبيس أحسست برجل يلتصق بي من الخلف؛ فاستدرت ونظرت إليه ليخجل من نفسه، لكنه لم يخجل، فقلت له بصوت سمعه الآخرون أن يكف عن هذه التصرفات غير اللائقة، لكنه لم يكف، وغضبت، ومن شدة غضبي رفعت يدي وصفعته على وجهه صفعة قوية، وكنت في تلك اللحظة أتصرف التصرف الطبيعي لأي إنسان أُسيء إليه. وكنت أتصور أن راكبي الأتوبيس (وكان بعضهم رجال وبعضهم نساء) سوف يكونون معي ضد هذا الرجل، لكن العكس هو الذي حدث تمامًا، لقد حظيَ الرجل بشفقة الرجال وتآزرهم معهم، وقال أحدهم: «لماذا تخرج النساء من بيوتهن إذا لم يعجبهن هذا الحال؟!» وقال آخر: «لم نَرَ في حياتنا امرأة تضرب رجلًا، هذه إهانة لنا جميعًا.» وصوَّب إليَّ الرجالُ عيونهم مليئة بالكراهية والغضب، أمَّا النساء الراكبات فقد انضممن (لدهشتي الشديدة) إلى الرجال، وقالت واحدة منهن بصوت أنثوي ناعم: «كلنا مثلك واقفات في الأتوبيس، فلماذا أنت الوحيدة التي غضبت بهذا الشكل؟» ورد عليها رجل عجوز كان ملتصقًا بإحدى الراكبات: «ومن قال إنها مثلكن، تلك التي تضرب رجلًا، إنها رجل بغير شك!»

وحينما ذهبت إلى بيتي وحكيت لأمي ما حدث نصحتني بألا أصفعَ أي رجل، وأنه الأفضل لي أن أنزل من الأتوبيس وأن أذهب إلى الكلية سيرًا على الأقدام من الجيزة إلى القصر العيني. وتشاء الصدف أن يعود أخي في ذلك اليوم ويحكي لأمي عن أحد زملائه في المدرسة صفعه على وجهه فرد له الصفعة صفعتين وشلَّوتًا بالقدم، وصاحت أمي تشجعه: «برافو، لا بدَّ أن تضرب الذي يضربك وتنتصر عليه.»

وهذا هو ما يحدث دائمًا، إن البنت منذ صغرها تُدرَّب على ألا تغضب، ولا تعبر عن غضبها بفعل ظاهر، وعليها أن تتفادى الإساءة بقدر الإمكان، وإذا كانت هذه الإساءة قد فُرضت عليها بالزواج أو النظام أو القانون، فعليها أن تكتم غضبها وانفعالها وتبتسم لتكون أنثى كاملة، بعكس الرجل الذي يُربَّى على أن الرجولة هي القوة ورد الإساءة بأشد منها. إن الإنسان الطبيعي هو الذي ينفعل حين يُسيء إليه أحد، هذا الانفعال يُسمَّى بالكراهية، وهي في الإنسان السليم نفسيًّا توجه إلى الخارج كرد فعل، ولكنها عند المرأة تُكبَت، أو ينقلب مسارها إلى الداخل، إلى النفس؛ ولهذا تُصاب النساء (بالاكتئاب) أكثر من الرجال. إن «الاكتئاب» وليس «العدوانية» هو رد الفعل الأنثوي للتعبير عن الكراهية أو خيبة الأمل في شيء من الأشياء، هذا الاكتئاب ما كان ليحدث للمرأة لو أنها وجهت انفعالها

إلى الخارج كما يفعل معظم الرجال، ولكن الخارج هذا (بعبارة أخرى المجتمع) يرفض انفعالات المرأة الطبيعية سواء كانت كراهيةً أم حُبًّا، ويفرض عليها أن تكون مخلوقًا بغير انفعالات، إذا أساء إليها أحد وانفعلت بالكراهية عليها أن تكبت هذه الكراهية ولا تحولها إلى عدوان مماثل، وإلا اتُّهِمَت بالرجولة والانحراف عن المرأة الطبيعية.

المرأة الطبيعية إذن هي المرأة المكبوتة، ولا أريد أن أقول إن الرجل أيضًا لا يُكبَت، ولكن المجتمع بصفة عامة يسمح للرجال (خاصةً إذا كانوا من الطبقة العالية) بحريةٍ أكثر من النساء؛ وبذلك يتمتع الرجل بإمكانية التعبير عن انفعالاته، حُبًّا كانت أو كُرهًا، دون أن يتعرض للعقاب أو النقد الذي تتعرض له المرأة.

وقد أوضحت الدراسات الخاصة بسلوك الأطفال أن الأولاد الذكور يحوَّلون إلى العيادات النفسية بسبب ميولهم العدوانية ونزعتهم إلى التحطيم والتنافس، أمَّا البنات فيحوَّلن بسبب اضطرابات الشخصية مثل الخوف والخجل والجبن وعدم الثقة بالنفس والإحساس بالنقص، وكذلك الحال بالنسبة للكبار أيضًا.

إن أعراض الرجال تعكس في معظم الأحيان كراهية مدمرة للآخرين واستغراقًا وتعلُّقًا شديدًا بالذات، أمَّا أعراض النساء فهي تعكس نزعة قاسية لنقد الذات وإنكار الذات وتحطيمها.

وفي دراسة لزيجلر E. Zigler وفيليبس L. Philips قورنت الأعراض النفسية للرجال المرضى والنساء المريضات، ووُجد أن الرجال أكثر ميلًا للعدوان والنزوع إلى الدوافع المضادة للمجتمع مثل السرقة والاغتصاب، ووُجد أن المريضات من النساء يمِلْن إلى امتهان النفس والاكتئاب والحيرة والأفكار الانتحارية، أو الإقدام على الانتحار فعلًا.

معظم المريضات يعانين مما سُمِّيَ (بالأمراض النفسية الأنثوية) مثل الاكتئاب والبرود الجنسي وتسلط فكرة الاضطهاد؛ أي أن أعراض النساء عامة تندرج تحت عنوان «الخوف من السعادة»، وهو التعبير الذي استخدمه توماس زاز Thomas Szazs ليصف به أهم مميزات «علم النفس الخاص بالعبيد Slave psychology». إن الخوف من السعادة أو الخوف من الرضا أو الخوف من اللذة شيء لا يحدث للإنسان إلا في حالات الاضطهاد، مثل حالات العبيد والنساء، وكما يكبت العبد إحساسه الحقيقي عن سيده، تكبت المرأة إحساسها باللذة أو السعادة خوفًا من الزوج أو الأب أو بديلهما. وهناك وجه شبه بين نفسية المرأة ونفسية العبيد، ولا عجب في ذلك، فإن النساء أول مجموعة بشرية في التاريخ استُعبدت بمجموعة أخرى.

ولم يكن فرويد أبو علم النفس الحديث وصاحب الأفكار السائدة حتى الآن عن نفسية المرأة، لم يكن باحثًا في التاريخ ولا عالمًا من علماء الاجتماع، ولكنه كان طبيبًا نفسيًّا، مادته التي يبحث فيها هي النفس الإنسانية في حدودها المحدودة بجسد الإنسان يحدده التشريح، وحينما جاءته النساء بأعراض الاكتئاب Anatomy is destiny والخوف والإحساس بالنقص وامتهان النفس، تصور أن هذه هي خصائص سيكولوجية الأنثى، وأن الأنوثة هي الخضوع والسلبية والماسوشية، أو الرغبة في امتهان النفس وإيلامها. وورث أطباء النفس عن فرويد هذه الأفكار عن السيكولوجية الأنثوية، وأصبح الطبيب النفسي لا يرى المرأة كما هي، ولا يعرفها على حقيقتها، ولكنه يعكس عليها النظريات التي درسها عنها. وليست هذه المشكلة خاصة بالمرأة وحدها، ولكنها مشكلة في الطب النفسي كله؛ فإن الأخصائيين النفسيين الذين ينتمون إلى مدارس مختلفة سوف يفسِّرون الحلم نفسه الذي يحمله مريض ما تفسيرات مختلفة حسب النظرية والمدرسة التي ينتمون إليها.

لقد وُجد في معظم البحوث النفسية أن مرض الاكتئاب النفسي بين النساء منتشر بنسبة أكبر من الرجال، ومنتشر بين النساء المتزوجات أكثر من النساء غير المتزوجات. واتضح أن هذا الاكتئاب ليس إلا تلك الكراهية، المتراكمة المكبوتة التي توجهها المرأة إلى الداخل بدلًا من أن توجهها إلى الخارج على شكل فعل عدواني.

ووُجد أن هذه الكراهية حين توجهها المرأة إلى داخل نفسها فهي تشوه نفسها وتضعفها، وتجعلها أكثر عجزًا عن التعبير عنها؛ وبالتالي تتراكم الكراهية داخلها أكثر وأكثر، وتصبح المرأة أضعف فأضعف عن التعبير عنها، ويأتي يوم تنظر فيه المرأة إلى وجهها الباسم الهادئ في المرآة فإذا بها ترى في أعماقها ذلك الوجه الأسود المكفهر الطافح بالكراهية المتراكمة، وتذعر المرأة ذُعرًا شديدًا، وقد تكسر المرآة بيدها دون أن تدري. وحين يأخذها زوجها إلى الطبيب النفسي يدرك أنها كانت تريد أن تصفع وجه زوجها وليس وجه المرآة، وقد تحاول أن تصفع زوجها لتشفى من مرضها، وليزول عنها الاكتئاب إلى الأبد، لكن الطبيب النفسي يمنعها (الطبيب النفسي بالطبع رجل كزوجها)، وبدلًا من العلاج الصحيح يعطيها الطبيب أقراصًا مهدئةً وأقراصًا منومةً، وينصحها باحترام زوجها وطاعته. وهكذا تدور الدائرة، وتعيش معظم الزوجات في حالة من الاكتئاب شبه الدائم.

وقد أدركت أخيرًا لماذا كنت دائمًا أشعر بالحيرة حين أرى تلك الابتسامة الغريبة على وجوه معظم الزوجات، لم أكن أعرف سر غرابتها في عيني، ولكني أصبحت أفهمها الآن،

إنها تلك الابتسامة الحزينة، تلك الابتسامة الرقيقة التي تشف من تحتها الشقاء (الذي تدركه المرأة بوعي أو بغير وعي)؛ ولأنها متناقضة فهي تبدو أحيانًا مخيفةً، كوجه طفل باسم من تحته وجه عجوز مجعد.

وقد أدرك الطب النفسي الحديث أن علاج الاكتئاب لا يمكن أن يتحقق إلا بعلاج السبب الحقيقي فيه؛ أي بعلاج الكراهية المتراكمة داخل النفس، وتوجيهها إلى الخارج على شكل فعل.

لقد أصبح الطبيب النفسي المتنور الآن ينصح المرأة بالانفصال عن زوجها الذي تكرهه، والانفصال عن أي حياة تكرهها، والإقبال على الحياة التي تحبها والأشخاص الذين تحبهم وتختارهم. أصبح علاج الاكتئاب هو أن تغضب المرأة من الإساءة، أن تغضب علنًا لا سِرًّا، وتعلن عن غضبها بفعل قوي يراه الآخرون واضحًا أمام عيونهم، وإذا فتح الآخرون عيونهم في دهشة واستنكار وصاحوا: «هذه امرأة عدوانية فاقدة الأنوثة»، فلتفتح المرأة ذراعيها للشفاء في شجاعة وجرأة، ولتقل لنفسها: «مرحبًا بالصحة النفسية ولتذهب تلك الأنوثة إلى الجحيم.»

ولكن هل كل امرأة قادرة على الغضب، إلى الإساءة والانفصال عن زوجها الذي يُسيء إليها، أو اختيار الحياة أو الشخص الذي تريده؟

إن الاختيار والإرادة في حياة أي إنسان لا يمكن تحقيقها إلا إذا كان الإنسان مستقلًّا، واستقلال الإنسان له دعامتان: الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي، والاستقلال النفسي والعاطفي والشخصي، فإذا اعتمدت المرأة على الرجل (اقتصاديًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا وعاطفيًّا وشخصيًّا)، فلا يمكن لها بحال من الأحوال أن تفكر في الانفصال عنه؛ وعلى هذا فلا يمكن لها بحال من الأحوال أن تغضب إذا أساء إليها، وليس أمامها إلا كبت الغضب وتجميع الكراهية في أعماقها، وبمعنًى آخر ليس أمامَها إلا الاكتئاب النفسي كمرض لا شفاء لها منه إلا إذا كافحت من أجل أن تحصل على الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي والنفسي والعاطفي والشخصي، وحينئذٍ تستطيع أن تعلن عن غضبها، وتتخذ فعلًا قرارًا، وتغير حياتها الشقية بحياة أخرى أفضل.

المرأة والأنا العليا

كشفت الحقائق العلمية عن أن الإنسان — ذكرًا أو أنثى — له عقل يفكر، وله قدرات ذهنية تزداد أو تقل حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والتربوية التي يعيشها، وأن الفروق التشريحية بين الرجل والمرأة لا علاقة لها بالقدرات الذهنية لكل منهما، وأن الرجل العبد أو المستعبد يُظهر غباءً لا يقل عن غباء المرأة المستعبدة. وهناك أحدث المعلومات البيولوجية التي تقول إن المخ البشري في بداية تكوينه الجنيني داخل الرحم يكون أنثى، وأن مخ الرجل ليس في أصله إلا مخ أنثى، ثُمَّ حدثت له عملية تذكير طارئة بفعل الهرمون الذكري. والحال نفسه في الجنين كله الذي ينشأ أصلًا أنثى، وليس مزدوج الجنس، كما عُرف سابقًا في علم الأجنة.

ولا يمكن لأحد من العلماء حتى اليوم أن يدَّعي أنه وصل إلى فهم حقيقة المخ البشري أو عمليات مراكزه العليا، فلا يزال هذا المخ الصخرة العاتية التي تواجه الطب والعلم، هذا المخ الذي لا زال سِرًّا مُغلَقًا ولم يُعرَف من مفاتيحه إلا الشيء الضئيل.

وحيث إن «النفس» مركزها المخ، فلا زال فهم الإنسان «لنفسه» لا يزيد وضوحًا عن فهمه «لعقله»، وإن كان هذا التقسيم للإنسان كجسم وعقل ونفس ما هو إلا تقسيم نظري فحسب من أجل الدراسة والتخصص الدقيق، الذي يقود إلى معلومات أكثر وأوضح، وإن كان هذا التخصص الدقيق كالسيف له حدان؛ فهو يوضح بعض التفصيلات الدقيقة، لكنه يطمس المعنى الكلي الشامل، ويمزِّق الإنسان إلى علوم منفصلة، تزداد بينها المسافات كلما زاد العلم تقدُّمًا وزادت معه التخصصات. وهذا التمزيق والفصل بين العلوم قد يقود إلى جهل أشد بالإنسان ما لم يذكر المرء دائمًا أن الإنسان وحدة كاملة لا تتجزأ.

إن وحدة الإنسان (كحيوان اجتماعي) تتكون من الجسم والنفس (أو العقل) والمجتمع؛ ولهذا فإن النظرية العلمية الصحيحة للإنسان لا يمكن أن تتجاهل أثر المجتمع على الإنسان بمثل ما لا يمكنها أن تتجاهل أن له جسمًا أو له نفسًا أو عقلًا، وأن كل هذه العناصر تكون وحدة واحدة لا انفصام فيها.

إن الباحث (في أي علم من العلوم الإنسانية) الذي يتجاهل المجتمع في بحثه يصبح كمن يهبط فجأة فوق جزيرة من العبيد الأغوات (الذين بُترت خُصاهم بواسطة أسيادهم المماليك)، وحين يفحصهم ولا يجد الخُصيتين يصرخ قائلًا: إن كل العبيد يولَدون بغير خُصيتين، ويتصور أن هذه هي طبيعة العبيد.

ولا يمكن لأحد أن يقول: إن هذا الباحث قد أخطأ حين لاحظ ظاهرة اختفاء الخُصيتين عند هؤلاء العبيد، إن ملاحظته صادقة وحقيقية، ولكن الاستنتاج الذي خرج به من هذه الملاحظة هو الخطأ؛ لسبب بسيط، ذلك أنه لم يلاحظ القهر الواقع على العبيد من أسيادهم في المجتمع.

وقد فعل «فرويد» بالمرأة ما فعله هذا الباحث بالعبيد، لقد لاحظ «فرويد» أن النساء (في مجتمعه المحيط به) لا يظهرن الذكاء أو القدرات الذهنية بالشئون العامة في الحياة، وأنهن أقل طموحًا من الرجل، وأقل تعقُّلًا وأقل من الرجال في هذه النواحي الذهنية؛ لأن «الأنا العليا» عند المرأة أضعف من «الأنا العليا» عند الرجل. وسأله Superego: لماذا تكون الأنا العليا عند المرأة أضعف؟ قال: لأن البنت الصغيرة عادة لا تكبت عقدة أوديب، ولماذا لا تكبت البنت الصغيرة عقدة أوديب؟

فقال لأنها تدخل المرحلة الأوديبية بعد أن تقبل حقيقة كونها قد خُصيت (بسبب عدم وجود عضو الذكر في جسمها)؛ ولذا فهي لم تعد تشعر بالخوف الذي يدفعها إلى أن تكبت عقدة أوديب وإلى تكوين الأنا العليا. وقد انساق العلماء الآخرون (من أعضاء نظرية التحليل النفسي) مع تحليل فرويد هذا، واستنتجوا أن الأنا العليا عند النساء ضعيفة التكوين؛ ولهذا فإن ضمير النساء أضعف من ضمير الرجال، واعتقاداتهن الفكرية أضعف، ومبادئهن أضعف؛ ولذلك تميل المرأة دائمًا إلى تغيير رأيها واعتناق رأي الرجل زوجها، أو رأي أي رجل آخر تعتمد عليه في معيشتها.

وكم تبدو هذه الأفكار بعيدة كل البُعد عن العلم حين تصدر هكذا وحدها بمعزل عن الظروف الاجتماعية التي تدفع المرأة إلى تملق زوجها مثلًا، واعتناق رأيه عملًا تتعيش منه إلا الزواج؟ وما رأي «فرويد» (وزملائه) في العبيد الذين كانوا يموتون دفاعًا عن آراء

أسيادهم دون أن يؤمنوا بها، ورغم أن هذه المبادئ كانت تظلم هؤلاء العبيد؟ بل ما رأي فرويد في موظف الحكومة الذي يعتنق رأي رئيسه في العمل حتى لا يُفصَل أو يُنقَل أو يُضطهَد؟ بل ما رأي «فرويد» في آلاف أو ملايين الرجال الذين يُحكَمون أحيانًا بواسطة حاكم ديكتاتوري، فإذا بهم جميعًا — خوفًا على وظائفهم وأرزاقهم — يعتنقون رأي الحاكم، بل ويمجِّدونه تمجيدًا عظيمًا ويكبتون في أعماقهم آراءهم الحقيقية!

وإذا كان هناك حاكم ديكتاتوري في التاريخ، فليس هنا من نظام أكثر ديكتاتورية من نظام الزواج، إن الزوجة تفقد ملكيتها لجسمها وشخصيتها واسمها وحريتها في الخروج والتنقل والسفر، وفي بعض المجتمعات تفقد ملكيتها لأموالها التي ورثتها عن أسرتها، وفي بعض قوانين الزواج تفقد حقها في الحياة، ويصبح هذا الحق بيد زوجها فيقتلها حين يشاء كما يقتل الدجاجة أو القطة. هذا وإن معظم قوانين الزواج تعطي للزوج حرية تطليق زوجته متى شاء، وله الحق في أن يتزوج عددًا من الزوجات في وقت واحد، لكن فرويد لا يلاحظ كل هذا، ويتصور أن المرأة تغير رأيها وتعتنق رأي زوجها؛ لأن الأنا العليا عند المرأة أضعف، أو لأن عقلها أقل؛ وكل ذلك بسبب غياب عضو الذكر من جسمها.

ويضيف «فرويد» أيضًا (فيما يتعلق بقدرات المرأة الذهنية) أن المرأة فقدت قدرتها الذهنية مبكِّرًا عن الرجل، ويقول: إن المرأة حين تصل إلى الثلاثين تصبح قدرتها الذهنية عاجزة عن التطور، في حين أن هذا السن يعتبر عند الرجل بداية ازدهاره العقلي. ويحاول فرويد أن يجد تفسيرًا لهذا في أعضاء المرأة الجنسية أو تطورها الجنسي، لكنه لا يجد شيئًا علميًّا يمكن أن يستند عليه؛ فإذا به يقول: «إن هذه العملية وكأنها توقفت وعجزت عن التطور نحو المستقبل، ويبدو أن ذلك الطريق الطويل الشاق الذي تتطور به الأنوثة يستنفد كل إمكانيات المرأة.»

والحقيقة أن الذي يستنفد إمكانيات المرأة ويعطل قدرتها الذهنية عن النمو الطبيعي ليس هو طريق فرويد الطويل الشاق، ولكنه طريق المجتمع والأسرة والقوانين التي تمنع المرأة من التعليم، أو تَحُول بينها وبين التعليم المستمر، وتَحُول بينها وبين تنمية قدرتها الذهنية بحبسها في البيت زوجة وخادمة لزوجها وأطفالها، ومنعها من العمل والمساهمة في الأنشطة العامة. إن نجاح المرأة في المجتمع معناه أن تنجح في غسل الصحون، ورتق الجوارب، والطبخ، وكيفية الاحتفاظ بالزوج. إن النجاح الفكري للمرأة أو الذكاء أو التفوق كلها تُعتبَر عيوبًا بالنسبة للمرأة المكتملة الأنوثة، فكيف يمكن إذن للمرأة أن تنمي قدرتها الذهنية؟ بل كيف يمكن لها أن تُظهر ذكاءها أصلًا؟! إن ذكاء الزوجة يخدش رجولة

الزوج، ولا بدَّ للمرأة أن تخفي ذكاءها لتحافظ على حياتها الزوجية من الانهيار، وهكذا تصبح كل الزوجات غبيات؛ فالغباء مرادف للنجاح في الزواج.

لكن المرأة في السنوات الأخيرة (عن طريق عملها خارج المنزل واستقلالها الاقتصادي) لم تعُد تقبل الخضوع للزوج؛ لأنه لم يعُد المأوى الوحيد لها؛ إنها تجد مأوًى لها في عملها وفي أجرها الذي تناله عن هذا العمل. وقد ساعد الاستقلال الاقتصادي المرأة على أن تستقل نفسيًّا واجتماعيًّا عن الرجل، وفي كثير من المجتمعات الآن أصبحت المرأة تملك جسدها أيضًا وتتمتع بالحرية الاجتماعية والشخصية والجنسية التي يتمتع بها الرجل، بل ولها أيضًا الحق في نسب أطفالها إليها.

وقد لاحظ العلماء أن صفات هؤلاء النساء الجدد تختلف تمامًا عن الصفات التي وصفها فرويد وزملاؤه عن المرأة؛ فالمرأة من هؤلاء قوية الشخصية، شجاعة، تعتد برأيها، إيجابية في العمل والحياة والجنس، لا تحب الإهانة ولا الإذلال ولا الضرب، أي لا تعاني الماسوشية، وقدرتها الذهنية لا تضعف بعد سن الثلاثين، وطموحها في الحياة لا يقل عن طموح الرجل، والأنا العليا عندها لا تقل عن الأنا العليا عند الرجل.

وعلى هذا لم يكن أمام هذه الظاهرة الجديدة في النساء إلا شيئان، إمَّا أن نظرية فرويد (وزملائه) في المرأة خاطئة، وعجزت عن فهم طبيعة المرأة الحقيقية، وإمَّا أن هؤلاء النساء غير طبيعيات وشاذَّات ومنحرفات. وقد كان الرجال (وما زال الكثيرون منهم) يميلون إلى اعتناق الرأي الثاني؛ لأنه الرأي الذي يتمشى مع مصلحتهم، (فكل واحد منهم رئيس أسرة أبوية، ويحتاج إلى زوجة خاضعة ومطيعة لتخدمه)، ولكن كان هناك دائمًا أيضًا هؤلاء الرجال (رغم قلتهم) الذين ارتفعوا بمنهجهم العلمي وتفتحهم الذهني والإنساني فوق مصالحهم الخاصة، وقالوا بصدق وعلم: لقد أخطأ فرويد، وصدقت النساء.

لقد أدركوا أيضًا أن مصالحهم كرجال متنورين لا تكون إلا مع المرأة الجديدة القوية، المستقلة، الشجاعة، الذكية، الإيجابية، الحرة.

فإن هذه المرأة هي التي تستطيع أن تتفهم معنى الحب الحقيقي، ومعنى العمل، ومعنى الحياة، ومعنى التبادل، ومعنى الجنس، ومعنى الأمومة، ومعنى الأبوة، ومعها يستطيع الرجل المتنور أن يتذوق طعمًا للحياة أكثر عُمقًا وأكثر لذةً وأكثر إنسانيةً، ومعها يدرك الرجل المتنور أن الرابطة التي تربطهما رابطة حرة صادقة أساسها الاختيار، وليست تلك الرابطة القديمة الإجبارية التي كان أساسها الخوف من الجوع أو البحث عن مأوًى.

المرأة والعصر الحديث

حينما نقول: المرأة الحديثة أو المرأة العصرية، نتصور على الفور تلك المرأة التي ترتدي أحدث الأزياء وآخر الموضات، تلك المشغولة ليل نهار بشعرها وجسمها وجلدها وأظافرها، وبمعنًى آخر تلك المرأة المشغولة بنفسها أو العاشقة لنفسها، أو المرأة النرجسية.

والنرجسية إحدى الصفات التي أُلصقت زورًا بطبيعة المرأة، فالنرجسية معناها حب النفس، وقد أُشيع أن المرأة نرجسية بسبب اهتمامها الشديد بملابسها وشكلها، لكن الذي يتعمق قليلًا إلى أبعد من السطح الخارجي للمرأة يدرك أن العكس هو الصحيح، وأن حب النفس في النساء نادر جدًّا، وأنه في تلك الحالات النادرة التي تحب فيها المرأة نفسها فإن المجتمع الذكوري لا يسمح ولا يتحمل مثل هذا الحب.

وقد اتضح لعلماء النفس أخيرًا أن اهتمام المرأة بشكلها وملابسها ليس إلا رغبةً في التعويض عن حب النفس المفقود، أو محاولة من المرأة للتعويض عن عضو الذكر الضائع منها إلى الأبد كما قال فرويد.

إن التضحية بالنفس، وليس حب النفس، هي صفة المرأة، وهي أيضًا صفة غير طبيعية في المرأة. إن المجتمع هو الذي يفرض على المرأة أن تضحيَ بنفسها من أجل زوجها، إن الثقافة والقوانين الذكورية ترغم المرأة أن تضحيَ بنفسها من أجل زوجها، إن الثقافة والقوانين الذكورية ترغم المرأة أن تكون مضحية، وتجعل الرجل نرجسيًّا وأنانيًّا. إن المرأة تضحي بطموحها الفكري ومستقبلها الثقافي الخلاق من أجل أن تغذيَ طموح زوجها؛ فيتفوق هو في العلم أو الفن أو الأدب، وتظل هي راكدة في البيت تغسل جواربه.

وقد لاحظ فرويد وزملاؤه من العلماء أن نسبة قليلة جدًّا من النساء يُظهرن عبقرية أو نبوغًا في الفن أو الأدب أو العلم، ولم يُرجعوا ذلك إلى الظروف الاجتماعية التي تفرض على المرأة الانغلاق داخل جدران البيت، وتضييع الوقت في خدمة الآخرين والغسل والطبخ،

وإنما أرجعوا ذلك إلى الفروق التشريحية بين المرأة والرجل، وبعضهم أخرج نظرية تقول إن قدرة المرأة على الخلق تمتصها بيولوجيًّا وظيفتها كأنثى تحمل وتلد. واستطاع هؤلاء بطريقة ملتوية معقدة أن يقولوا إن المرأة تخلق الأطفال بولادتهم؛ ولذا فهي لا تشعر بحاجة إلى الخلق في مجال آخر كمجال الفن أو الأدب أو العلم، وحيث إن الرجل لا يلد الأطفال فإنه يستطيع أن يخلق في المجالات الأخرى. وبهذا أغلقوا حالات الخلق الثقافية والفكرية أمام المرأة، ولم يتركوا لها إلا الوظيفة البيولوجية، وهي ولادة الأطفال كسائر الحيوانات.

وقد أنصف المرأةَ ونظر إليها نظرةً علمية محايدة عددٌ من العلماء والنساء، وكان لهم فضل تنبيه الأذهان إلى الأسباب الاجتماعية التي عطلت قدرات المرأة الفكرية والفنية، وبالذات في مجال الأدب والكتابة.

وتكتب مادلين سابسال تقول: «إن الكتابة عملية فردية عالية المستوى، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف الاجتماعية؛ أي إنها تعتمد على درجة حرية الفرد في المجتمع ... وقد حُرمت المرأة من هذه الحرية قرونًا، وبالذات في القرن التاسع عشر، فإن الشيء الوحيد الذي حُرِّمَ بشدة على البنات والنساء المتزوجات هو حرية الكلام؛ لأن المجتمع كان يشك (وهذا الشك في موضعه) أن حرية الكلام ستقود إلى حرية التفكير، ثُمَّ إلى حرية الفعل.»

إن هذه القيود على «لسان» المرأة، ثُمَّ على عقلها، ثُمَّ على «أفعالها» كانت ضرورية لعملية القمع الجنسية؛ لتخضع المرأة رغم الطبيعة (وليس بسبب الطبيعة) لنظم الأسرة الأبوية والزواج بالرجل الواحد «الأب للأطفال».

وهذا يدل على أن عملية القمع الجنسي تقتضي بالضرورة عملية قمع فكري، ومن أجل أن تنصرف المرأة تمامًا عن المجالات الفكرية والخلق الفني أوهموها أن الولادة نوع من الخلق الفكري وليس البيولوجي، وأوهموها أن الولادة سعادة لها تفوق سعادة الرجل الفكرية والفنية.

إن عملية إقناع المرأة بهذه الفكرة غير المنطقية لم تكن سهلة على الرجل؛ فالمرأة إنسان لها عقل، وعقلها يدلها على أن ولادة الأطفال وظيفة بيولوجية لا تزيد عن أي وظيفة بيولوجية أخرى، وأنها إذا اكتفت بحياتها على ولادة الأطفال فلن تكون أفضل من القطة التي تلد أيضًا.

ولهذا السبب تشعر النساء بالاكتئاب بعد انقطاع الطمث، وقد فُسِّرَ هذا الاكتئاب الذي سموه «اكتئاب سن اليأس» تفسيرًا خاطئًا، وأرجعوه إلى أسباب بيولوجية وهرمونية،

والحقيقة أن هذا الاكتئاب سببه أن المرأة تكتشف بعد فوات الأوان أنها ضيَّعت عمرها هباءً في الحمل والولادة والغسل والكنس والطبخ، وأنها قتلت طموحها الفكري، أو أنها أُجبرت على قتله.

وقد استخدم الرجل في قمعه للمرأة جميع الوسائل المادية والثقافية، ونجحت الثقافة الذكورية على مدى القرون في إقناع النساء عامة بأن طموحهن الفكري ليس إلا انحرافًا عن طبيعتهن، أو نشاطًا ذكوريًّا نبت خطأً في طبيعة الأنثى، ويجب أن يُستأصَل كما يُستأصَل البظر.

وجاء وقت أصبحت فيه النساء عقيمات الفكر، وفقدن اهتمامهن بالنواحي الفكرية في المجتمع والحياة، ولم يشعرن بأي نقص؛ لأنهن تصورن أن عقم المرأة ليس إلا عجزها عن ولادة الأطفال.

وفي العصر الحديث لم يستخدم الرجل المتحضر حزام العفة الحديدي ليقمع المرأة جنسيًّا وفكريًّا، ولكنه استخدم وسيلة عصرية أخرى، هي النظريات النفسية العلمية الخاطئة، التي تصنع للمرأة طبيعة مشوهة لا تقل في تشوهها عن فعل الحزام الحديدي بجسم المرأة، أو استئصال بعض أعضائها الجنسية.

إن إخصاء المرأة جنسيًّا كان يقتضي بالضرورة إخصاءها فكريًّا أيضًا؛ فالحرية في الإنسان لا تتجزأ، وإذا مُنحت المرأة الحرية لتتكلم، فسوف تقود حرية الكلام إلى حرية التفكير إلى حرية الفعل. وهنا الخطر كل الخطر؛ لأن المرأة التي تصبح حرة في أفعالها قد تفعل أي شيء، ومعنى ذلك أنها قد تذهب إلى رجل آخر غير الرجل المفروض عليها بالزواج، وهنا الخطر كل الخطر الذي يتهدد المؤسسة الأبوية الذكرية.

والواضح أنه بعد كل تلك السنين من القمع أصبحت المرأة الحديثة حرة إلى حد ما، ولم يعُد هناك حزام عفة حديدي، لكن أثر الحزام لا زال موجودًا، بل إن المرأة نفسها تصنع الحزام خوفًا من تلك الحرية الجسدية التي لن تتعود عليها. وهي في الحال أشبه بالسجين الذي قُيِّدت قدماه بالسلاسل الحديدية سنين طويلة، وحين رُفعت السلاسل أصبح خائفًا من مجرد السير على قدميه، وقد يفضِّل القيود مرة أخرى على تلك الحركة الجديدة التي لم يألفها.

والمرأة أيضًا أصبحت تحب قيودها، وليس ذلك للفروق التشريحية بينها وبين الرجل، ولكن بسبب القهر الاجتماعي الطويل، وخوفها الدفين الآن من أية حركة أو حرية.

وهذا هو السبب في ذلك الذعر الشديد الذي تُبديه الأمهات (أثر من الأدباء) حين يلمحن في بناتهن أية حركة نحو أية حرية؛ وهذا هو سبب تلك الكراهية التي تشعر بها البنت نحو أمها.

إن العلاقة بين الأم وابنتها علاقة مريضة، بُنيت على القهر والخوف، وفي مثل هذا القهر والخوف تفسد العلاقات بين أعضاء الجنس المقهور. إن أشد أنواع الكراهية تنبت بين المقهور والمقهور، أو بين العبد وزميله العبد، هذا شيء غير طبيعي، ولكن الأشياء غير الطبيعية تنمو في المناخ غير الطبيعي، وفي ظل القهر غير الطبيعي يكره العبد زميله بدلًا من أن يحبه، وينافسه متوهِّمًا أنه عدوه بدلًا من أن يتآزرَ معه ضد العدو الحقيقي.

وهذا ما يحدث للنساء، إن المرأة تنافس المرأة وتكرهها، والأم تحب ابنها الذكر أكثر مما تحب ابنتها، وتتصور أن ابنها يعوضها عن الإحباط الذي حدث في حياتها كأنثى، أمَّا ابنتها فليست إلا مثلها أنثى، أي أنها تنتمي إلى ذلك الجنس الأدنى.

وهذا الشعور من الأم ينعكس على ابنتها، فتشعر البنت بالأسى والحزن وخيبة الأمل في أمها، التي كانت تظن أنها ستقف في صفها لأنها مثلها.

ويتصور فرويد وزملاؤه أن كراهية البنت لأمها هذه ليست إلا بسبب الفروق التشريحية بين الرجل والمرأة، وغياب عضو الذكر من جسم الأنثى، وتلك الصدمة التي تشعر بها البنت بسبب هذا النقص التشريحي، واتجاهها نحو الأب ليمنحها الطفل الذي يعوضها عن هذا النقص، لكن الأب يخذلها بسبب وجود امرأة أخرى معه هي أمها، وهكذا تكره البنت أمها؛ لأنها تنافسها في حب أبيها. وقد سَمَّى فرويد هذه التركيبة كلها عقدة أوديب أو إلكترا، واعتبرها مرحلة نفسية تمر بها جميع البنات، غير أنه بالإضافة إلى كل هذا فهناك شيء آخر سماه فرويد عقدة الإخصاء، وهذه العقدة هي أن البنت الصغيرة تتخيل أن أمها هي التي أخذت منها عضو الذكر وهي طفلة صغيرة، أي أن أمها هي التي سببت لها ذلك الإخصاء، وهذا أيضًا يزيد من كراهية البنت لأمها.

وقد هوجم فرويد وزملاؤه بشدة من هؤلاء الرجال الذين يذعرهم أي شيء يتهدد كيان الأسرة الأبوية، وأنكروا بشدة وجود عقدة أوديب سواء عند الولد أو البنت، وأنه لا شيء اسمه كراهية داخل هذه الأسرة الأبوية القائمة على الحب، وأنه ليس هناك ما يشوب ذلك الحب.

لكن فرويد كان صادقًا في ملاحظته، وكانت ملاحظته حقيقية عن وجود ذلك الشعور بالإخصاء عند البنت الصغيرة، لكن السبب في هذا الشعور ليس هو عزل عضو الذكر عن جسدها، وإنما هو عزلها عن الحياة وإخصاؤها الفكري والإنساني، وحبسها في البيت أو

حبسها النفسي عن طريق التحذيرات والتحريمات المفروضة عليها هي فقط، وليس على أخيها الولد.

والبنت لا تكره أمها لأنها أخذت منها عضو الذكر، ولكنها تكرهها لأنها تحاول أن تشدها إلى دنيا النساء المحدودة القبيحة، التي تفوح منها رائحة البصل والثوم وغسل الصحون والانغلاق عن الحياة الفكرية والثقافية في المجتمع الكبير. وتكره البنت أباها بالمثل حين يفرض عليها مثل هذه القيود، لكن الأب عادةً يترك مهمة تقييد البنت لأمها، إنه يلعب في هذه الحال لعبة مدير السجن، فهو الذي يُصدر قرار الحبس أو قرار الإعدام، لكنه لا يلوث يديه بالدم أو بتراب السلاسل الحديدية، وإنه يترك عملية تنفيذ الحكم لذلك الجنس الأدنى من الفقراء، الذين يعملون كسجانين أو جلادين.

وكم يبالغ الجلاد أو السجان في قسوته، ليس لأنه قاسٍ بالطبيعة، وليس لأنه يكره المسجون، وإنما هو يبالغ في قسوته ليُرضيَ مدير السجن أكثر ويتملقه؛ ليحصل على علاوة.

والأم لا تقسو على ابنتها، ولا تبالغ في فرض القيود عليها، إلا من أجل إرضاء الأب أو الزوج من بعد، ومن أجل هذا الإرضاء تفعل الأم المستحيل لتحول ابنتها إلى دمية أو عروسة في انتظار الزوج. إن عملية التحويل هذه أشبه ما تكون بالإخصاء فعلًا؛ لأن البنت تتعلم أن تهتم بكرانيش فساتينها أكثر مما تهتم بتنمية عقلها وقراءتها وثقافتها.

تتعلم البنت كيف تبدو جميلة تجذب عين الرجل؛ أي تتعلم أن تكون جذابة جنسيًّا، ولكنها في نفس الوقت وفي النفس اللحظة تتعلم أن تكبت رغبتها الجنسية؛ أي إنها تتعلم أن تكون جنسية ولا جنسية في الوقت نفسه. وهذه الحالة تدفع البنت الطبيعية إلى الجنون أو الهستيريا.

إن القانون الذكَري الصارم المتناقض يدفع بالمرأة الطبيعية إلى أن تُصاب بالهستيريا؛ ولهذا اشتُقَّت من كلمة الهستيريا من «هيستر»، ومعناه باللاتينية «رحم» المرأة. وحين لاحظ فرويد أن معظم حالات الهستيريا من النساء، تصور أن الفروق التشريحية والهرمونات المؤنثة تجعل المرأة أكثر قابليةً للإصابة بالهستيريا.

ولم يكن علاج الهستيريا في العصر الحديث أكثر نجاحًا من علاج الهستيريا في العصور الوسطى، وكما كانت تُساق الساحرات إلى كرسيِّ الحرق، ثُمَّ إلى الكرسيِّ الكهربي، ثُمَّ إلى الكرسيِّ المهدئ، سِيقت نساء العصر الحديث إلى الجلسات الكهربية، وإلى الأقراص المهدئة والمنومة، وإلى «شازلونج» الطبيب النفسي المؤمن بفرويد ونظرية التحليل النفسي، فيقنعها بأن الهستيريا ليس سببها ذلك القهر الواقع عليها، وإنما سببها رفضها لأنوثتها، ورفضها لحقيقة كونها ذكرًا مخصيًّا ناقصًا.

وينجح التحليل النفسي في إقناع المرأة بنقصها، وأنها الجنس الأدنى، وتستحق ما هي فيه من قهر وذل، وعليها أن تحب هذا الذل وتعشقه؛ لأنه يتفق مع طبيعتها الماسوشية.

وتعود المرأة إلى بيتها مستسلمة هادئة، بل أكثر هدوءًا، ذلك الهدوء الذي يشبه الموت، وتحاول بالجزء الباقي من نفسها وجسمها أن تتكيف مع الواقع المفروض عليها، وأن تقبلَه وتحبَّه. وتبدأ المرأة في محاولة تعويضية كبيرة، تعوض بها عما أُخذ منها عَنْوَة، ولا تجد سبيلًا للتعويض إلا أطفالها الذكور (بناتها تكرهن لأنهن أيضًا سيكونن ضعيفات مثلها)، إنها تحب أولادها الذكور؛ لأنها تجد في قوتهم الاجتماعية تعويضًا عن ضعفها وقهرها. وتتعلق الأم بابنها الذكر تعلُّقًا مريضًا، فتفسد طفولته، وتفسد شبابه، وتفسد كهولته بسبب هذا الحب غير الطبيعي.

وحين يلاحظ «فرويد» أن الطفل الذكر يحب أمه ويكره أباه يتصور أن ذلك بسبب ما سماه عقدة أوديب، وسبب عقدة أوديب في الطفل الذكر أيضًا هو تلك الفروق التشريحية بين الولد والبنت، وأن الولد يخشى أن يُصاب بالإخصاء كالبنت، ويُقطَع عضوه الذكري ويصبح أنثى مثل أخته، وهو يشعر بالرعب من عملية تحويله إلى أنثى (لأنه بالطبع سيفقد الحرية والمميزات الاجتماعية التي يتمتع بها الذكور فقط)، ويكره أباه ويخاف منه؛ لأنه يتصور أن هذا الأب ينافسه في حبه لأمه وأنه يخصيه كنوع من العقاب.

إن ملاحظات فرويد في معظمها صحيح، لكن تفسيراته هي الخاطئة، ومن أجل أن نحميَ الأطفال ذكورًا وإناثًا من عقدة الإخصاء وغيرها لا بدَّ أن تكون الأم إنسانة طبيعية، ولا بدَّ أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة أو الأب والأم علاقة طبيعية إنسانية قائمة على الحب والمساواة، وليس على الفرض والقهر. ومعنى أن نرفع القهر عن المرأة هو أن نرفع عنها ذلك الفرض بأن دورها في الحياة هو دورها كزوجة وأم فقط، وأن الرجل لا يُفرض عليه أن يكون زوجًا وأبًا فقط، ولكنه مهندس أو طبيب أو كاتب أو محاسب، وهو أيضًا إلى جانب ذلك يكون أبًا وزوجًا، وأن أبوة الرجل أو كونه زوجًا لا يحرمه من الأدوار الأخرى التي يقوم بها في الحياة، لكن المجتمع يفرض على المرأة أن تلعب دورًا واحدًا محدودًا، وهو أن تكون زوجةً وأمًّا فقط.

وحين يسمح المجتمع للمرأة أن تعمل فهو بشرط ألا يتعارضَ عملها مع واجبها الأول في الحياة (زوجة وأم)، وإذا تعارض فلا بدَّ لها أن تعود فورًا إلى البيت ودورها الأول (زوجة وأم)، بل إن خروج المرأة للعمل ليس (في منطق المجتمع) من أجل أن تنمي قدرتها الفكرية وترضي طموحها الإنساني والفكري، وإنما من أجل أن ترفع المستوى الاقتصادي

للأسرة الأبوية، وأن تساعد الأب في النفقات، وتساهم في دفع مصاريف المدارس؛ ولهذا يسمح المجتمع للمرأة العاملة بحريات معينة ويحرمها من حريات أخرى، إنه يمنعها من التطور الفكري المستمر أو الوعي المتزايد، وإلا اكتشفت الظلم الواقع عليها. ومن هنا ذعر المجتمع وقسوته على أية امرأة تظهر مزيدًا من الوعي ومزيدًا من الذكاء أو التطور الفكري.

إن الزوج يسمح لزوجته أن تتأخر عن البيت بسبب الأوفرتايم (العمل الإضافي الذي تأخذ عليه أجرًا إضافيًّا)، لكنه لا يسمح لها أن تتأخر في حفل أو سينما أو زيارة؛ ولهذا تزيد نسبة الأمراض النفسية في النساء العاملات عن النساء ربات البيوت؛ فالمرأة العاملة تقوم بجميع واجباتها تجاه العمل كزوجة، لكنها لا تحصل على الحريات والحقوق الاجتماعية والفكرية أو الجنسية التي يتمتع بها زوجها، وبالإضافة إلى ذلك فهي تعود إلى البيت وعليها أيضًا أن تخدم هذا الزوج وتخدم أطفالها وإلا اتُّهِمَت بالتقصير، ونالها العقاب الذي يتفاوت من مجرد اللوم والتأنيب إلى الضرب، أو الطلاق أو الزواج بأخرى، أو التشهير بأنها لا تعرف واجباتها كأنثى، وأنها ناقصة الأنوثة أو منحرفة أو مريضة نفسيًّا … وتذهب إلى الطبيب النفسي، الذي لا يفكر إلا في الفروق التشريحية بين الذكر والأنثى … وهكذا تدور الدائرة من جديد، وتلف المرأة في الدوامة.

وهنا قد يتساءل بعض الناس: أليست المرأة العاملة أسعد حالًا من المرأة غير العاملة؟ ألا يعالج العمل كثيرًا من مشاكل المرأة النفسية؟ … وللإجابة على هذا السؤال لا بدَّ لنا من التعمُّق قليلًا في موضوع عمل المرأة.

إن العمل بصفة عامة، وكما قال علماء النفس، أهم وسيلة تربط الإنسان بواقع الحياة وحقيقتها؛ لأن الإنسان عن طريق العمل يحتك بجزء من هذه الحقيقة وهو المجتمع الإنساني.

لكن العمل في حياة المرأة لا يأخذ هذا الشكل، والمناخ العام الذي يقهر المرأة وفي ظل القانون الذي لا يساوي بين المرأة والرجل لا يمكن أن يكون مجرد «عمل المرأة» هو العلاج لتعاستها وأمراضها النفسية، إن المرأة أو أي إنسان لا يمكن أن يعمل عملًا إلا إذا تم إعداده لهذا العمل إعداد سليمًا مبنيًّا على تربية سليمة ودوافع للعمل صادقة.

إن هذه الدوافع هي التي تشكل المثل الأعلى في حياة الإنسان، وأهدافه من حياته، والقيم التي يقيس بها نفسه، والرغبة في بلوغ القيمة التي رسمها لنفسه بكل جهده وإمكانياته. إن كل هذه القيم والمثل تترسب في أعماق الإنسان عن طريق التربية منذ الطفولة والمناخ العام الذي يعيش فيه وتتمثل فيه هذه القيم، وتصبح مؤثرات تدفعه نحو الطريق الذي يساعده على تحقيق أهدافه.

إن المثل العليا والقيم التي تتمثلها المرأة منذ طفولتها حتى مماتها، في الأسرة والمدرسة، والشارع والصحافة والإذاعة والأفلام والصور والكتب، كلها لا تدفع بها إلى طريق العمل، وإنما إلى اصطياد رجل بأي شكل، والزواج منه بأي شكل، وإلا فقد فاتها القطار، وفاتتها جنة الله على الأرض.

ولهذا تنظر المرأة إلى العمل كأنه محطة انتظار ليس إلا، إذا جاءها عريس غني فهي تترك العمل فورًا، وإذا جاءها عريس فقير فهذا حظها، وعليها أن تعمل حتى يصبح أقل فقرًا، ثُمَّ تترك العمل إذا ما سمحت الحالة الاقتصادية بذلك، وإذا لم تسمح الحالة الاقتصادية بأن تترك العمل أبدًا فهذا حظها، وعليها أن تعمل خارج البيت وداخله، وفي أعماقها تحسد زوجة الرجل الذي يمنعه ثراؤه (ورجولته أيضًا في مفهومها) من تشغيل زوجته مثلما هي تشتغل.

قليل جدًّا من النساء العاملات من يعتبرن أن العمل أهم من الزواج، أو أن تحقيق ذاتها كإنسانة مفكرة في المجتمع أهم من الزواج وإنجاب الأطفال. من النادر جدًّا للمرأة أن ترسم لنفسها قيمة فكرية عالية في المجتمع، وإلا اتُّهِمَت بالذكورة، فهذا الطموح الفكري صفة الرجال فحسب، وتخفي المرأة ذكاءها من أجل أن تكون مكتملة الأنوثة، وهذا كله ناتج من المناخ العام والثقافة الذكورية التي تتعرض لها المرأة منذ ولادتها حتى مماتها، والدور الذي يفرض عليها (دور الزوجة والأم) بكافة الوسائل التي توهمها بأن هذه هي أنوثتها وهذا هو جمالها، وهذا هو سحرها وجمالها، كيف يمكن أن تحارب الطبيعة؟ وعلى هذا النحو ترضى المرأة بدورها المفروض، وتحبه وتسعى إليه وتتفاخر به، وكم من نساء يتفاخرن بأنهن لسن إلا زوجات وأمهات، وكم من نساء يتفاخرن بأنهن لا زلن أطفالًا ولا زلن ساذجات، وكم من نساء يتفاخرن بتصرفاتهن البلهاء، وكم يتفاخرن بالغباء، وكم يشعرن بالسعادة الأنثوية الكاملة.

وكما يقول جيته الفيلسوف الألماني الشهير Goethe: ليس هناك من هو أكثر عبودية من ذلك العبد الذي يظن أنه حر على حين أنه ليس حُرًّا.

إن استعباد الرجل للمرأة استمر آلاف السنوات، وقد صارعت المرأة ضد هذا الاستعباد آلاف السنوات أيضًا. والصراع بين الجنسين حقيقة تاريخية وأنثروبولجية ونفسية، قد يظهر الصراع إلى السطح أحيانًا، وقد يختفي في القاع أحيانًا أخرى، وقد يصبح صراعًا واعيًا وملموسًا، وقد يكون صراعًا خفيًّا مدفونًا في العقل الباطن واللاوعي.

ويتميز النصف الأخير من القرن العشرين بأن صراع المرأة من أجل تمزيق قيودها وإنهاء عبوديتها قد أصبح صراعًا واعيًا وملحوظًا، وقد خرج بفضل الدراسات النفسية

الحديثة من منطقة اللاوعي إلى منطقة الوعي، لكن المرأة لم تنجح في صراعها حتى الآن في أي مجتمع من المجتمعات. إن عدم نجاح المرأة في إنهاء عبوديتها يشبه إلى حد كبير عدم نجاح العالم في إنهاء الحروب بين البشر. وقد تصور علماء النفس أيضًا أن الرغبة العدوانية في القتل والحرب والتنافس والطمع رغبة طبيعية في الذكر، ولا شك أن هذا التفسير البيولوجي للحرب يعمي العيون والأذهان عن الأسباب الحقيقية، وهي النظم الاقتصادية والسياسية والثقافية القائمة على الاستغلال، استغلال صاحب السلطة لمن لا سلطة له، واستغلال صاحب المال لمن لا مال له، واستغلال الدول القوية الغنية للدول الفقيرة النامية. إن الدعاية النفسية التي يستخدمها الرجال لتمجيد الحروب والقتل تشبه إلى حد كبير الدعاية النفسية التي يستخدمها الرجال لتمجيد صفات الضعف والاستسلام والخضوع والتضحية في المرأة.

وهنا يقول إيريك فروم Erich Fromm: «إن الحرب بين الجنسين قد استمرَّت منذ آلاف السنين، وإن دعاية الرجل عنها في مثل سخافة دعايتهم عن الحروب بين الدول. إن الرجال يدَّعون أن النساء أقل شجاعة منهم، والحقيقة أن النساء أكثر شجاعة منهم، ويدَّعون أن النساء أقل واقعية منهم، والحقيقة أن النساء أكثر واقعية منهم، إن النساء أكثر اهتمامًا بموضوع السلام والحرب عن الرجال.»

إن المرأة في عصرنا الحديث التي تعلمت وخرجت إلى العمل في أي مهنة تشعر بالقيود من حصولها وبالكراهية أيضًا في جو العمل (المناخ العام لجو العمل)، والويل لها لو أظهرت تفوُّقًا أو ذكاءً أو نبوغًا؛ إن الذكورة هي أقل صفة يمكن أن توصَف بها. وإن القيود التي تقف في وجه المرأة العاملة لا تنبع فقط من هذه الكراهية العامة التي تحوطها، وإنما تنبع أيضًا من ذلك الشك الذي يملأ نفسها عن قيمة ذلك العمل بالنسبة لها. إنها لو حظيت بظروف (وهذا نادر بالطبع) تؤكد لها قيمة هذا العمل وقيمة الاستمرار والتفوق فيه، فهي كثيرًا ما تقع فريسة التشكك والإحساس بالذنب؛ لأنها ليست في مكانها الصحيح الذي خُلقت من أجله، ألا وهو البيت.

إن العمل في حياة المرأة شيء جديد، وكثير من النساء العاملات يتعرضن للمشاكل النفسية لسببين: الأول: وهو بيئة العمل الذكورية المليئة بالكراهية لهن. والثاني: هو قلقهن الداخلي وتمزقهن بين ما هو الصحيح وغير الصحيح لهن كنساء؛ ولهذا تفشل معظم النساء العاملات في عملهن، أو على الأقل يتخلفن عن زملائهن الرجال الذين لا يواجهون مثل هذه القيود والمصاعب. بالإضافة إلى أن المرأة العاملة تقوم بوظيفتين؛ داخل البيت وخارجه،

والرجل لا يقوم إلا بوظيفة واحدة؛ ولهذا تفشل المرأة العاملة في التفوق ويصبح فشلها مرة أخرى برهانًا لعلماء النفس على أن المرأة بسبب الهرمونات والفروق التشريحية لم تُخلَق إلا للبيت والخدمة والإنجاب. ويصبح هذا الفشل غذاءً جديدًا للثقافة الذكورية تؤكد به وتبرر به وصايا الرجل على المرأة، وبدلًا من أن تكشف الأسباب الحقيقية التي تعطل حركة المرأة وتفوقها تخفى وتطمس؛ وبذلك لا تتجه الأذهان إلى علاج إزالتها من طريق المرأة.

ولا يمكن أن ننكر أن بعض النساء العاملات (رغم كل هذه المعوقات) يتفوقن في مهنهن، أو يُظهرن نبوغًا في العلم أو الفن أو الأدب، ولكن هؤلاء النساء قلة قليلة بالطبع، كما أن هؤلاء النساء (رغم كونهن طبيعيات جدًّا) يفاجأن حين يجدن أن باب الزواج أصبح مغلقًا في وجوههن؛ وسبب ذلك ليس لأنهن مسترجلات أو منحرفات أو شاذَّات، ولكن السبب هو أن الرجال يرفضون الزواج منهن، وإذا حدث وتزوج رجل واحدة منهن فكثيرًا ما يفشل الزواج، إمَّا لأن الرجل لا يطيق أن تتفوق المرأة عليه، وإمَّا لأن المرأة نفسها بعقلها المتفتح أصبحت غير راضية بالحياة مع زوج له عقل مغلق.

وبرغم التقدم العلمي وازدياد التعليم في العصر الحديث وانتشاره، فإن الأسرة الأبوية هي الخلية الأولى التي يتعلم فيها الولد والبنت؛ ولهذا يتقدم العصر في الاكتشافات العلمية والتكنولوجية، وتبقى عقلية الرجل (والمرأة أيضًا) متخلفة، مغلقة على القيم القديمة، التي تقوم على أن المرأة خُلقت لتخدم الرجل وليس للنبوغ الفكري أو التفوق الثقافي في المجتمع؛ ولهذا فإن العصر الحديث قد حُرم من عقول ونبوغ نصف سكانه، وهم النساء.

ويكتب جون ستيوارت ميل يقول: «إنه لمن الخطأ أن يظل المبدأ الذي يحكم العلاقة الاجتماعية بين الجنسية قائم على إخضاع النساء بالقانون للرجال. وهذا هو أهم الأسباب التي تعوق التقدم الإنساني؛ ولهذا يجب علينا أن نستبدل هذا القانون بقانون آخر يحقق المساواة للجنسين في كافة الحياة.»

إن النساء في معظم أنحاء العالم (البلاد المتقدمة والبلاد النامية) لا زلن يخضعن بالقانون للرجال، وإن هذا القانون ليس هو القانون الجائر الوحيد في العصر الحديث. إن معظم قوانين العصر الحديث جائرة؛ فهي تُخضع المرأة للرجل، وتُخضع الفقير للغني، وتُخضع الأسود للأبيض، وتُخضع الأغلبية للأقلية، وتُخضع الشعوب الفقيرة النامية للدول الاستعمارية الكبرى.

إن مهنة الطب، الجسدي والنفسي، ليست إلا إحدى مؤسسات العصر الحديث، وليست إلا جزءًا من الثقافة والحضارة الذكورية العامة؛ ولهذا تلعب مهنة الطب (كغيرها من المهن)

دورها في «تثبيت القيم الذكورية التي تحكم علاقة الجنسين»، ويقنع الأطباء (عن وعي أو غير وعي) النساء بأن ذلك الاكتئاب الذي يصيبهن بعد الأربعين من العمر ليس إلا بسبب اضطراب الهرمونات بسبب انقطاع الطمث. وتخرج الكتب الطبية والنظريات التي تقرر أن ٨٥٪ من النساء بعد سن الأربعين يُصَبن بحالة اكتئاب (طبيعية) بسبب الهرمونات، وأن النسبة الباقية منهن ١٥٪ ينجون بأعجوبة من هذا الاكتئاب لسبب بيولوجي آخر مجهول. ويصف الأطباء لهؤلاء النساء المكتئبات العلاج؛ أي بعض الأقراص أو الحقن، وتأخذ النساء الدواء لكن الاكتئاب يظل، وتعود النساء إلى الأطباء بالمال، وامتلاء جيوب شركات الأدوية والصيادلة بالمال، لكن اكتئاب النساء يظل.

أمَّا الأطباء من تلامذة فرويد والتحليل النفسي فإن مهمتهم هي إقناع المرأة بدورها الطبيعي في الحياة وهو البيت، والتكيف مع الظروف التي قتلت طموحها الفكري ونبوغها؛ لأن السعادة العظمى للمرأة ليست إلا في غسل جوارب الزوج وولادة الأطفال كالأرانب.

إن أشد ما يُذعر له المجتمع الذكوري أن تثبت المرأة تفوقها في التعليم والعمل في المجالات العلمية والفكرية؛ وسبب الذعر هو خوفهم من أن تتذوق النساء سعادة العمل الفكري ولذته (اللذة المحرمة)، فتنجرف في ذلك الطريق، ولا يجد الرجال من يخدمهم في البيت، ويطبخ لهم ويغسل سراويل الأطفال.

إن المجتمع الذكوري حساس، شديد الحساسية لمصلحته، كأي مجتمع قائم على الاستغلال. إن المجتمع الأمريكي كان يكره تعليم الزنوج وفتح المدارس العالية لهم (الموقف نفسه مع النساء)؛ والسبب في ذلك أن المجتمع الأمريكي كان يخشى أن يتذوق الزنوج سعادة العمل الإنساني الفكري الراقي فينجرفون في هذا الطريق، وتعاني البيوت الأمريكية من نقص في الخدم والطباخين والسفرجية والخادمات ومربيات الأطفال.

ومن أجل إبعاد المرأة عن المجالات الفكرية الجادة يدَّعي الرجل أنه يشقى في عمله ويتعب (ينكر اللذة والسعادة بالطبع)، ويتظاهر بأنه يحسدها على الراحة التي تتمتع بها في البيت. وحينما تطلب منه أن يبادلها، فيأخذ راحتها هي وتأخذ هي شقاءه يرفض بالطبع، وبلا وعي يقول لها أو لنفسه: إن غسل الصحون أو الطبخ لا يمكن أن يرضي طموحي في الحياة!

إن غسل الصحون والطبخ لا يمكن أن يكون مهنة الرجل الذكي الطموح المحترم، ولكنها قد تكون مهنة الرجل الفقير الجاهل، الذي حُرم من التعليم بسبب فقره.

أمَّا المرأة فإنها مهما بلغت من الذكاء والتعليم ومهما بلغت من النبوغ فإن مهنة الطبخ وغسل السراويل والجوارب هي مهنتها الأولى والوحيدة في الحياة؛ ولهذا فإن المرأة

(من الطبقات الراقية) حين تجد من يغسل ويطبخ بدلًا منها، فهي تصبح على الفور امرأة عاطلة يقتلها الملل والفراغ، فتخرج إلى الشوارع تتسكع أمام فترينات الملابس والموضات، أو تقتل الوقت في الحفلات والشرب والرقص والعربدة الجنسية والفسق. رغم كل هذه المحاولات تظل تشعر باكتئاب، والحزن في أعماقها؛ لأن عمرها ضائع وحياتها ضائعة. وتذهب إلى الطبيب النفسي للعلاج، وتجلس في حجرة الانتظار مع النساء الأخريات العاملات وغير العاملات، وكلهن مريضات بالاكتئاب، وتعددت الأسباب والاكتئاب واحد.

وليس غريبًا أن تُصاب معظم النساء (عن وعي أو عن غير وعي) بالاكتئاب والتعاسة؛ فالسعادة أو الصحة النفسية كما عرَّفها فرويد وغيره من علماء النفس: هي أن يعمل الإنسان ويستخدم كل إمكانياته الفكرية وطاقاته، وأن يحتكَّ بالمجتمع ويرتبط بحقيقة الحياة. ويقرر فرويد أن العمل المهني في المجتمع Professional Work هو الذي يحفظ شخصية الإنسان وسلامته الداخلية، أي صحته النفسية، لكن يبدو أن فرويد كان يتصور أن صحة الإنسان النفسية شيء، وصحة المرأة النفسية شيء آخر.

وتشاء الصدف أن تنبغ ابنة فرويد فكريًّا، وهي «أنا Anna» وتكون هي الوحيدة من كل أبنائه الذكور، التي أسهمت في العلم والبحوث العلمية النفسية. وقد غيرت هذه الحقيقة (التي فرضت نفسها على فرويد) بعضًا من أفكاره عن المرأة في أواخر حياته، فإذا به في سنة ١٩٣٢ ينصح تلاميذه بألا يحددوا الصفات النفسية والشخصية للإنسان حسب الذكورة أو الأنوثة، بما في ذلك صفة «السلبية» و«الإيجابية» التي درج فرويد وعلماء التحليل النفسي على اعتبار أن الأولى صفة المرأة الطبيعية والثانية صفة الرجل الطبيعي. وقد حاول فرويد أن يراجع بعض أفكاره عن المرأة حين كتب: «حقًّا، إن الوظيفة الجنسية لها أثر كبير في حياة الشخص، ولكن علينا ألا نتجاهل أن المرأة قد تكون إنسانًا في النواحي الأخرى من الحياة.»

واعترف فرويد أخيرًا بأن معلوماته عن المرأة قليلة جدًّا، وكتب يقول: «إذا أردت أن تعرف المزيد عن الأنوثة فحاول أن تعرف ذلك من تجارِبك في الحياة، أو اقرأ الشعر، أو انتظر حتى يستطيع العلم أن يزودك بمعلومات أكثر عُمقًا وأكثر منطقيةً.»

ولم يحاول تلامذةُ فرويد الرجالُ الانتباهَ إلى هذا الكلام الأخير، وظلت نظرية التحليل النفسي سائدة في الطب النفسي؛ والسبب في ذلك أن طلبة الطب يدرسون الطب القديم لا الطب الحديث، وقد ظهرت سيكلوجية جديدة تمامًا للمرأة في السنوات الأخيرة، لكن كليات الطب هي آخر من يعلم. والسبب في ذلك شيئان: الأول: أن أساتذة الطب لا يجدون الوقت

لقراءة البحوث الطبية الجديدة بسبب انشغالهم ليل نهار في عياداتهم الخاصة، ووقوعهم تحت سطوة الثراء وإغراءاته. والسبب الثاني: أن تطوير التعليم الطبي (وبالذات في المجتمعات النامية) يسير ببطء شديد كالسلحفاة، على حين أن البحوث الطبية والعلمية تسير بسرعة الصاروخ.

المرأة والزواج

الذي يدرس قوانين الزواج في مختلف أنحاء العالم يدرك على الفور أن القهر الأساسي للمرأة ينبع ويصب في هذه القوانين التي تجعل الرجل لا وصيًّا على المرأة فحسب وإنما مالكًا لجسدها ونفسها وكل شيء. إن عَقد الزواج ليس إلا عقد تمليك تفقد فيه المرأة ملكيتها لنفسها وتسلمها للزوج، وفي ظل قوانين الزواج يملك الرجل لا المرأة فحسب، ولكنه يملك أطفالها أيضًا.

ونادرًا جدًّا ما ترفض المرأة الزواج، بل إنها تسعى إلى الزواج لأنه الشكل الوحيد الرسمي والشرعي والقانوني والأخلاقي الذي يمكن من خلاله أن تعيش اقتصاديًّا (إذا لم يكن لها عمل أو إيراد)، وتُحمى اجتماعيًّا (المرأة غير المتزوجة متهمة دائمًا)، وتُرضى جنسيًّا (ولا يُسمَح للمرأة أن تمارس الجنس خارج الزواج إلا إذا كانت مومسًا)، بالإضافة إلى أن الزواج اكتسب نوعًا من الحماية الدينية وأصبح شبه مقدس، ولم يعُد من السهل لأي امرأة أن ترفضه أو تنقدَه.

ومن المعروف أن القانون الظالم يفسد المظلوم ويفسد الظالم أيضًا، إنه يعوِّد المظلوم على الخنوع والذل، ويعوِّد الظالم على القسوة والبطش والعدوان. وهذا هو ما حدث لكل من شخصية المرأة والرجل في ظل قوانين الزواج الجائرة. إن شخصية الرجل لا تُترك لطبيعتها تنمو في مناخ عادل، ولكنها تنمو في مُناخ يفرض عليه أن يكون مسيطرًا، وظالمًا لزوجته أو بناته اللائي هو يحبهن لو تُرك لطبيعته. وفي ظل الزواج يُضحَّى بالزوجات والبنات من أجل طموح الرجال.

وبرغم إدراك المرأة لهذا المصير التعس لها، فإنها تدرك أيضًا أنه المصير الوحيد المقبول لها اجتماعيًّا. إن المرأة لا تختار بين الزواج أو عدم الزواج، ولكنها يجب أن تتزوج، وإلا

فإن المجتمع لن يقبلها ولا يحترمها، وفوق كل ذلك لا يعتبرها امرأة طبيعية. ومهما بلغت المرأة من الذكاء وتفوقت في عملها ونبغت ثُمَّ لم تتزوج فلا بدَّ أن هناك عيبًا فيها.

وقد أفسد الزواج مفهوم الرجولة كما أفسد مفهوم الأنوثة. إن مفهوم الرجولة أصبح يعني امتلاك القوة، وما يتبع امتلاك القوة من تميز. إن الزوجة التي تطلب أن تتساوى بزوجها تُتَّهَم بأنها تحاول أن تسلب رجولة زوجها أو تجعله بغير رجولة؛ ولهذا تخشى الكثير من الزوجات المطالبة بهذا الحق، ويصبح الزوج الذي يساوي بين نفسه وبين زوجته أقل رجولة أو تجعله بغير رجولة؛ ولهذا تخشى الكثير من الزوجات المطالبة بهذا الحق. ويُصبح الزوج الذي يساوي بين نفسه وبين زوجته أقل رجولة من ذلك الذي يحكمها ويجعلها خاضعة (يسمونه الرجل الحمش). ويحاول كل رجل أن يثبت رجولته، وذلك بأن يكون «حمشًا»، وأن يحكم زوجته بيد من حديد. وهذه المحاولة تضع على الرجال عبئًا نفسيًّا مستمرًّا؛ لأن عليه أن يقدم الدليل على رجولته عن طريق إظهار قوته وسيطرته. وبهذا يتعلم الرجل كيف يكون ديكتاتوريًّا، تخدش رجولته أي مخالفة صغيرة من زوجته أو أطفاله، ولا يطيق أن يناقشه أحد. ويزيد من بطش الرجل أنه الذي ينفق على زوجته وأولاده، وأنهم (إذا غضب وامتنع عن الإنفاق عليهم) لا يجدون أي مأوًى آخر. كثيرًا ما سمعت من الأبناء والبنات هذه الجملة: «إنه ينفق علينا؛ ولهذا فنحن نطيعه خوفًا من ألا يدفع لنا مصاريف الكلية ويضيع مستقبلنا»، والزوجة التي لا تعمل والتي يعولها زوجها أيضًا تقول لنفسها: «إنه ينفق عليَّ؛ ولهذا أطيعه خوفًا من أن يطلقني، ولا أجد المأوى.»

ويصبح الرجل مطالبًا بأن يكون أقوى من زوجته، وإن لم يكن أقوى منها حقيقة، فلا بدَّ أن يظهر للناس أنه الأقوى بأي شكل. ويتعلم الولد أن يكون أقوى من أخته البنت، فإن لم يظهر أقوى منها فلا بدَّ أن يُظهر للناس أنه الأقوى، لكنه يشعر في أعماقه أنه أضعف، ويعذبه هذا الشعور، ويحاول إخفاءه بجهد نفسي أكبر؛ وبذلك يبالغ في سيطرته وقسوته ليظهر للناس أن له رجولة قوية، لكن هذا المظهر القوي والبالغ في قوته يصبح أكثر تناقُضًا مع حقيقته الداخلية، وهو أنه ضعيف؛ وبذلك يزداد إحساسه بضعفه، ويُضْطَر إلى مضاعفة قوته الظاهرية، وهكذا … حتى يصبح الرجل كالبالونة المنفوخة، كبيرًا من الخارج، ومن الداخل خاوٍ، أو كالديك المنفوش الذي يزيد من حجمه بأن ينفش ريشه. وكثيرٌ من الأزواج يبدون كالديوك المنفوشة، حجمهم أكبر من حقيقتهم، وقسوتهم الظاهرية تخفي رغبة عنيفة للبكاء على كتف امرأة، بشرط ألا تكون زوجته؛ ولهذا يتسلل معظم الأزواج في الليل من جوار زوجاتهم ويلجئون إلى امرأة أخرى. إن الذي يدفعهم إلى

ذلك في معظم الأحيان ليس هو الحرمان الجنسي، وإنما هو الحرمان من أن يكون الرجل على طبيعته، وأن يظهر ضعفه الذي يخفيه أمام زوجته إلى الأبد. إن بعض النساء اللائي قابلتهن في سجن القناطر، والمحبوسات في قضايا الدعارة، ويُطلَق عليهن المومسات، بعض هؤلاء النساء اعترفن لي ببعض الحقائق والتجارِب التي مرت بهن، قالت إحداهن لي: إن بعض الرجال كان يطلب منها أن يأخذ هو وضع الأنثى. وقالت أخرى: إن بعض الرجال كان يطلب منها أن تقسوَ عليه ببعض الكلمات القاسية حتى يبكي. وقال أخرى: إن بعض الرجال كان يطلب منها أن تصفعَه أو تضربه، حتى يشعر باللذة.

وقد وجد كينزي وماسترز وجونسون في بحوثهم عن الحياة الجنسية للرجال والنساء أن الرجال لا يختلفون عن النساء في رغباتهم، ومنها رغبة الماسوشية. وقد لاحظ فرويد وزملاؤه أن كثيرًا من الرجال مُصابون بالماسوشية، لكنهم لم يحاولوا أن يفهموا الأسباب الحقيقية لهذه الماسوشية، وإنما أرجعوها إلى الفروق التشريحية أيضًا بين الجنسين، وإلى عقدة أوديب في الطفولة. وقال فرويد: إن الماسوشية ليست إلا سادية الرجل. وقال إن منبع الماسوشية السادية هو الطفولة التي يعاني منها الطفل من ازدواجية الشعور، وهو الحب والكراهية في الوقت نفسه لأبيه وأمه، وعقدة أوديب في الولد والبنت هي منبع ذلك. لكن أرنست جونز كان متأثِّرًا بأفكار فرويد، ولم يصل إلى الأسباب الاجتماعية التي تجعل الطفل يعاني من ازدواجية الشعور، وتصور أن سبب ذلك هو عقدة الإخصاء في الطفل الذكر أو عقدة حسد عضو الذكر في الطفلة الأنثى، أي إنه عاد مرة أخرى إلى الفروق التشريحية بين الذكر والأنثى.

وقد كان «ألفريد أدلر» هو أول طبيب من أطباء النفس يرفض أفكار فرويد عن الفروق التشريحية بين الجنسين، وأول من ينبه الأذهان إلى الأسباب الاجتماعية في الفروق النفسية بين الجنسين، سواء في مرحلة الطفولة أو مراحل العمر بعد ذلك. وقد كتب أدلر يقول: «إن الأسباب الأساسية لهذه الظاهرة غير السعيدة (في حياة الأطفال والرجال والنساء) ترجع إلى الأخطاء في حضارتنا.»

إن ما يميز حضارتنا هو الاضطهاد، وهذا الاضطهاد يمتد ويؤثر في جميع نواحي حياتنا. إن هذه الأكذوبة بأن المرأة جنس أدنى، وما يقابلها من أكذوبة أخرى بأن الرجل جنس أعلى، يفسدان على الدوام علاقة المرأة بالرجل، ويشوهان الانسجام بينهما. وقد نتج عن ذلك حدوث توتر غير طبيعي في جميع العلاقات الجنسية، وهذا التوتر يهدد بل إنه يقضي تمامًا على أية فرصة للسعادة بين الرجل والمرأة.

إن جميع أشكال الحب في حياتنا قد تسممت وشُوِّهَت وفسدت بذلك التوتر؛ وهذا هو السبب في أننا من النادر جدًّا ما نصادف زواجًا سعيدًا، وهذا هو السبب في أن كثيرًا من الأطفال يكبرون ويكبر معهم الشعور بأن الزواج شيء كريه بالغ الصعوبة والخطورة ... ويكفي أن الأطفال يُجبَرون على أن يتبعوا ذلك السلوك الشائع وهو إلغاء واحتقار الجنس الآخر (النساء).

وقد أوضح بعض علماء النفس المتنورين في السنوات الأخيرة أسباب الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الأزواج والزوجات، ويسمونها «أمراض الزواج النفسية»، وأهمها تلك العلاقة السادية الماسوشية التي تتميز بها علاقة الرجل والمرأة الجنسية، وغير الجنسية أيضًا. وقد وُجد أن «كلا الجنسين يمارسان السادية والماسوشية معًا»، واتضح أن الماسوشية والسادية وجهان لعملة واحدة، وأن الشخص السادي لا بدَّ أن يكون ماسوشيًّا أيضًا، سواء كان ذكرًا أو أنثى.» وقد وُجد أن الأزواج والزوجات (في ظل قانون الزواج الجائر) يُصابون جميعًا بالسادية والماسوشية، أو السادوماسوشية Sadomachosism، وأن هذا المرض النفسي ينتقل إلى الأطفال بالطبع منذ أول يوم في ولادتهم؛ لأنهم يعيشون في جو سادوماسوشي، ويلقَّنون عن طريق التربية المبادئ السادوماسوشية، ويصبح الطفل مزدوجة الشعور؛ فالطفل سواء الذكر أو الأنثى يحب أباه، لكنه يكرهه (بسبب خوفه من سيطرته وقوته)، والطفل سواء الذكر أو الأنثى يحب أمه ولكنه يكرهها أيضًا (بسبب احتقاره الداخلي لها كالجنس الأدنى)، والطفل الذكر يحب أخته لكنه يكرهها (لأنه يخاف أن يكون مثلها ينتمي إلى الجنس الأدنى)، والطفلة الأنثى تحب أخاها لكنها تكرهه (لأنه تحسده، وتودُّ أن تصبح مثله وتنتمي إلى الجنس الأعلى). وهكذا يدور أفراد الأسرة الأبوية في دوامة ازدواجية المشاعر، ويتمزقون (منذ الولادة حتى الممات) بين مشاعر الحب الإنسانية الطبيعية فيهم وبين مشاعر الكراهية المفروضة عليهم اجتماعيًّا من قانون الزواج الجائر؛ وحيث إن الزواج هو مصير الناس جميعًا فإن العلاقات بين البشر فسدت وتمزَّقت بين الحب والكراهية. ولم ينتج عن ذلك إلا ذلك الخلل الإنساني في العلاقات جميعًا، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الشعوب أو الدول، وأصبحت لغة التفاهم بين البشر هي الحرب والقتل والسطو، البلاد الكبيرة تسطو على البلاد الصغيرة، وحين تهب البلاد الصغيرة للدفاع عن نفسها تنشب الحرب في العالم؛ ولهذا نشبت الحرب العالمية الأولى والثانية، وأصبح العالم مهدَّدًا بحرب ثالثة يتوقعها الجميع وينتظرونها بين لحظة وأخرى. وكما يدعي الزوج أن قسوته على زوجته ليست إلا بسبب الحب والرغبة في الحماية، فإن البلاد

الكبيرة التي تشعل الحرب والدمار في البلاد الصغيرة تدَّعي أن هذه الحرب وهذا الدمار في البلاد الصغيرة ليس إلا بسبب الحب والإنسانية والرغبة في الحماية. إن كلمة «الحماية» ارتبطت بكلمة الحرب والاستعمار؛ وهكذا تحت ستار الحب والحماية تحدث أشد الأعمال ظُلمًا وفتكًا واستغلالًا. وقد كتب رونالد لينج يقول: «إننا نحطم أنفسنا بالعنف الذي يُستتنكر على شكل الحب.»

إن النظرة العلمية الشاملة للحياة والناس هي التي تجعلنا ندرك مساوئ القوانين الظالمة، وندرك آثار هذه القوانين الضارَّة الممتدة إلى مختلف قوانين الزواج في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا. وجدت أنه ليس هناك من قانون ظالم على وجه الأرض أكثر من قانون الزواج، وليس هناك من اضطهاد في تاريخ البشرية مثل اضطهاد الرجال للنساء، وإليكم بعض الأمثلة من مختلف العصور ومختلف الشعوب.

كان من حق الرجل أن يقتل زوجته كما يقتل عبيده في العهد الأول لإنشاء الأسرة الأبوية، ولم يكن لأحد أن يسأله عن السبب. وكان من حق الرجل أيضًا أن يقتل أطفاله؛ فقد كان هؤلاء يُعتبَرون ملكًا خاصًّا للرجل كقطعة الأرض التي يمتلكها، وله حرية التصرف فيها، وكانوا جميعًا يسمَّوْنَ بالعبيد (الأطفال والنساء الذين يملكهم الأب). وإن كلمة أسرة Family في أصلها اللاتيني جاءت من كلمة Familia ومعناها عدد العبيد الذين يملكهم رجل واحد. وفي العصور الوسطى لم يكن حال الزوجات بأحسن حالًا من هذا، وكانت مخالفة الزوجة في أي شيء تُعتبَر نوعًا من الجنون أو السحر والاتصال بالشياطين، وكان هؤلاء النساء أو الساحرات الشريرات يُسَقن إلى السجن أو المستشفى العقلي أو التعذيب أو الحرق حتى الموت.

إن الذي يدرس التاريخ ويتتبع تطور الزواج في المجتمعات المختلفة يندهش لهذا الظلم الذي وقع على المرأة لسنوات طويلة ممتدة، منذ أنشأ الرجل أسرته الأبوية. وفي تاريخنا المصري القديم كان الزوج والزوجة متساويين تمامًا، وفي الأسرتين الثالثة والرابعة كانت المرأة في ذلك الوقت تنسب أطفالها إليها. وعندما سيطر الحكم الإقطاعي على الحكم في عهد الأسرة الخامسة فرض الرجل نظامه الأبوي ليرث الأب أبناءه. وبدأ مع النظام الأبوي تعدد الزوجات ثُمَّ نظام التسرِّي (الْمَحْظِيَّات)، ويبدأ الأطفال غير الشرعيين. وقد حدثت أول ثورة اشتراكية في التاريخ البشري ضد الإقطاع، وذلك سنة ٢٤٢٠ قبل الميلاد، في عهد الأسرة السابعة، وهي عهد الثورة التي عُرفت باسم ثورة «منف» ضد الإقطاع والملوك. وقد حرق المصريون القصر الملكي نفسه، ونادَوْا بتكافؤ الفرص في الامتيازات الجنائزية، ونادَوْا

باحتقار الملكية. لكن بعض المؤرخين صوَّروا هذه الثورة بشكل مُعادٍ، وصوروا الأزمة على أنها مجرد تغيير الأيدي القابضة على الثروات. وقد كتب بعض هؤلاء يقول: «إن أولئك الذين لم يكن في مقدورهم أن يأمروا بصنع صندل لأقدامهم قد استولوا على الكنوز.»

وقد عاد الإقطاع مرة أخرى، وثار الشعب مرة ثانية سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد ضد الإقطاعيين من الفراعنة، وجاءت الأسرة العاشرة ونظام «الرودو» وقُضي على نظام التسَرِّي، واختفت ظاهرة الأطفال غير الشرعيين. ثُمَّ عاد الإقطاع في عهد الإقطاع الثاني عام ١٠٩٤ قبل الميلاد، حين استولى «حرحور» الكاهن الأعظم على السلطنة، وعاد نظام التسَرِّي، وأصبح للرجل وحده حق الطلاق.

وفي عهد الملك بوكخوريس من الأسرة ٢٤ بعد القضاء على العهد الإقطاعي الثاني عام ٦٦٣ق.م، تحرر الأبناء من سلطة الأب، واستردت المرأة حقوقها، وتحرر الزواج من سلطة الكهنة؛ فلم يعد الزواج ذا قدسية دينية. وقد اتضح أنه مع النظام الأبوي فلا بدَّ من وجود نظام تعدد الزوجات والتسري (المحظيات).

وقد قال خطيب اليونان الشهير «ديموستين»: نحن نحتفظ بالعشيقات لمتعتنا، وبالمحظيات ليقمن على خدمتنا اليومية، أمَّا الزوجات فلكي يكون لنا الأبناء الشرعيون، وليكن مدبرات أمينات لبيوتنا.»

وفي الأسرة العبرية الأبوية كان من سلطة الأب أن يقتل أبنائه. وقد خضع إسحق لأبيه إبراهيم عندما أراد أن يذبحه للإله «يهوه» (أو يهودا)، أمَّا الملك سليمان (كاتب نشيد الإنشاد) فقد كان له ٧٠٠ من النساء و٣٠٠ من السراري.

وقد كان أخناتون (١٣٧٢ق.م) هو أول من بدأ شريعة توحيدية، واتخذ معبودًا واحدًا هو رع حاراختي الذي يتألق في الأفق بمظهره «شو» النور، ويكمن في قرص الشمس.

وقد تولى على المجتمع المصري بعد حضارة الفراعنة حضارات الإغريق، ودخول الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ق.م، ثُمَّ الرومان قبل الفتح الإسلامي. وقد كان للعرب حضارة قبل الحضارة الإسلامية، ويقول المؤرخون: إن المرأة في العصر الذي سُمِّيَ بعصر الجاهلية كانت هي التي تختار زوجها وتحادثه في أمر الزواج، وكان الأطفال يُنسَبون للأم في بعض القبائل. والمرأة العربية في البادية لم تعرف الحجاب، وكانت تخالط الرجال بعكس حياة المرأة في المدن. ومن ملوك العرب قبل الإسلام من نسب لأمه كعمرو بن هند، ومنهم من نُسب إلى أبيه. وكان نظام القرابة في تلك القبائل يقوم على أساس الأم لا الأب، وتبقى المرأة بعد زواجها فردًا في عشيرتها، وينتقل زوجها للعيش معها، وكان لها الحق في اختيار

زواجها وتطليقه. ويكتب أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني يقول: «والبدويات منهن حين يطلقن أزواجهن يحولن خيامهن إن كانت إلى الشرق فإلى الغرب، أو كانت إلى الجنوب فإلى الشمال.» وكان الطلاق يتم بمجرد أن تحول المرأة باب خيمتها، أمَّا في المدن فلم يكن للمرأة حقوق نساء البادية، وكان الزواج عقد بيع وشراء.

وكان في العصر الجاهلي نوع من الزواج يُسمَّى ﺑ «زواج المشاركة»، وهو صورة من نظام تعدد الأزواج، حيث تتزوج المرأة بعدد من الرجال بشرط ألا يزيد عن عشرة رجال وإلا اعتبرت من البغايا.

وعن حديث للسيدة عائشة عن الجاهلية تقول: «أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها، فإذا حملت ووضعت تُرسل إليهم فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع، فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدتُ، فهو ابنك يا فلان ... تسمي من أحبت باسمه ... فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل.»

وكان عند العرب أيضًا نوع من النكاح يُسمَّى نكاح الاستبضاع، وصفته السيدة عائشة في حديثها؛ بأن الرجل كان يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: «أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه»، ويعتزلها زوجها ولا يمسُّها حتى يتبينَ حملها من ذلك الرجل الذي تستمتع منه (غالبًا رجل عظيم؛ لأن الزوج يريد ابنًا من نسل ممتاز، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب)، وكان الطفل المولود يُعتبَر ولدًا للزوج الشرعي وليس للرجل العظيم الذي جاء من صلبه. ونكاح الاستبضاع صورة أخرى من نظام تعدد الأزواج، ولا زال أثره واضحًا في حالات بعض النساء العاقرات حتى يلدن.

وكانت الأسيرات تعتبرن كما اعتبرهن الإسلام فيما بعد ملكًا لليمين. وقد عرف العرب نوعين من الزواج: بالشراء وزواج الصديقة. وكان الزواج بالشراء هي أن تصبح الزوجة جارية لزوجها لا يطلق سراحها إلا حين يبيعها لسيد آخر لو أراد. أمَّا زواج الصديقة فهو ألا تكون المرأة جارية، وإنما زوجة صديقة لزوجها. وقد أخذ الإسلام بالنظام الثاني فقط وهو زواج الصديقة؛ ولذلك سَمَّى المهر «بالصداق». وقد أباح الإسلام معاشرة الزوج الجنسية للرقيقات (ما ملكت أيمانكم) الجواري، دون أن يسمي ذلك زواجًا، بل سماه «تسريًّا»، والسيد ليس ملزمًا مُطلَقًا بأن يعترف بالولد الذي تلده إحدى جواريه، وإذا اعترف يصبح الولد حُرًّا، وتصبح أمه حرة بعد وفاة سيدها.

وقد أباحت المسيحية أيضًا للزوج أن يحتفظ بنساء أخريات في منزله مع زوجته، وسمى هؤلاء النساء بالسراري. ولا زال المجتمع الحبشي المسيحي حتى اليوم يبيح للزوج

أن يحتفظ بهؤلاء السراري في بيته. وقد أُلغي نظام السراري أو التسري في مصر في نهاية القرن العاشر (في عهد الأنبا أبرام بطريق الإسكندرية، الذي قُتل بسبب ذلك سنة ٩٧٠).

وينص قانون نابليون (عنه أُخذ القانون المصري) على حق الرجل في خيانة زوجته ما دام لا يُحضر عشيقته إلى منزل الزوجية، أمَّا الزوجة فإنها عرضة لأشد العقاب إذا قدمت على خيانة زوجها.

ومن كثرة الخيانات الزوجية قضت المادة ٣١٢ قانون نابليون، على أن الطفل الذي يولد أثناء الزواج يُعتبَر ابنًا للزوج. وقال الإمام أبو حنيفة: إن عقد الزواج الصحيح وحده سبب في ثبوت نسب الولد لأبيه.

وكانت مصر تأخذ بهذا الرأي حتى سنة ١٩٢٩، ثُمَّ أخذت برأي أحمد بن حنبل والشافعي ومالك الذين يقولون: إن الدخلة أو الدخول لا بدَّ أن يكون ممكنًا ليثبت النسب. والشريعة اليهودية تجرد المرأة من جميع حقوقها في مختلف مراحل حياتها، وتجعلها تحت وصاية أبيها وأهلها قبل زواجها، وتُنزلها في كلتا الحالتين منزل الرقيق، وتبيح الديانة اليهودية للأب الفقير أن يبيع ابنته بيع رقيق لقاء ثمن من المال، وإذا مات شخص دون أن ينجب ذكورًا تصبح أرملته (تُسمَّى عند اليهود «ياباماه») زوجة لشقيق زوجها أو أخيه لأبيه، سواء رضيت بذلك أم كرهت.

وتنص الشريعة الهندية البرهمية على أن المرأة تظل طول حياتها تحت سيطرة الرجل، وتنص المادتان ١٤٧ و١٤٨ من قوانين مانو على أنه: «لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغباتها الخاصة حتى لو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها» (مادة ١٤٧)، ففي مراحل طفولتها تتبع والدها، وفي مرحلة شبابها تتبع زوجها، فإذا مات زوجها تنتقل الوصايا إلى عمومتها أو الأقرباء، وفي حالة عدم وجود هؤلاء انتقلت الولاية إلى الحاكم (مادة ١٤٨). وورد في المادة ٣٣ من الكتاب الثالث من قوانين مانو (وهو كتاب مقدس لديهم، يؤمنون أن مؤلفه إله منبثق عن الإله الخالق براهما) أنه: «إذا استولى رجل على امرأة بالقوة، وسباها من منزل أهلها وهي تبكي وتصرخ في طلب النجدة، وانتصر على من حاولوا مقاومته، فقتلهم أو جرحهم، فإن طريقته هذه تُسمَّى طريق الجبابرة أو العمالقة Mode des Hents، وتنص المادة ٢٣ و٢٥ و٢٦ من الكتاب الثالث على أن طريقة الجبابرة طريقة مشروعة للزواج في طبقة الكشتريين (رجال الحرب).

والمرأة في القانون الروماني ليست أحسن حالًا منها عند الشريعة الهندية البرهمية، بل يزيد على ذلك أن الأب ليس له حق بيعها كالرقيق فحسب، ولكن له حق قتلها أيضًا،

وبعد الزواج يحل الزوج محل الأب في السيطرة عليها وامتلاكها. وقراءة تاريخ العرب إبَّان العصر الجاهلي تقودنا إلى أن ندرك أن العبيد والإماء (الرقيق) كانوا قوام الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت، وأنهم كوَّنوا من كثرتهم طبقة اجتماعية كبيرة. وكانت الإماء (العبيد من النساء) يُستخدمن بواسطة مالكهن في الخدمة بالبيت والطهي وجمع الحطب والغناء والرقص وإشباع رغبات الرجل الجنسية أيضًا، وفي بعض الأحيان كان المالك يشغلهن بالبغاء من أجل كسب المال من ورائهن.

ويكتب الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه عن القيان والغناء في العصر الجاهلي يقول: «ولم يكن هؤلاء السادة يكتفون بأن تكون إماؤهم القوَّامات على شئون منازلهم ورعاية أمورهم، وأن يكُنَّ في الوقت نفسه متاعًا فنيًّا لهم أو متعة جسدية، بل تجاوزوا ذلك كله إلى أن اتخذوهن متجرًا ومكسبًا ومأكلةً، يُدِرُّون عليهم الربح كما تُدِرُّه أنواع المعايش الأخرى. ذكر ابن حبيب أن من سننهم في الجاهلية: «إنهم كانوا يكسبون بفروج إمائهم، وكان لبعضهم راية منصوبة في أسواق العرب، فيأتيها الناس فيفجرون بها» (المحبر: ٢٤٠)، وكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، وقد روى عن ابن عباس (تفسير الطبري — الميمنية بمصر ١٨: ٩٢-٩٣)، أنه قال: كانوا في الجاهلية يُكرِهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهن، فجاءت الآية الكريمة في القرآن: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وذكر النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) على هامش الطبري (١٨: ٨٧) أنه: «كان لعبد الله بنِ أُبَيٍّ رأسِ النِّفاق ستُّ جَوَارٍ: مُعاذَة وأُمَيْمَة ومسكية وعَمْرة وأَرْوَى وقتيلة، يُكرهن على البغاء؛ أي الزنا، فشكَت اثنتان منهن: معاذة ومسكية إلى رسول الله.» ويحكى التاريخ عما كانت تتعرض له هؤلاء الجواري من تنكيل وتعذيب وقتل إذا تمردن على أسيادهن، أو خالفنهن، أو إذا تغنين بأشعار تهجو عظماء القوم أو زعماء القبائل. وكان بعض هؤلاء الجواري من الجرأة والتمرد أنهن كن يتَغَنَّيْنَ بهجاء المسلمين ورسول المسلمين. ويقول ناصر الدين الأسد: إن ممن أمر الرسول بقتلهم يوم دخل مكة هي «سارة»، تلك الجارية المغنية التي كانت تهجو المسلمين. وقال البلاذري (فتوح البلدان — أبريل سنة ١٨٦٦ — ١: ١٠٢): «وكان بالنجير نسوة شَمَتْنَ بوفاة الرسول ﷺ، فكتب أبو بكر رضي الله عنه في قطع أيديهن وأرجلهن، منهن: الشبجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودية.» ويصف الطبري (تاريخ الطبري ٤: ٢٠١٤-٢٠١٥) كيف كان مثل هؤلاء الجواري تُقطع أيديهن وتُنزع أسنانهن وثَنِيَّاتهن. وكان نزع الثَّنِيَّة رمزًا لعقاب الغناء.

ويَرْوُون أن هؤلاء النسوة كن يخضبن أيديهن ويظهرن محاسنهن ويضربن بالدفوف جرأةً منهن على الله، واستخفافًا بحقه وحق رسوله؛ ولهذا كان لا بدَّ من قطع أيديهن وثنيتهن.

وكان نظام العرب في الجاهلية يعطي الرجال الوصاية على النساء والتحكم فيهن، وكان الأب يزوِّج ابنته على كره منها من أجل المال. وكانت الزوجة إذا مات زوجها جاء أخوه أو عمه وألقى ثوبه على زوجة المتوفَّى وقال: أنا أحق بها. ثُمَّ إن شاء استبقاها لنفسه، وإن شاء زوَّجها غيَّره وقبض ثمنها، رضيت بذاك أم كرهت، وإن شاء حَرَمها من الزواج تمامًا لتفتديَ بما ورثت من زوجها من مال.

وكانت المرأة عند بعض قبائل العرب تؤخذ بالقوة، ويُباح للرجل الذي يستولي عليها بالقوة وينتصر على غيره من الرجال في الاستيلاء عليها بالقوة، وأن يعاشرها معاشرة الأزواج، سواء حدث ذلك السبي في حرب نظامية أو عن طريق المباغتة والخطف. ويكتب حاتم الطائي يصف هذا في شعره:

فما أنكحونا طائعين بناتهن ولكن خطبناها بأسيافنا قسرًا

وكان النساء يبذلن ما ملكْنَ من جهد وحيلة للخلاص من هذا السباء ولو إلى الموت؛ أنفةً واستحياءً على ذِكْرِ آلِهِنَّ وذَوِيهِنَّ. ومن أمثلتهن في ذلك: «الْمَنِيَّة ولا الدَّنِيَّة.» كما حدثوا أن فاطمة بنت الخرشب لما أسرها جمل بن بدر رمتْ بنفسها من الْهَوْدَج منكسة فماتت (الأغاني، ج١٦، ص٢١).

وكان الأب يقتل ابنته المولودة، وسُمِّيَ ذلك بوأد البنات، وكانت هناك قبائل تمارس وأد بناتها مثل ربيعة وكندة وتميم.

وللعرب في الجاهلية غير السباء والوأد حالات أخرى اضطهدوا فيها المرأة في نواحٍ أخرى من الحياة، لكن المرأة كأم كانت لها قيمتها، وكان الأطفال يُنسَبون إلى الأم وليس إلى الأب في قبائل مثل خندق وجديلة، وكان رسول المسلمين يُنسَب إلى أمه، ويُقال عنه محمد بن آمنة، وكان يقول عن نفسه: أنا ابن العواتك من سليم (عاتكة بنت هلال، وعاتكة بنت مرة، وعاتكة بنت الأوقص).

ولم تكن المرأة الفرنسية بأحسن حالًا من العربية أو الرومانية أو الهندية، ويجعل القانون الفرنسي من الرجل وصيًّا على المرأة، وتنص المادة ٢١٧ من قانون نابليون على أن: «المرأة المتزوجة لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعِوَض أو بغير عِوَض، بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية.»

ومعظم القوانين في الغرب والشرق تسلب من المرأة حقها ليس في مالها فحسب، وإنما في جسدها أيضًا؛ فهذا الجسد ملك لزوجها وليس ملكها، والزوج لا يعاقَب على خيانة زوجته إلا إذا أتى بعشيقته في بيت زوجته (نص قانون العقوبات المصري)، والرجل لا يعاقَب قانونًا على ممارسة البغاء، لكن المرأة هي التي تُقاد إلى السجن وحدها، والزوجة التي تخون زوجها في أية حالة تُحبس سنتان، والزوج الذي يأتي بعشيقته إلى بيت زوجته ويمارس معها الخيانة لا يُحبَس إلا ستة شهور فقط على الأكثر.

وفي معظم القوانين في أوروبا وأمريكا حتى اليوم تفقد المرأة اسمها بمجرد الزواج، وتحمل اسم زوجها رسميًّا؛ وهذا يدل على إلغاء المجتمع لشخصية المرأة، ولتضيع شخصيتها في شخصية زوجها.

ولعل من نواحي التقدم في المرأة العربية أنها لا تفقد اسمها بالزواج، ونبع ذلك من أن زوجات المسلمين في عهد الرسول لم يحملن أسماء أزواجهن، بل إن زوجات محمد نفسه لم يحملن اسمه، وظلت عائشة هي عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وغيرهن، منسوبات إلى الأب وليس إلى الزوج.

وكم ابتسمتُ بسخرية حين كنت أحضر حفلًا في القاهرة يضم عددًا من نساء الطبقات الراقية، وأسمعهن يسمين أنفسهن وصديقاتهن من الزوجات بأسماء الأزواج، وتنطق الواحدة منهن عبارة: «مدام مصطفى» مثلًا بفخر وكبرياء، متصورة أن قمة التحضر للمرأة المصرية هي أن تفقد اسمها وتُسَمَّى باسم زوجها كما يحدث في أوروبا وأمريكا. وتتسع ابتسامتي الساخرة بالطبع حين أسمع هذه السيدة نفسها تتحدث بحماس عن حرية المرأة، وقد يعتبرها من حولها إحدى زعيمات حركة تحرير المرأة في مصر والعالم العربي.

ولست بصدد مناقشة البنود الخاصة بالمرأة في مختلف القوانين، وبالذات قانون الأحوال الشخصية في مجتمعنا، ولكني أود أن أشير فقط إلى ذلك الظلم الفادح الذي لا زال واقعًا على المرأة حتى اليوم، والذي يقرأ البند «٦٧» من قانون الزواج والطلاق عندنا يستطيع أن يرى نموذجًا واضحًا بواسطة زوجها.

نص المادة ٦٧: «لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها بدون حق، أو اضْطُرَّت إلى ذلك بسبب ليس من قِبَل الزوج، كما لا تستحق النفقة إذا حُبست ولو بغير حق أو اعتُقلت أو غضبت أو ارتدت أو منعها أولياؤها، أو كانت في حال لا يمكن الانتفاع منها كزوجة.»

وليس أدل على أن قانون الزواج لا زال ظالمًا في مجتمعنا من تلك الصيحات العالية التي يطلقها في كل العهود أصحابُ وصاحبات الفكر المتنور، وأصحاب الضمير الإنساني الحريص على العدالة والحق والشرف الحقيقي.

الأمومة والأبوة

إن الإنتاج البشري (ولادة الأطفال) كأي إنتاج آخر في المجتمع يخضع للنظام الاقتصادي والاجتماعي السائد، وإذا كانت الموارد الغذائية والمادية قليلة وعدد الأطفال الذين يولَدون كثيرًا، فإن المجتمع (خوفًا من الجوع) يبيح أي شيء من أجل أن يحدث التوازن بين الموارد الغذائية والمادية وبين عدد الأطفال، وذلك عن طريقين:

(١) إمَّا زيادة إنتاج الموارد الغذائية والمادية.
(٢) أو خفض إنتاج الأطفال.

وفي العصور البدائية لم يكن العلم قد تقدم ليزيد إنتاج الموارد الغذائية والمادية، ولم يكن أيضًا قد عُرفت وسائل تحديد النسل أو عمليات الإجهاض؛ ولهذا كان الحل الوحيد أمام المجتمع هو قتل الأطفال بعد ولاتهم، ولم يكن يُنظَر إلى قتل الأطفال كجريمة أخلاقية، بل بالعكس كان يُنظَر إليها كفضيلة أو بمعنًى آخر واجبًا وطنيًّا مُقدَّسًا، ولم تكن عواطف الأمومة (كما نعرفها اليوم)، ولا مشاعر الأبوة (كما نعرفها اليوم أيضًا) تمنع قتل الأطفال؛ لأن الضرورة أُم الحاجة، والمشاعر والعواطف كالقيم الأخلاقية تتغير وتتكيف تبعًا للضرورة الاقتصادية، وهناك رأي يقول إن الأمومة من الناحية البيولوجية ومن الناحية الإنسانية أكثر قدرة على عطاء الحب للأطفال من الأبوة. وقد يكون هذا الرأي صحيحًا وطبيعيًّا، ولكن حينما تصبح المسألة حياةً أو موتًا من الجوع فإن الإنسان (رجلًا أو امرأةً) يمكن أن يفعل أي شيء من أجل أن يأكل، والمجتمع البشري أيضًا، حينما تصبح المسألة بالنسبة إليه حياةً أو موتًا فإنه يمكن أن يضع أي قوانين وأي قيم أخلاقية ويجعلها مقدسة من أجل أن يعيش ويبقى. إن الحرية الجنسية وإنجاب الأطفال بكثرة خارج الزواج أو داخله قد تصبح واجبًا وطنيًّا تُكافَأ عليه الأم

(المجتمع السويدي اليوم) من أجل زيادة الإنتاج البشري وبالتالي الأيدي العاملة، وقد يكون إنجاب أكثر من طفلين داخل الزواج (وليس خارجه) حدثًا تستحق عليه الأم العقاب في بعض المجتمعات النامية التي تدعو إلى تحديد النسل اليوم. وبرغم أن القيم الأخلاقية والدينية قد تتعارض في بعض المجتمعات مع الحرية الجنسية أو مع الإجهاض، أو مع تحديد النسل، أو مع عقاب الأم التي تلد أكثر من طفلين أو ... أو ... إلا أن المجتمع قادر دائمًا على تطويع القيم الأخلاقية والقيم الدينية حسب ضروراته الاقتصادية، بل حسب النظام الاقتصادي الذي يفرضه أصحاب السلطة والحكم، ويستطيع رجال الدين دائمًا في كل عصر من عصور التاريخ أن يطوِّعوا دينهم حسب النظام الإقطاعي مثلًا، فإذا تغير النظام الإقطاعي وأصبح نظامًا رأسماليًّا فإن رجال الدين يجدون بسرعة في دينهم ما يتفق مع الرأسمالية، فإذا تغير النظام الرأسمالي وأصبح اشتراكيًّا فإن رجال الدين يجدون بسرعة في دينهم ما يتفق مع الاشتراكية ... وهكذا ...

إن القيم الأخلاقية والنفسية كالملابس التي يرتديها البشر فوق أجسامهم، تتغير وتتبدل حسب الظروف الاقتصادية، (الملابس تلعب دور الإعلان عن طبقة الشخص الاجتماعية أكثر ما تلعب دور إخفاء الجسم أو تدفئته)، في المجتمعات البدائية والفقير كان العُري شيئًا طبيعيًّا، لكن في بعض المجتمعات اليوم يُعتبَر عملًا غير أخلاقي، وقد يقود إلى السجن، ومن يدري ربما يصبح العُري فضيلةً أو واجبًا وطنيًّا في بعض المجتمعات في المستقبل حين يمنع الفقر الشديد أغلبية الناس من شراء الملابس.

وهكذا نرى أنه من المهم أن ندرس الأنثروبولوجيا؛ لنعرف الدوافع الحقيقة وراء بعض النظريات النفسية عن الأمومة، أو علاقة الطفل بالأم والأب، وألا نأخذ هذه النظريات كمسلَّمات غير قابلة للمناقشة.

إن علاقة الأم الفلاحة الفقيرة بأطفالها التسعة أو العشرة تختلف تمامًا في المجتمع نفسه عن علاقة الأم الثرية الأرستقراطية غير العاملة بطفلها الوحيد، وعلاقة الأم بأطفالها في أفريقيا تختلف عنها في آسيا، كما تختلف عن علاقة الأم بطفلها في النظم الأبوية. وهكذا فإن النظام الاجتماعي والاقتصادي والثقافي هو الذي يحدد مفهوم الأمومة، ومفهوم الطفولة، ومفهوم الأبوة، وعلاقة كل هذه المفاهيم بعضًا بالبعض، ودور كل منها في الحياة.

وتكتب مارجريت ميد تقول: إن الطفل المولود في قبيلة إياتمول بمجرد أن يبلغ بضعة أسابيع من عمره، فإن أمه تكف عن أن تحمله أو تُجلسه في حجرتها، ولكنها تُجلسه في مكان بعيد عنها على دركة عالية، حيث تتركه يبكي طويلًا من شدة الجوع

قبل أن تطعمه. وفي «موند بخدمور» فإن النساء يشعرن بكراهية شديدة نحو الأطفال ونحو عملية إنجابهم وتربيتهم، وتحمل الأم طفلها في سلة خشنة تؤلم جلد الطفل، ثُمَّ حين يكبر قليلًا تضعه على كتفها بعيدًا عن صدرها، وتُرضع الأم طفلها وهي واقفة، ثُمَّ تدفعه بعيدًا عنها قبل أن يشبع أو يكاد.

والفلاحة المصرية الكادحة التي تعمل ليلًا ونهارًا في الحقل وفي البيت، تترك طفلها عاري الأرداف على الأرض، يبكي ويزحف ويلعق التراب بأنفه ولسانه، ويبول ويتبرز عدة مرات على الأرض، ويلعب بأصابعه الصغيرة في التراب المبلل بالبول والبراز، وحين تنتهي الأم الفلاحة الكادحة من عملها تنتبه إلى طفلها، وتدس في فمه ثديها الضامر الناحل (من قلة التغذية وكثرة الإجهاد)، ويصرخ الطفل من شدة الجوع وهو يشدُّ حلمة الثدي الخالي من اللبن تقريبًا.

وفي معظم الأحيان يُصاب هذا الطفل بالنزلة المعوية بالإضافة إلى نقص التغذية، ويقضي بضعة أيام وهو غارق في بركة صغيرة عفنة من القيء والبراز السائل المندفعين بغير انقطاع من فمه وفتحة الشرج على التوالي. كل ذلك والأم (بسبب فقرها وبسبب جهلها وبسبب انشغالها فيما هي فيه) عاجزة عن فعل أي شيء، ويموت هذا الطفل بالطبع، وتلفعه الأم في قطعة من الملابس القديمة البالية، وتدفنه بيدها في حفرة الأرض كما تدفن أرنبًا ميِّتًا.

كنت أرى هذه المناظر بعيني حين عشت في الريف وحين اشتغلت طبيبة في إحدى القرى الفقيرة. وكنت أرى الأم تلد خمسة عشر طفلًا فلا يعيش منهم إلا ثلاثة أو أربعة ويموت الباقي. وكان موت الأطفال لكثرته يُعتبَر شيئًا طبيعيًّا كموت كتاكيت الفراخ، وقد تحزن الأم الفلاحة أكثر على موت الكتاكيت؛ وليس ذلك لقسوة الأم وإنما لقسوة الظروف الاقتصادية التي لا تعطي الأم الطاقة النفسية أو الجسدية لحب أطفالها.

وقد تتدخل الظروف الاجتماعية القاسية وتجعل الأم (من الطبقة المتوسطة أو فوق المتوسطة) تقتل طفلها الوليد، أو تتركه وحده في الليل بجوار جامع؛ لأن الأب رفض الزواج منها، وقد تتخلى الأم المطلقة عن أطفالها تمامًا من أجل أن تعيش في كنف زوج آخر يرفض بقاء أطفالها معها … وهكذا تتعدد الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تغير من علاقة الأم بأطفالها.

وكذلك تتغير علاقة الأب بأطفاله حسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وفي المجتمعات التي تشترك فيها الأم والأب في الأعمال الإنتاجية والاقتصادية فإن الأب يشترك

مع الأم في أعمال البيت وتربية الأطفال (معظم المجتمعات الاشتراكية اليوم وبعض المجتمعات الصناعية المتقدمة في أوروبا وأمريكا).

وهناك بعض المجتمعات تنفرد فيها الأم وحدها بالعمل والإنتاج، ويُترَك أمر تربية الأطفال ورعايتهم للزوج، الذي من شدة التصاقه بالأطفال تتولد لديه مشاعر قوية تربطه بالأطفال، ويستجيب لهم انفعاليًّا، ويشعر نحوهم بمشاعر الأم، ومن شدة تمثله لدور الأم فإنه يشعر مثلها بآلام الولادة (قبائل غينيا الجديدة ومانوس Manus وقبائل التشامبولي Tchambuli).

هذه ليست إلا أمثلة توضح أن تقسيم العمل بين الزوج والزوجة يتوقف على النظم الاجتماعية والاقتصادية أكثر مما يتوقف على كونهما رجلًا أو امرأة، وأن رعاية الأطفال قد تكون من نصيب الأم أو الأب أو قد تُرفع عن كاهلهما هما الاثنان، وتصبح مهمة المجتمع ودور الحضانة المتخصصة، كما هو الحال في بعض المجتمعات الاشتراكية المتقدمة. لكن الحضارة التي يعيشها العالم الحديث هي حضارة أبوية قائمة على سلطة الرجل داخل الأسرة الأبوية، والتي انتزع فيها الأب من الأم النسب، وأعطى لنفسه دور الإنتاج والخلق الفكري، وترك لها دور الخدمة في البيت وتربية الأطفال. ويقول فردريك أنجلز: «إن التقسيم الأول للعمل (في تاريخ الإنسان) حدث بين الرجل والمرأة ومن أجل رعاية الأطفال، وكان أول صراع طبقي في التاريخ هو الصراع بين الرجل والمرأة في ظل الزواج الوحداني Minogamy، وكان أول خضوع طبقي كان خضوع الزوجة لزوجها. لقد كان هذا الزواج تقدُّمًا تاريخيًّا من ناحية، لكنه من الناحية الأخرى أنتج الرق (العبيد) والملكية الخاصة، وتلك الظاهرة المستمرة حتى اليوم، وهي أن كل تقدم ليس إلا تأخُّرًا نسبيًّا؛ حيث إن تقدم مجموعة من الناس تكون على حساب شقاء وتخلف مجموعة أخرى.»

وقد دلت البحوث النفسية الأخيرة أن صحة الأطفال في الأسرة الأبوية تتأثر بعلاقة الأب والأم غير المتساوية، أو المشاكل الاقتصادية أكثر مما تتأثر ببقاء الأم في البيت طول الوقت أو خروجها إلى العمل. وأوضحت «ماكوبي» أن عمل المرأة خارج البيت هو أقل العوامل تأثيرًا في صحة الأطفال النفسية. ووجدت «ماكوبي» أن نسبة المشاكل النفسية بين المراهقين متساوية في الطبقات الفقيرة، سواء عملت الأم خارج البيت أم لم تعمل. ووصل إلى هذه النتيجة أيضًا علماء آخرون من أمثال وولتر Walter وباندورا Bandora وجلوكز Gluckes، والذي توصل أيضًا إلى أن مشاكل المراهقين النفسية تزيد في العائلات التي تتفرغ فيها الأمهات لأعمال البيت والأطفال. وفي بحث رومان (١٩٥٧) Roman اتضح أن أبناء الأمهات العاملات يتمتعن بصحة نفسية أفضل من الأمهات المتفرغات للبيوت.

المرأة والبغاء

لا يمكن لأي نظام غير عادل أن يكون منطقيًّا، والنظم الظالمة لا بدَّ أن تنتج عنها ظواهر غير معقولة ومتناقضة، وإن الحضارة الذكورية التي يعيشها العالم الحديث نتجت عنها ظواهر لا معقولة.

إن أمريكا تدفع خمسين مليون دولار لكل رجل واحد ترسله إلى الفضاء، وتدفع ألف دولار لكل رجل واحد تقتله في الشرق الأقصى أو الشرق الأوسط. على حين أن آلاف البشر يموتون في أفريقيا وآسيا من الأمراض، ولا يتكلف إنقاذ الواحد من الملاريا مثلًا إلا دولارًا واحدًا، وأن ملايين البشر الذين يعيشون في المنطقة العربية والذين يعانون من الفقر والجهل والأمراض كان يمكن أن يعيشوا حياة أفضل لو لم تمتصَّ الدول الرأسمالية الاستعمارية مواردهم الخام بأبخس الأسعار، ثُمَّ تعيدها إليهم بضائع مصنعة بأعلى الأسعار. إن الأغلبية الساحقة من ملايين البشر في العالم تعاني من الفقر والجوع والمرض من أجل أن يُثْرِيَ ثراءً فاحشًا حُفنةٌ من الرأسماليين في أمريكا وأوروبا.

ومن السهل أن ندرك التناقض في معظم القيم الاقتصادية والسياسية والأخلاقية التي تفرضها الدولة الأقوى على الدولة الأصغر، أو المجموعة القوية على المجموعة الضعيفة، أو الفرد الأقوى على الفرد الأضعف.

لا يمكن لأي قانون (في ظل عدم التساوي) أن يكون عادلًا؛ ولهذا لا يمكن لأي قانون يتناول علاقة المرأة بالرجل أن يكون عادلًا؛ لأن الحضارة الذكورية منذ نشأتها الأولى ومنذ بداية الأسرة الأبوية أعطت السلطة للرجل، وفرضت على المرأة الخضوع بالقوة. ولعل ظاهرة البغاء التي بدأت مع بداية الأسرة الأبوية تدلُّنا على تلك التناقضات الأخلاقية الصارخة، التي تميز المجتمعات الذكورية والحضارة الحديثة.

والبغاء معناه: حدوث عملية جنسية بين رجل وامرأة؛ لتلبية حاجة الرجل الجنسية، ولتلبية حاجة المرأة الاقتصادية، وبالرغم من أن الحاجة الجنسية (في الحضارة الذكورية عامة) ليست في أهمية من حاجة الرجل الجنسية، وهذا هو الأمر دائمًا في حالة عدم التساوي بين الأفراد. إن حاجة الحاكم مهما كانت ثانوية فهي أهم من حاجة المحكوم مهما كانت ضرورية، إن حاجة السيد إلى المتعة أو الترفيه أهم من حاجة العبد إلى الطعام أو النوم، إن حاجة الزوج إلى المتعة الجنسية أهم من حاجة الزوجة المريضة أو المرهقة إلى النوم، إن حاجة الرجل إلى المتعة الجنسية أهم من حاجة المرأة أو أطفالها إلى الطعام أو الكساء ... وهكذا.

وبذلك يُعطى الرجل الحق في إشباع حاجته الجنسية (داخل الزواج أو خارجه عن طريق تعدد الزوجات والخليلات والجواري والسراري وما ملكت يمينه)، وكذلك أيضًا عن طريق المومسات أو العشيقات، بشرط ألا يحضر عشيقته إلى بيت الزوجية (القانون المصري حتى اليوم).

أمَّا المرأة فهي التي تُعاقَب في جميع الأحوال، وفي جميع الظروف التي تدفعها إلى ممارسة الجنس، سواء كانت حاجة اقتصادية أو حاجة جنسية، ولا يُسمَح للمرأة بممارسة الجنس إلا مع زوجها فقط. والسؤال الذي يجب أن يُسأل هنا هو: لماذا لا يُسمَح للرجل أيضًا بعدم ممارسة الجنس إلا مع زوجته فقط؟ (زوجة واحدة وليست أكثر من ذلك، كما في حالة المرأة)، لماذا يعطي المجتمع الرجل حرية جنسية داخل الزواج وخارجه بغير شروط، وفي جميع الظروف، وجميع الأمكنة (ما عدا مكانًا واحدًا هو بيت الزوجية في حالة الرجل المتزوج)؟ هل هناك سبب تشريحي أو فسيولوجي؟ لقد اتضح من جميع هذه العلوم التي تتعلق بالجسد أو النفس أنه ليس هناك من سبب علمي يعطي الرجل حرية جنسية أكثر من المرأة، بل العكس هو الصحيح كما اتضح من البحوث البيولوجية الحديثة التي أوضحت أن الطبيعة زوَّدت المرأة بقدرة وحاجة بيولوجية وجنسية أشد من الرجل.

إن الأسباب التي دعت إلى إعطاء حرية جنسية للرجل ليست موجودة داخل جسم الإنسان، وإنما علينا أن نبحث عنها خارج الإنسان، أي في المجتمع. والسؤال الآن هو إذن: متى بدأ البغاء في العالم البشري؟!

وتدلنا معظم المصادر العلمية على أن البغاء بدأ في العالم البشري مع بدء الأسرة الأبوية، شأنه شأن «الرق»، الذي بدأ أيضًا مع بدء الأسرة الأبوية. إن الإنسان البدائي

(قبل نشوء الأسرة الأبوية) لم يعرف شيئًا اسمه البغاء، ويقول علماء الأنثروبولجيا من أمثال «مارجريت ميد» و«بروست» و«ساجنر» و«دوبوميري» و«شورتز»: إن البغاء لم يظهر في المجتمعات البدائية؛ لأن الحرية الجنسية كانت ممنوحة للشباب من الجنسين، ولم تعرف المجتمعات الأمومية البغاء؛ لأن مكانة المرأة الاجتماعية كانت عالية، وكانت لها الحرية الكاملة كالرجل. وهذا شيء منطقي. كما أن البغاء لا يمكن أن يحدث أيضًا في مجتمع يساوي بين الجنسين في القيود الجنسية. إن المساواة بين الجنسين سواء في الحرية أو في القيود تمنع حدوث البغاء، إن البغاء لا يحدث إلا إذا أُعطيت الحرية لجنسٍ، وفُرضت القيود على الجنس الآخر. وهنا يأتي السؤال: كيف يمكن أن يستخدم الجنس الحر حريته؟ ومع من يمكن أن يمارسها، طالما أن الجنس الآخر مُقيَّد؟ وبهذا كان لا بدَّ من خلق مجموعة من الجنس الآخر تكون مهمتها الوحيدة هي إرضاء رغبات الجنس الحر، وهذا هو ما حدث في التاريخ. إن الرجل حين سلب من الأم النسب وأنشأ الأسرة الأبوية لم يكن في إمكانه أن ينسب أولاده إليه إلا إذا فرض على نفسه زوجة واحدة، إنه لو فرض على نفسه زوجة واحدة كما فعل مع المرأة لما ظهر في التاريخ البغاء، ولأصبح كل النساء زوجات وكل الرجال أزواجًا.

لكن الرجل الذي أخذ السلطة في يد أدرك منذ البداية أنه لن يكتفي بزوجة واحدة، وأن المرأة أيضًا لن تكتفي بزوج واحد (كان الرجل بالفطرة واعيًا بطبيعته وطبيعة المرأة)؛ ولذلك صنع الرجل لزوجته حزام العفة الحديدي، وخصص لمتعته الجنسية نساء أخريات خارج نظام الزواج، وأطلق عليهن اسم المومسات. وقد اتضح لعلماء الأنثروبولوجيا أن نظام الزواج (الأبوي) لم يكن من الممكن له أن يعيش ويثمر لولا وجود البغاء؛ فالبغاء هو الوجه الآخر للزواج؛ لأنه من غير البغاء لم يكن من الممكن للأزواج أن يَرْضَوْا جنسيًّا إلا إذا فُرض عليهم حزام العفة كما فُرض على النساء، لكن السلطة والقوانين كانت بيد الرجال، ولم يحدث في التاريخ أن أصحاب السلطة فرضوا على أنفسهم ما فرضوه على المحكومين.

والذي يدرس تاريخ البغاء يندهش كيف برر الرجل ذهابه إلى امرأة أخرى غير زوجته، إنه بالطبع لم يُشِرْ إلى رغبته الجنسية أولَ الأمر، لكنه ألبس هذه الرغبة (كعادته دائمًا) رداءً دينيًّا مُقدَّسًا، وجعل البغاء عملًا مُقدَّسًا، وواجبًا دينيًّا تؤديه المومس في المعبد، وتنكَّر الرجل في زي الإله أو الكاهن، ومارس الجنس مع المومس على أنها عملية مقدسة.

ويقول الباحثون في تاريخ البغاء: إن الفتاة (قبل الزواج) كانت تهب نفسها جنسيًّا إلى الإله الذي يمثله كائن مقدس (لا بدَّ أن هذا الإله أو هذا الكائن المقدس كانت له أعضاء

جنسية، وإلا كيف يمكن أن تمارس معه الفتاة العملية الجنسية). وبعد ممارسة الجنس مع هذا الرجل المقدس تكتسب العذراء التقديس، وتصبح امرأة مقدسة في وقت واحد.

وقد ظل هذا السلوك في تقديس إزالة البكارة موجودًا بعد قيام نظام الكهنة؛ فأصبح الكاهن يمثل الإله، وحلت البغِيُّ المقدسة محل المرأة التي تُزال بكارتها. وفي عصور متأخرة كان الساحر أو الملك هو الذي يمثل الإله، وانتقلت عادات من هذا النوع إلى الغرب وأصبحت أساسًا لحق الملك في بعض الشعوب في مواقعة كل امرأة في ليلة زفافها.

وقد انتشر في أوروبا في العصور الوسطى حق السيد الإقطاعي في إزالة بكارة الفتيات في إقطاعيته ليلة زفافهن، وقد ورث السيد هذا الحق عن ملوك وأمراء وحكام هذه العصور، وكان يُطلق عليه Ius Primae Noctis.

وقد استطاع الرجل (وبالذات صاحب السلطة) بهذه الطريقة أن يمارس الجنس خارج الزواج مع فتيات ونساء غريبات عنه تحت اسم الواجب المقدس، وعلى أساس أن الإله قد منحه قوة خارقة للطبيعة في إزالة بكارة الفتيات.

وفي بعض الشعوب كان الأب هو الذي يقوم بنفسه بإزالة البكارة (شعوب أورانجساكي في الملايو وسومطرا وسيلان)، لكن الأغلبية الساحقة كانت من الرجال الغرباء.

ويقول العلماء: إن البغاء المقدس تطور عن تلك العملية المقدسة، وهي إزالة الرجال الغرباء لبكارة العذارى، وكان هدف البغاء المقدس عند هؤلاء الرجال هو رغبة الرجل في إمداد البغِيِّ بالقوة الخارقة التي تضمن أهليتها للإنتاج، وأن البغِيَّ المقدسة تنوب عن الآلهة في منح روادها قوة الإخصاب. ولست أدري لماذا رفضت الآلهة أن تنوب عنهم «الزوجة» في هذه المهمة بدلًا من امرأة أخرى سموها «البغي المقدسة»؟!

وكان يلحق بالهياكل في «سومر» عدد من النساء منهن خادمات، ومنهن سراري للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض (الرجال)، ولم تكن خدمة الهياكل على هذا النحو «الجنسي» يُعتبَر عارًا، بل إن الأب كان يفخر بأن يهب ابنته لتخفف ما يعتري حياة الكهنة المقدسة، ويقدم القرابين في هذا الاحتفال، كما يقدم بائنة ابنته إلى المعبد الذي تدخله.

وكان على كل امرأة من نساء بابل (كما ذكر المؤرخون ومنهم هيردوت) أن تذهب مرة في حياتها إلى معبد الإلهة ميليتا Mylitta، حيث تجلس تنتظر أي رجل يدخل إلى المعبد، فإذا أُعجب الرجل بشكلها ألقى في حجرها قطعة من الفضة، ثُمَّ مارس معها

العملية الجنسية، داعيًا لها أن ترعاها الإلهة ميليتا، ولم يكن مسموحًا للمرأة أن ترفض ما أُلقيَ في حجرها مهما كان، فإذا ما انتهت العملية الجنسية وانتهى معها واجبها الديني تركت المعبد وعادت إلى منزلها. وكانت الجميلات من النساء لا يمكثن طويلًا بالمعبد، أمَّا المرأة الدميمة فكانت تبقى بالمعبد ثلاثة أو أربعة أعوام في انتظار الرجل الذي يمارس معها الجنس لتعود إلى بيتها. وكان ما يدفعه الرجل من مال يذهب أول الأمر إلى مذبح الآلهة، ثُمَّ تطور الأمر وأصبحت النساء يحتفظن بهذا المال؛ ليدخرن منه مهور زواجهن.

وكانت عقائد البابليين تصور لهم أن الآلهة تذهب ليلًا إلى النساء المؤمنات في فراشهن لتستولدهن أبناء.

وقد استمر البغاء المقدس في بابل حتى القرن الرابع قبل الميلاد، ثُمَّ أمر بإلغائه الإمبراطور قسطنطين حوالي سنة ٣٢٥ق.م.

وكان اسم إلهة المعبد يتغير من بلد لبلد، في بابل كانت البغايا المقدسات يخدمن في معبد الإلهة ميليتا، وفي كلدانيا وسوريا وفينقيا حلت محل الإلهة ميليتا الإلهة «عشتروت Mithea»، وفي أرمينيا معبد أنايتيس Artemis، وفي مصر القديمة كان هناك الإله آمون، الذي كانت تُختار له أجمل بنات الأسر الشريفة في طيبة، فإذا كبرت الواحدة منهن في السن ولم تعد ترضيه أُخرجت من خدمته بمظاهر التشريف والتعظيم وتزوجت، ولقيت الترحيب والإجلال في أرقى الأوساط. وكانت الفتيات يتعاطين البغاء (كما يقول سترابون) حتى وقت حيضهن التالي عندما يتزوجن، وكانت البغايا المقدسات يتألفن من طبقة الكاهنات، يطلق عليهن «حريم الإله» أو حريم آمون. واشْتَهَرت في روما في معابد الرومان المقدسات لدى الآلهة برياب وباكوس وموتينوس وغيرها.

وفي قبرص ذكر هيرودوت أنه كان على كل امرأة أن تمارس الدعارة بتقديم نفسها للرجال في مذبح المعبد قبل زواجها.

وقد ظل البغاء المقدس موجودًا حتى عصرنا هذا في بلاد منها الهند واليابان، وتفتح المعابد أبوابها في الهند والسند لاستقبال الفتيات اللائي يهبن أنفسهن للآلهة، ويخصص بعض هؤلاء الفتيات لإرضاء شهوات الكهنة والبعض الآخر لإرضاء شهوات حجاج الرجال الجنسية فحسب، ولكنهن يشتغلن أيضًا كخادمات في المعبد، فينظفن أرضه ويغسلن الصحون (المقدسة) ويرقصن ويغنين ويطربن الرجال، ويمارسن معهم الجنس، وغير مسموح لهن أن يتزوجن. ويدفع الرجال الذين يزورون المعبد ثمن اتصالهم الجنسي بالبغايا المقدسات، ويرأس كل مجموعة من البغاء رجل يتولى تحديد أجر كل

واحدة منهن ويدير شئونهن. وإذا حملت البغِيُّ وولدت أنثى أصبحت بَغِيًّا كأمها ومُنعت من الزواج، وإذا كان المولود ذكرًا أصبح خادمًا في المعبد.

وقد كان الآباء في مناطق مختلفة (فينيقيا ومستعمراتها) يقدمون بناتهم لإرضاء الأجانب الوافدين على البلاد، وفعل ذلك أيضًا الآباء في قبرص وغيرها من الشعوب. وامتد هذا البغاء الذي سُمِّيَ بالبغاء «الضيافي» إلى أوروبا، واستمر في القرون الوسطى، حين كانت الحكومات تخصص بعض البغايا لضيوفها السياسيين، وكانت تضع برامج حفاوتها بهم نظامًا يكفل قضاء شهواتهم من البغايا، كما كان الأمر في برلين وأولم وبونو ونوريوريخ، وكانت البلدية في القرن الرابع عشر في مدن أوجيسبرج وهامبورغ وفينيا تضع تحت رعايتها بعض منازل البغاء لهذا الغرض.

ويقول جيمس وعدد آخر من العلماء: إن منازل البغايا حلت كتطور طبيعي محل المعابد المقدسة، وظلت تؤدي الوظيفة الأساسية لها، وهي إرضاء شهوات زوار هذه المنازل، والذين كانوا من قبل زوار المعابد.

وظلت منازل البغايا تؤدي وظيفتها الهامة للمجتمع في العصور الوسطى، وفي بداية انتشار المسيحية في أوروبا كان هناك بقايا صلة دينية بين البغاء والكنيسة.

وقد ظل البغاء طوال فترة العصور الوسطى يُعتبَر جُزءًا من الحياة الاجتماعية، وفي سنة ١٤١٤ حين جاء الإمبراطور سيجسموند Sigismund بجيشه في زيارة لبيرن بسويسرا، فإن أبواب منازل البغايا فُتحت على مصراعيها له ولجنوده كنوع من الحفاوة. وقد وقف الإمبراطور في حفل عام وشكر أصحاب السلطة في بيرن على حسن ضيافتهم.

وفي القرن الثامن عشر حين عُرف ذلك النظام المُسَمَّى الآن بالبوليس، ثُمَّ خضعت للقوانين التي كانت تصنعها المجتمعات المختلفة لتنظيم البغاء والإشراف عليها طبيًّا (حتى لا تنتقل الأمراض التناسلية إلى الرجال)، وأيضًا من أجل تحصيل ضرائب تأخذها الحكومة على البغايا.

وحينما اشتد خطر البغاء بسبب انتشار الأمراض التناسلية وبسبب ازدياد البغايا (بسبب ازدياد الفقر من تزايد السكان وانخفاض المستوى الاقتصادي لهم)، واضطراد تزايد أعدادهن فأصبحن يمثلن مشكلة اجتماعية واقتصادية وطبية؛ اضْطُرَّت بعض المجتمعات في أماكن مختلفة في العالم إلى إصدار قوانين بمنع البغاء تمامًا، لكن هذا المنع لم يحدث إلا على الورق فقط، وظل البغاء يمارَس كما كان ولكن في الخفاء. وأوضحت الدراسات أنه في أي مكان يُحرَّم فيه البغاء قانونًا فإن ذلك لا يعالج المشكلة، وإنما يدفع بها إلى الممارسة السرية وما ينتج عن ذلك من مشاكل أخطر.

ويقول جيمس: إنه قد ثبت أن ظاهرة البغاء هي ظاهرة غير قابلة للمنع، وليس لها من حل في أي وقت قبل المسيحية أو بعدها، ولا حتى في تلك الأوقات التي حصلت فيها الكنيسة على أقصى قوة سياسية.

لقد اتضح لعدد من العلماء أن البغاء ظل جزءًا متمِّمًا للحياة الزوجية في العصور الوسطى، وقد وصف إدوارد الأول سنة ١٢٨٥ كيف أن الزواج في العصور الوسطى لم يكن ناجحًا بسبب افتقاده الحب، وبسبب الوضع الأدنى للنساء والأطفال.

ويعتقد بعض العلماء أن البغاء ظاهرة اقتصادية، وأنه لا بدَّ أن يوجد في البلد الذي لا يوفر العمل لجميع أفراده رجالًا ونساءً، أمَّا البلاد التي تتيح العمل لجميع أفرادها رجالًا ونساءً فإن البغاء ينقرض بغير قوانين. لقد انقرض البغاء في معظم المجتمعات الاشتراكية، وأصبح من المعروف الآن — للرجال الذين يزورون هذه البلاد — أن عملية البحث عن المومسات عملية يائسة تمامًا، وأن عليهم أن يبحثوا عنهن في البلاد الأخرى حيث تكون الدعارة (وحوانيت الاتِّجار بالجنس والفن الجنسي الرخيص) جزءًا لا يتجزأ من النشاط التِّجاري والرأسمالي في البلد.

إن عملية بيع الجسد نظير المال عملية غير إنسانية، لا يقدم عليها الإنسان (امرأةً أو رجلًا) إلا اضطرارًا لحاجة اقتصادية معينة. ومن المعروف أن تجارة الدعارة في أي مجتمع في أيدي الرجال أساسًا، والمرأة في معظم الأحيان ليست إلا أداة في يد رجل قَوَّاد، يشغِّلها ويستغل المال الذي تكسبه بجسدها وهوانها، ولا يعطيها إلا ما يسدُّ رَمَقها ... إن الرجال هم الذين يكسبون من وراء البغاء ماليًّا أو جنسيًّا، أمَّا المرأة فهي التي تدفع الثمن وتؤدي الضريبة، وتتحمل العار وحدها والهوان، وتُساق عند اللزوم وحدَها إلى السجن والعقاب.

إن هذا القطاع من النساء اللائي أُطلق عليهن «المومسات» لسن إلا إحدى الظواهر الاجتماعية للحضارة الذكورية القائمة على الأبوية، وكان على هؤلاء النساء التعيسات أن يكُن كبش الفداء لهذه الحضارة من أجل أن تقوم وتستمر وتزدهر.

وكان هناك أيضًا قطاع آخر من البشر لا بدَّ أن يكون كبش فداء لهذه الحضارة القائمة على الظلم والاستغلال وعدم المساواة بين الجنسين، هذا القطاع من البشر هم الأطفال، الذين يَنتجون عن ممارسة الرجال للجنس خارجَ الزواج أو الأسرة الأبوية، والذين أُطلق عليهم (الأطفال غير الشرعيين). إن هذه الظاهرة ليست إلا مظهرًا من مظاهر التناقض الأخلاقي والإنساني للحضارة الذكورية غير الأخلاقية وغير الإنسانية،

لكن شهوة السلطة تُفقد الرجال المنطق، وتصبح قوانينهم متناقضة، وتنتج عنها ظواهر لا معقولة وقيم عكسية؛ ففي الوقت الذي يدَّعي فيه الأب الإنسانية والأبوة والحب في علاقته بأطفاله، نجد هذا الأب نفسه يقسو ويتنكر لأطفاله، لماذا؟ لأن أطفاله من النوع الأول، وُلدوا من المرأة التي اختارها الرجل للزواج، أمَّا أطفاله من النوع الثاني فقد وُلدوا من المرأة التي اختارها الرجل للعشق فقط!

إن الرجل في كلا الحالين (الزوج أو العشيق) هو الذي يختار، وهو الذي يحدد العلاقة زواجًا أم عشقًا فقط ... وإن الرجل في كلا الحالين هو الأب لجميع الأطفال الناتجين عن زواجه أو عشقه، ومع ذلك فإن هذا الرجل الواحد لا يعامل أطفاله بالتساوي، لماذا؟ والسبب واحد، وهو توريث أطفاله من داخل الزواج فقط من أجل استمرار بقاء النظام الأبوي.

وهذا يكشف أن الرجل في علاقته بأطفاله لا يعرف الحب ولا الإنسانية ولا الأبوة الحقيقية؛ لأن الحب بين الأب وأطفاله لا يمكن أن يكون حقيقيًّا إلا إذا منح هذا الحب للأطفال جميعًا، وليس لجزء منهم دون الجزء الآخر، خاصةً أن الطفل المولود يأتي إلى الحياة بغير إرادته، وليس من العدل ولا المنطق ولا الإنسانية جعله كبش فداء للنظام الأبوي القائم.

وكم من قصص أليمة عن حياة الأطفال الذين عُرفوا بالأطفال غير الشرعيين، كم يُحرَمون من جميع الحقوق الأخلاقية والإنسانية والاقتصادية والاجتماعية التي يحظى بها إخوانهم الشرعيون. والغريب أن الرجل مهما تنوَّر ومهما بلغ من الثقافة أو العلم أو الفن فإنه يتهرب من أطفاله غير الشرعيين، ويحرمهم من المال مهما بلغ ثراؤه.

إن رجلًا برز (في الحضارة الذكورية الحديثة) كعملاق في الفن هو بيكاسو، ترك بعد وفاته ثروة يقدِّرونها بأكثر من «١٠٠» مليون دولار، ومع ذلك فقد حرم في وصيته اثنين من أولاده غير الشرعيين، وهما ابنته «بالوما» وأخوها «كلود» من عشيقته فرانسواز جيلو.

وهذا يدلنا على أن ممارسة المرأة للجنس خارج الزواج قد يُقدَّس (البغاء المقدس)، وقد يُلعَن ويصبح عارًا على المرأة وحدَها وأطفالها، فالمسألة هنا ليست الفعل ذاته، وإنما هي نظرة الرجل إلى هذا الفعل، قد يقدسه وقد يلعنه حسبما يتراءى له ذلك.

الكبت والخوف والكذب

الكبت هو عدم الفعل، وقد كُبتت المرأة وحُرمت من الفعل؛ ولذلك لم تستطع أن تعيش الحقيقة، وعاشت في أحلام وخيالات، وهذا يعرِّضها دائمًا للصدمات النفسية حين يصطدم الواقع بخيالها، فإذا بها تعيش صراع العالمين الحقيقي والخيالي في ذهنها.

ويقول «كير كجارد»: إن الحقيقة لا توجد في حياة الإنسان إلا إذا أوجدها الإنسان من خلال الفعل. ويقول جان بول سارتر: «أفعالنا هي نحن.» ويؤكد وليم جيمس على أهمية اتحاد الفعل والتفكير لسلامة الإنسان النفسية. ويُعَرف «هيدجر» الحقيقة بأنها حرية الفعل. ويقول بول تليش: إن الإنسان لا يصبح إنسانًا حقيقةً إلا في لحظة اتخاذ قرار بالفعل.

لكن الكبت المفروض على المرأة من المجتمع يحرمها من الفعل، أو يسبب انفصامًا بين تفكيرها وفعلها، إنها تفكر في شيء معين ثُمَّ لا تفعله أو تفعل شيئًا آخر قد يكون مناقضًا لما هي تفكر فيه؛ وهذا يسبب لها القلق، هذا القلق الناتج من خوفها من الأفكار، ومن الصراع الدائر على الدوام بين هذه الأفكار وبين أفعالها التي تعبر عن هذه الأفكار أو عن عدم قيامها بالفعل الذي تريده. وكم من فتاة وامرأة قالت لي هذه العبارة: «إذا فعلت أو صرخت بما أشعر به، أو أفكر فيه حقيقة لأصبحت مرفوضة من المجتمع الذي حولي»؛ ولهذا كثيرًا ما كنت أرى اختلافًا كبيرًا بين ما تقوله المرأة بلسانها وبين ما تعبر عنه بعينيها.

إن المرأة من أجل أن تكون مقبولة في المجتمع تُضْطَر أن تكبت حقيقتها. إن عملية التكيف مع المجتمع التي تقوم بها المرأة ليست إلا عملية قتل لوجودها الحقيقي. والمرأة التي تُسمَّى بالمرأة الطبيعية هي المرأة التي نجحت في قتل وجودها الحقيقي، أمَّا المرأة

التي تُسمَّى بالمرأة العُصابية، فهي التي فشلت في قتل وجودها الحقيقي؛ ولهذا يقول رولوماي: «كم هو خاطئ تعريفنا للعُصاب على أنه الفشل في التكيف مع المجتمع، إن هذا التكيف هو العُصاب بالضبط، إن هذا التكيف معناه أن يقبل الإنسان قتل الجزء الأكبر من وجوده من أجل الإبقاء على جزء صغير جدًّا من هذا الوجود … وأن ما نراه من أعراض العُصاب ليس إلا أعراض الإنسان الذي يحاول الحفاظ على إنسانيته ووجوده … إن القلق هي حالة الإنسان عندما يصارع تلك القوى التي تحاول تحطيم وجوده.»

وينتج عن هذا ظاهرة الكذب المتفشية في المجتمع، هذا الكذب الذي يُحدث انفصامًا بين حقيقة المرأة (والرجل أيضًا)، وبين ما تتظاهر به أمام الناس. والانفصام يحدث في الأسرة أيضًا، فيصبح للإنسان حياة أسرية ظاهرية هي علاقة الأزواج بالزوجات الظاهرية، ثُمَّ حياة أخرى خفية هي علاقة الأزواج بالعشيقات أو الزوجات بالعشاق. ويحدث الانفصام في المجتمع أيضًا، فإذا بالتناقض الواضح بين القيم الأخلاقية والدينية وبين القيم التِّجارية والاقتصادية.

على أن المرأة أكثر تعرُّضًا لهذا الانفصام من الرجل؛ بسبب المحظورات المفروضة أكثر على المرأة؛ ولهذا تتمزق شخصية المرأة إلى عدة أجزاء، ويتناقض كل جزء من الآخر. إن عقلها يختلف مع مشاعرها، ومشاعرها تختلف مع إرادتها، وإرادتها تختلف مع أفعالها. إن مشاعر الحب والكراهية عند المرأة يجب أن تُكبَت، أو تظهرها على النحو المقبول اجتماعيًّا فقط، إنها يمكن أن تظهر كراهيتها للخادمة التي عندها مثلًا، وأن تعبر عن هذه الكراهية بعدوانية يقبلها المجتمع (ضرب الزوجات للخادمات مقبول اجتماعيًّا)، ولكنها يجب أن تكبت كراهيتها لزوجها أو أبيها أو رئيسها أو أي رجل آخر في موضع السلطة أو في طبقة أعلى. وهذا يحدث أيضًا في حالة مشاعر الحب، فهناك حب محرم على المرأة أن تظهرَه، وهناك حب يجب على المرأة أن تبالغ في إظهاره؛ كحبها لأطفالها، وتفانيها في خدمة زوجها أو أبيها أو أفراد الأسرة.

إن القلق لا يحدث للإنسان إلا إذا أصبح واعيًا بوجوده، وأن هذا الوجود يمكن أن يتحطم، وأنه قد يفقد نفسه ويصبح لا شيء. وكلما كان الإنسان واعيًا بوجوده زاد قلقُه على هذا الوجود وزادت مقاومته للقوى التي تحاول تحطيمه. وهذا هو السبب وراء انتشار القلق بين النساء المثقفات عنه بين النساء غير المثقفات؛ لأن المرأة المثقفة أكثر وعيًا بوجودها عن المرأة غير المثقفات؛ لأن المرأة المثقفة أكثر وعيًا بوجودها عن المرأة غير المثقفة؛ وبالتالي فهي أكثر قلقًا من أجل حماية هذا الوجود من القوى الاجتماعية التي

تبغي تحطيمه. أمَّا الخوف فهو منتشر أكثر بين النساء غير المثقفات عن النساء المثقفات. وهناك فارق كبير بين القلق والخوف، إن الشعور الذي تشعر به المرأة وهي راقدة على منضدة العلميات ليُجريَ لها الطبيب عملية جراحية (فتح خراج مثلًا) هو شعور الخوف، وهو ينتهي بانتهاء العملية وعودتها إلى بيتها، أمَّا القلق فهو شعور آخر، تشعر به المرأة الناجحة في عملها مثلًا حين تدرك أن زوجها يكره نجاحها أو يغار منها. إن شعور القلق يلازمها ليل نهار، وتصبح مهددة في حياتها الزوجية إذا استمرت في نجاحها، أو تصبح مهددة في نجاحها إذا أرادت أن تُرضيَ زوجها وتحميَ حياتها الزوجية؛ ولأن الاثنين هامَّان عند المرأة فهي تشعر بالقلق لا الخوف. إن القلق شعور قوي يتعلق بكيان الإنسان كله، كيانه من خلال عمله وتحقيق ذاته من خلال نجاحه. ولأن الزواج والأمومة لا يزالان في نظر المرأة ركنًا أساسيًّا في كيانها؛ لذلك هي تشعر بالقلق حين يصبح نجاحها في العمل مهدَّدًا؛ وهذا هو السبب وراء انتشار القلق بين النساء المثقفات عن النساء غير المثقفات وعن الرجال أيضًا، فالرجل لا يعتبر حياته الزوجية أو أبوته ركنًا أساسيًّا في كيانه، وهو يشعر بالقلق النفسي حين يصبح نجاحه في عمله مهدَّدًا، أمَّا نجاحه أو فشله في الزواج فليس إلا شيئًا ثانويًّا في حياته بعكس المرأة. وقد استطاعت بعض النساء المثقفات الذكيات أن ينظرن إلى الزواج كشيء ثانوي في حياتهن، وهذا في رأيي ازدياد في الوعي وتقدم فكري ونفسي يمكن أن يحميَ المرأة من مشاكل نفسية عديدة.

وهناك فرق آخر بين القلق والخوف، وهو أن القلق ينطوي دائمًا على صراع داخلي، هو صراع الإنسان بين أن يكون أو لا يكون، أو بين أن يوجد أو لا يوجد؛ ولهذا لا تشعر بهذا الصراع المرأة غير الواعية بوجودها وكيانها، أو المرأة التي حظيت ببعض الحرية والإمكانيات الثقافية والنفسية التي تحقق بها وجودها؛ فإن نجاحها (ولو جزئيًّا) في تحقيق هذا الوجود يتضمن تحطيمًا لذلك الأمن الاجتماعي والنفسي الذي تشعر به المرأة العادية، التي تخلَّت عن وجودها تمامًا من أجل زوجها وأطفالها الآخرين، ومن هنا تشعر المرأة المثقفة الواعية بالقلق، فالقلق هنا قلق إنساني رفيع المستوى، وليس ضعفًا وليس مرضًا، ولكنه نوع من الصراع القوي والصمود الإنساني العنيف في مواجهة القوى المعادية لوجود الإنسان. وكما يقول «رولوماي»: إن القلق يرتبط ارتباطًا عميقًا بمشكلة الحرية، إن المرأة (أو الرجل) التي لا تحظى بأية حرية (ولو ضئيلة) لتحقق شيئًا من وجودها وكيانها فهي لا تشعر بالقلق. وقد وصف «كير كجارد» القلق على أنه «زغللة الحرية»، وأنه يحدث قبل أن تصبح الحرية حقيقة ملموسة وإيجابية.

إن النساء كأفراد وجماعات يتنازلن عن الحرية من أجل التخلص من القلق غير المحتمل، إن الإحساس بالقلق في حد ذاته دليل على أن المرأة تشعر بإمكانية وجودها وكيانها، وأنها مهددة بالحرمان من هذه الإمكانيات، وبأن تصبح لا شيء أو بغير وجود مستقل.

هذا الوجود المستقل يتحقق للإنسان (امرأةً أو رجلًا) بالعمل الخلاق المنتج والحب، وهما لا يتحققان إلا في ظل الحرية المسماة بالحرية الإيجابية، وهي ليست مجرد غياب القيود (الحرية السلبية)، ولكنها حركة إيجابية نحو الخلق والإبداع في العمل وممارسة جميع الطاقات الإنسانية من خلال الحب الحقيقي.

إن الطموح الفكري والرغبة في الإبداع والخلق والتجديد معناه أن يكون المستقبل أفضل من الماضي، هذا الطموح والتطلع نحو مستقبل أفضل من الماضي صفة إنسانية. إن الحيوانات لا تعرف المستقبل، وهناك بعض حيوانات تستطيع أن تتوقع حدوث عقاب لها مثلًا في الدقائق العشر المقبلة، والكلاب تستطيع أن تتوقع ذلك لا في النصف ساعة فقط، وإنما لأسابيع وسنوات. إن هذه القدرة على اجتياز فواصل الزمن التي تفصل الماضي عن الحاضر عن المستقبل، وهذه القدرة على رؤية المستقبل في ضوء أحداث الماضي، وهذه القدرة على التعلم من الماضي والتخطيط للمستقبل وتطويره، هذه القدرة إنما هي ميزة للوجود الإنساني.

وكم تُحرَم أغلبية النساء من هذه الميزة حين يُفرَض عليهن أن يكن بلا ماضٍ وبلا مستقبل، وأن يعِشْن كحيوان يأكل ويشرب ويتناسل ويدور في الساقية، أو يحمل الأثقال فوق ظهره.

إن التخويف والكبت والقمع، وغيرها من العمليات التي تسد منافذ الوعي عند المرأة، ليست في حقيقتها إلا محاولات لقطع أواصر تلك الحلقات الزمنية المتصلة في حياة الإنسان، وفصل الماضي عن الحاضر عن المستقبل، ويصبح من الخطر على المرأة أن تحتفظ بماضيها كجزء متصل بحاضرها ومستقبلها؛ ولهذا تبتر المرأة ماضيَها من حياتها، وإن عجزت عن بتره تمامًا فهي تحمله لا كجزء منها وإنما كجسم غريب عنها، تُضْطَر لحمله معها أو فوق كاهلها كالعبء؛ ولهذا كثيرًا ما تسبب أحداث الماضي في حياة الفتيات والنساء مشاكل نفسية وعُصابية، وبالذات تلك الأحداث الجنسية التي تحدث في طفولة معظم البنات (الاعتداءات من الرجال الكبار بسبب الكبت الجنسي الذي يعانيه الرجال الكبار)، وأيضًا العادة السرية التي تمارسها معظم البنات في الطفولة والمراهقة

كمرحلة طبيعية من مراحل النمو الجنسي، وأيضًا المداعبات الجنسية التي تحدث بين الجنسين قبل الزواج. كل ذلك تُضْطَر الفتاة أن تسلخَه عنها وتبترَه كأنما لم يحدث، وهي عملية نفسية شاقة تترك آثارها بطبيعة الحال في نفسية المرأة؛ فهي تعيش في قلق دائم بسبب ذلك الماضي الذي قد يؤثر في حياتها الحاضرة أو المستقبلة، إنها تشعر بالقلق خشية أن يحدث شيء في المستقبل بسبب ذلك الماضي. وكما يقول فرويد: إن القلق ليس إلا التخوف من حدوث شيء في المستقبل.

وتنجو من القلق والعُصاب هذه المرأة الشجاعة التي استطاعت أن تجعل ماضيَها جزءًا لا ينفصل عن حياتها، تستفيد منه في حاضرها ومستقبلها؛ فالماضي لا يمثل لها عبئًا أو جسمًا غريبًا عنها تُضْطَر لحمله، وإنما هو جزء منها يفيدها ويغذي حاضرها ومستقبلها بالتجارِب والخبرات الضرورية لنضج الإنسان، لكن هذه الشجاعة لا تصيب المرأة غير الواعية بحقوقها الإنسانية. إن إدراك المرأة بأن خبرة الماضي ميزة إنسانية وحق من حقوق الإنسان هو الذي يمنحها الشجاعة في الاعتراف بأن هذا الماضي وهذه الخبرة جزء منها يضيف إليها الكثير، وليس عيبًا أو عاهةً يجب عليها إخفاؤها، لكن هذا الإدراك لا يحدث لكل النساء المثقفات في مجتمعنا، إنه يحدث لبعض المثقفات فحسب، هؤلاء البعض اللائي حظين بقدر أكبر من الوعي والاستقلال في الشخصية والنجاح في العمل بحيث تصبح الواحدة منهن قادرة على أن تعترف بماضيها، وتعتز بكل تجرِبة مرَّت بها لأنها جزء منها، وتفرض على الآخرين احترامها. وهذا هو الصدق الشجاع الذي يمنح الإنسان مقومات الصحة النفسية؛ لأن الإنسان في تلك الحالة (امرأة أو رجل) يصبح متصالحًا مع جميع أجزاء حياته (الماضي والحاضر والمستقبل)، ويستفيد بكل منها على التوالي دون أن يضع الحواجز بين كل منها، أو يلغي أحدها؛ فيصبح كالبناء الذي انهار منه أحد أركانه.

إن المرأة المثقفة التي تتمتع بصحة نفسية هي المرأة المتكاملة البناء في شخصيتها، ومعنى ذلك أنها المرأة التي استطاعت أن تحطم التقاليد داخلَها وخارجَها التي تفرض عليها أن تكذب على نفسها أو على الآخرين، واستطاعت بذلك أن تؤسس مستقبلها على أساس متين هو ماضيها، الذي تعتز بكل ما فيه، وهذا ينطبق على الرجل.

إن الأفراد هنا كالشعوب؛ فالفرد القوي الصحيح نفسيًّا هو الذي تتصل جميع حلقات حياته (الماضي والحاضر والمستقبل)، ويكون تراثه جزءًا منه، يستفيد في تخطيط المستقبل، وليس جسمًا غريبًا عنه يحمله رغم أنفه ويخجل منه، أو يبتره وينساه ويهمله. إن نسيان الماضي أو إهماله أو بتره يعني أن المستقبل يُبنى على غير أساس متين؛

ولهذا يضعف مستقبل الأفراد والشعوب التي تستأصل ماضيَها. وقد أدرك الاستعمار (في مختلف أشكاله وفي جميع الأزمنة) هذه الحقيقة، وكان الاستعمار العسكري أو الاستعمار الاقتصادي يحتاج دائمًا إلى الاستعمار النفسي، ويبذل المستعمرون جهودًا مضنية لطمس ماضي الشعوب التي يستعمرونها، أو وضع الفواصل بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بحيث يصبح المستقبل مُعلَّقًا في الهواء، فما هي إلا هزة حتى يسقط.

وكم تعرَّض مجتمعنا المصري على مر العصور والأزمنة لهؤلاء المستعمرين الأجانب الذين أرادوا الفصل بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا؛ لنعيش حياة مفككة الأوصال والحلقات، ونصبح شعبًا ضعيف البناء، غير متماسك القوى، مما يسهل على الاستعمار إخضاعه واستنزاف موارده.

وما يحدث للشعوب يحدث للأفراد، إن علاقة الأسياد بالعبيد كعلاقة الاستعمار بالمستعمرات، كعلاقة أي فرد يريد استغلال الفرد الآخر، كعلاقة الرجل بالمرأة.

إن المرأة القوية الصحيحة نفسيًّا المتكاملة البناء في شخصيتها تمثل صعوبة أمام الرجل الذي يريد أن يستغلها لصالحه؛ ولهذا تفشل النساء القويات الواعيات الذكيات في الزواج، وتنجح النساء الضعيفات غير الواعيات في الزواج. وترتفع نسبة الطلاق بين النساء القويات الواعيات الذكيات عنه بين النساء الضعيفات غير الواعيات. ويمجد الرجل في المرأة الضعف وعدم الوعي والغباء والسذاجة، ويلعن الرجل في المرأة الذكاء وقوة الشخصية وتكاملها. ويصبح على المرأة أن تخفي ذكاءها ووعيها إذا أرادت النجاح في الزواج؛ وهذا يسبب لها صراعًا نفسيًّا، قد تعالجه بالطلاق أو عدم الزواج (إذا استطاعت)، أو تعالجه بالأقراص المهدئة (إذا لم تستطع). ولا يمكن أن أنكر أن هناك بعض الرجال الذين لا يريدون استعمار زوجاتهم أو استغلالهن، وإذا حظيت المرأة المثقفة الواعية الذكية برجل من هؤلاء فهي تُعفى من هذا الصراع، ولا تكون مضطرة إلى إخفاء ذكائها ووعيها من أجل إنجاح زواجها، ولكن هذا النوع من الرجال قليل ونادر، والأغلبية الساحقة من الرجال لا تزال تفزع من ذكاء المرأة ووعيها، وتفضل المرأة التي يسهل استغلالها، والتي تستسلم لحياة العبودية دون تذمر أو مقاومة.

إن العُصاب هو الثمن الذي تدفعه المرأة المثقفة الذكية من أجل أن تظل زوجةً وأُمًّا، وهي لا تستطيع أن تنجوَ من العُصاب إلا في حالتين اثنتين: إمَّا أن تستغنيَ تمامًا عن الزواج والأمومة، وهذا أمر غير سهل على عدد غير قليل من النساء، وإمَّا أن تحظى بزوج متفتح الذهن لا يريد استغلالها، وهذا أمر نادر؛ ولهذا تُصاب معظم النساء المثقفات الذكيات بالعُصاب.

وكلما نضجت المرأة المثقفة الذكية أصبحت أقل عرضةً للإصابة بالعُصاب؛ لأن النضج يجعلها أقل حاجة إلى الزواج وأكثر قدرة على مواجهة أي مشاكل فيه. وقد وجدت أن المرأة المثقفة الذكية المتمتعة بصحة نفسية هي تلك المرأة التي أصبح الزواج في حياتها شيئًا ثانويًّا، ولم يعُد الرجل يمثل لها كل حياتها، وإنما جزءًا فقط من حياتها، والأجزاء الأخرى من حياتها لعملها وإنتاجها في المجتمع. إن المرأة لا تمثل إلا جزءًا من حياة الرجل، والأجزاء الأخرى من حياته لعمله وإنتاجه في المجتمع؛ ولهذا لا يُصاب الرجل بالعُصاب حين تفشل علاقته بالمرأة، إنه قادر في معظم الأحوال على بدء علاقة جديدة وتخطي العلاقة القديمة. وهذا ما تفعله المرأة المثقفة الذكية التي لم يصل وعيها بعدُ إلى تلك الدرجة التي يصبح فيها الرجل جزءًا من حياتها وليس كل حياتها. وعلاج العُصاب في تلك الحالة ليس هو خفض درجة الوعي عند المرأة (بالأقراص أو الكهرباء) لتتكيف مع زوجها، ولكن العلاج هو رفع درجة وعيها أكثر؛ لتصبح قادرة على رفض الزواج الفاشل واختيار الرجل الأصلح لها، وإن لم تعثر عليه فأمامَها حياتها الواسعة الأخرى في العمل والإنتاج في المجتمع.

ومن هنا أهمية العمل في حياة المرأة، ليس أي عمل، ولكن العمل الخلاق الذي تحبه وتستطيع أن تخلق فيه وتبدع؛ ولهذا تنجو من العُصاب المرأة التي تمارس عملًا فنيًّا خلَّاقًا، إنها تحقق ذاتها من خلال فنها وعملها الخلاق، وتجد في هذا الفن معنًى لحياتها ووجودها؛ وبذلك تقف صلبة قوية متماسكة الشخصية في وجه مشاكلها الأخرى المتعلقة بالزواج والأطفال والبيت، ولا تُصاب بالعُصاب، ولا تشعر بحاجة إلى أقراص مهدئة.

ولكن كم من النساء المثقفات الذكيات يخترن العمل الذي يحبونه، وكم منهن اللائي يمارسن عملًا فنيًّا خلَّاقًا مبدعًا؟! إن معظم الناس (نساءً أو رجالًا) لا يختارون العمل الذي يحبونه، ولا يمارسون أعمالًا فنية خلاقة ومبدعة، ولكن معظم الناس يُفرَض عليهم العمل، ومعظم الناس يمارسون أعمالًا روتينية غير خلاقة؛ ولذلك لا يكون العمل في معظم الأحيان متعة تقبل عليها النفس وتثرى به، ولكنه يكون عبئًا تتحمله النفس من أجل الأجر المالي أو لأسباب أخرى متعددة، منها التحكم في بعض المرءوسين أو شغل الفراغ.

ويُصاب الرجال بالعُصاب أيضًا بسبب عدم تحقيق ذواتهم في العمل الذي يمارسونه، ولكن نسبة العُصاب بين الرجال أقل من النساء؛ لأن الرجل يستطيع أن يعوض بعض فشله في العمل عن حقوقه الممنوحة له وحده داخل الزواج وخارجه، أمَّا المرأة فهي

محرومة من جميع هذه الحقوق، بل إن أطفالها الذين تلدهم لا يحملون اسمها مهما بلغت من النجاح في عملها، ويحملون اسم الرجل مهما بلغ من الفشل في عمله.

ومن العوامل الهامة التي تسبب العُصاب للنساء الكبت الجنسي وعدم الإشباع الجنسي، ويؤدي إلى هذا الكبت وعدم الإشباع أسباب متعددة تبدأ منذ طفولة البنت وبسبب التربية والختان والتخويف والتفرقة بين البنات والذكور، واعتبار اللذة الجنسية إثمًا، والزواج بغير حب وأنانية الرجل وعدم مساواة المرأة بالرجل، وجهل الرجال والنساء بالحب والجنس عامة. ويمثِّل عدم الإشباع الجنسي ظاهرة تكاد تكون عامة بين النساء، لكنها لا تظهر بوضوح في النساء اللائي نطلق عليهن الطبيعيات أو المتكيفات مع المجتمع؛ وذلك لأن المرأة من هؤلاء قد استسلمت للكبت ولفكرة الإخصاء، ولم تعُد تشعر برغبات جنسية، أو برغبات جنسية ضعيفة جدًّا يمكن أن ترضى بفُتات رجل، أمَّا المرأة الواعية بحقوقها كإنسانة لها عقل وجسم فهي تشعر بالاكتئاب أو القلق، والمرأة الواعية الذكية لا تفصل بين الحب والجنس، ويصبح على الرجل أن يقنعها فكريًّا وعاطفيًّا وجسديًّا معًا؛ ولذلك لا يمكن لها أن تُشبَع جنسيًّا مع رجل لا تحبه مهما بلغت قوته الجسدية. والمرأة الواعية الذكية أقل كبتًا لرغباتها من المرأة الأقل وعيًا وذكاءً؛ ولذلك فهي أكثر عرضة للعُصاب إذا لم تُشبع رغباتها؛ ولذلك أيضًا هي أكثر ممارسة للعادة السرية أو العلاقات خارج الزواج، وكلها محاولات للإشباع وعدم الاستسلام للكبت والتكيف مع المجتمع.

ويعالج أطباء النفس مثل هذه الحالات بطرق مختلفة حسب المدارس النفسية التي ينتمون إليها، ومعظمهم يساعدون المرأة على إطفاء البقية الباقية من رغباتها الجنسية، وإقناعها أن المرأة المثالية هي التي تضحي بكل شيء من أجل الأمومة والأطفال (لا يمكن أن يحاول طبيب نفسي منهم أن يقنع رجل بأن يضحيَ برغباته الجنسية من أجل الأبوة والأطفال)، وقلة قليلة من أطباء النفس المتنورين الذين يقنعون المرأة بحقها في الإشباع الجنسي والعاطفي، ويشجِّعونها على تغيير حياتها الزوجية إذا كانت خالية من الإشباع العاطفي والجنسي.

وقد اعترفت لي بعض الحالات من الفتيات والنساء أن الطبيب النفسي في بعض الأحيان كان يتصرف كأي رجل آخر محروم جنسيًّا، ويحاول أن يُشبع رغبته مع إحدى مريضاته، منتهزًا فرصة تلك العلاقة الحميمة التي تنشأ بين المريضة نفسيًّا وطبيبها، موهمًا إياها أنه يحبها أو يعالجها. وقد اطلعت على بعض القضايا التي رفعتها بعض الأسر ضد الطبيب النفسي الذي مارس الجنس مع ابنتهم المريضة. هذا وإن بعض

المريضات لا يعترفن لأسرهن بهذه الممارسات؛ باعتبار أنها تُسيء إليهن قبل أن تُسيء إلى الطبيب، كما أن كثيرًا من الأسر يحجمون عن رفع قضايا في مثل هذه الحالات حفاظًا على سمعة الأسرة وسمعة ابنتهم؛ ولهذا لا يمكن لنا أن نحكم على عدد هذه الممارسات بعدد القضايا التي تذهب إلى المحاكم. والحال نفسه ينطبق على الاعتداءات الجنسية التي تتعرض لها البنات في طفولتهن من الرجال الكبار، إن البنت الصغيرة من شدة الخوف والخزي تكتم الأمر كسرٍّ دفين في نفسها، ثُمَّ في الحالات التي تصرخ فيها البنت، أو ينكشف الرجل ويُضبَط أثناء الاعتداء فإن كثيرًا من الأسر يحجمون عن إعلان الأمر والذهاب في قضية إلى المحكمة، بل إن القضية حين تذهب إلى المحكمة فإن المحكمة ذاتها أحيانًا ما تحفظ القضية حفاظًا على سمعة البنت الصغيرة وأسرتها؛ وبذلك ينجو الرجل من العقاب.

وقد اطلعت على بعض قضايا من هذا النوع، والتي تصل إلى الطب الشرعي حين يفحص الطبيب البنت الصغيرة، ويقرر ما إذا كان الاعتداء قد أفقدها غشاء البكارة أم لا. وقد علمت من إحدى الباحثات الاجتماعيات في الطب الشرعي أن مُدرِّسًا بإحدى مدارس البنات مارس المداعبات الجنسية بل الجنس ذاته مع تلميذات فصله جميعًا. وإن معظم أسر هؤلاء البنات يُفضِّلون كتمان الأمر عن إعلان الفضيحة، وكذلك المجتمع أيضًا، وعلمت أن قضايا هتك العرض غير قليلة كما نتصور، وأن الأطفال البنات في سن مبكرة جدًّا يتعرضن للاعتداءات من الرجال الكبار.

قال لي الباحثة الاجتماعية: إن في سجلاتها حوادث لأطفال بنات في سن الثالثة من العمر تعرضن لمثل هذا الاعتداء، وقرأت لي الباحثة عن حالة أم جاءت إليهم مذعورة تشتكي أن طفلتها التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات قد اعتدى عليها بواب العمارة (بأصابعه) حين كان يحملها على كتفه ليداعبها. وفي زياراتي للمستشفيات النفسية طلبت الاطلاع على بيانات جرائم هتك العرض، وتحدثت مع بعض الرجال نزلاء المستشفى الذين هتكوا أعراض بنات صغار، ثُمَّ حُوِّلوا إلى المستشفى النفسي لاشتباه إصابتهم بمرض نفسي، واتضحت لي حقيقة غريبة، إن معظم هؤلاء الرجال شديدو التدين، وبعضهم طلاب بالمعاهد الدينية أو مُدرِّسون للدين. وفي قسم المذنبين بمستشفى الخانكة قال لي أحد المرضى الذي حُوِّلَ إلى المستشفى بسبب هتكه لعرض طفلة صغيرة: «تربيت في جو ديني، ونشأت طفلًا خجولًا متديِّنًا، منطويًّا على نفسي، كنت تلميذًا متفوِّقًا في دراستي، وكانت حياتي عبارة عن مثلث (منزل – مسجد – مدرسة)، تخرجت مدرِّسًا ابتدائيًّا، وأنا أشعر

أنني ناقص، وأنني لم أتعلم شيئًا رغم تفوقي الدراسي، كنت آمل أن أدخل الجامعة لأكمل تعليمي لكن الظروف حالت دون ذلك، وفجأة دون مقدمات وقعت الكارثة، أمسكت طفلة عمرها ست سنوات واعتديت عليها، وفي قسم البوليس حُرِّرَ لي محضر واتُّهمت من النيابة العامة بهتك عرض الطفلة الصغيرة، واعترفت بما فعلت، وقلت لهم إنني تعبان نفسيًّا، وأن اليوم الذي حدثت فيه الجريمة — وقتَها — كنت خارجًا من المسجد بعد صلاة الظهر، وانتهى كل شيء بالكشف عليَّ، وحُوِّلت إلى مستشفى الأمراض النفسية بالخانكة قسم المذنبين، وأنا الآن بالمستشفى منذ سنة تقريبًا، ولا أعرف ما هو مرضي، فأنا أحمد الله طبيعي جدًّا، لست مريضًا ولا أعرف كيف سأخرج من هذا المستشفى، أنا إنسان متدين جدًّا حتى الآن، وأنا سريع الإحساس، وأبكي كثيرًا لسوء حظي، ولا يهمني الناس بقدر ما يهمني حكم الله؛ فأنا اعتديت على الطفلة ولكن من الخارج فقط، واتضح من فحص الطبيب الشرعي لها أنها لا تزال عذراء، أنا لم أمارس العادة السرية في حياتي كلها، وأعلم أن الكبت الجنسي الشديد هو الذي دفعني إلى هذه الكارثة التي حطمت مستقبلي، أنا أخاف الله كثيرًا، وأخفي وجهي حينما أرى فتاة جميلة حتى لا ينتقض وضوئي، وهذه هي أول غلطة في حياتي ارتكبتها، ولكن سوء حظي هو الذي جعلها تنكشف بهذا الشكل، وكل إنسان يخطئ، ولكني أدفع ثمن هذه الغلطة بكل مستقبلي وحياتي، وأصبحت أعيش كشخص مجنون، وينظرون إليَّ كمجنون مع أنني عاقل ومتدين وأعترف بخطئي، ولكن لم يعد أحد يسمعني، ولا أعرف كيف أو متى سأخرج من هذا المستشفى؟!»

وبينما أنا أسمع إلى كلام هذا الشاب التفَّ حولَنا عدد كبير من نزلاء هذا القسم (قسم المذنبين)، وقال شاب ريفي بلهجة ريفية: إن الله غفور رحيم، ولكن الناس لا ترحم، أنا مثلًا كنت جالسًا في الحقل تحت شجرة، وجاءت البنت الصغيرة تلعب معي، ووضعت أصبعي دون أن أقصد أي سوء، ولم تصرخ البنت، كانت مسرورة من ذلك، ولم يحدث لها أي شيء، ولكنهم ضربوني واتهموني بهتك العرض، وسلطوا على رأسي الكهرباء.

وتنافس زملاؤه الواقفون حولنا على الكلام، وكلٌّ يريد أن يحكي قصته، وكلهم يُطلَق عليهم اسم المذنبين، بعضهم متهم بجرائم جنسية معظمها هتك عرض بنات صغيرات، وبعضهم متهم بقتل زوجته أو قتل شخص آخر. وقد حصلت على معلومات كثيرة من هؤلاء النزلاء بالمستشفى، كما حصلت على بيانات أخرى من إدارة المستشفى، ولكني أحتفظ بكل هذا لكتاب آخر، حيث إن المجال هنا لا يتسع لكل هذا.

ولكن ما أريد توضيحه هنا هو علاقة التدين الشديدة بالكبت الشديد، وعلاقة الكبت الشديد بالانفجار أو التعب النفسي، كما حدث في حالة الشاب الذي لم تكن حياته إلا

المسجد والمدرسة والبيت، وأنه اعتدى على الطفلة بعد خروجه من الصلاة. وهذه الحالة في حاجة إلى شرح وتوضيح أعمق، خاصة أنه يقول إنه يخاف الله كثيرًا، ويخفي وجهه عندما يرى أية فتاة جميلة حتى لا ينتقض وضوءه. وتذكرني هذه الحالة بتلك الحالات الأخرى المتعددة، كحالة الشاب الجامعي الذكي الذي كان يرفض مصافحة زميلاته في الكلية لأن ذلك حرام، ثُمَّ إذا به يقع في حب زميلة له، وحين يدرك أن لها خطيبًا آخر يُصاب بانهيار نفسي. وأيضًا تلك الطالبة الذكية المتدينة جدًّا والتي تعتقد أن صوت المرأة عورة، وحينما تفاجأ برغبتها الطبيعية الصادقة في الحب، ويفرض عليها أبوها زوجًا آخر تُصاب بانهيار نفسي بسبب تمزقها بين الرغبة في طاعة أبيها والرغبة في الحب الصادق. إلى غير ذلك من الحالات التي تعيش صراعًا يمزِّقها بسبب التناقضات الموجودة في المجتمع وداخل النفس، والتي سبق عرضها.

والسؤال الذي لا بدَّ أن يُسأَل: ما هي علاقة الدين بالصحة النفسية؟ هل التدين والتمسك بمبادئ الدين يقود إلى الصراعات الداخلية في النفس، وإلى الإصابة بالأمراض النفسية؟ هل هناك تعارض أو تناقض بين المبادئ الدينية (والأخلاقية) وبين الرغبات الصحية الصادقة للجسم وللنفس والعقل؟! وللإجابة على هذا السؤال أخصص الفصل الأخير من هذا الكتاب، وهو فصل يخاطب الإنسان سواء كان امرأةً أو رجلًا، ولا يخاطب النساء وحدهن. وقد يتصور البعض أنه بعيد بعض الشيء عن موضوع المرأة، ولكني أعتقد أنه لا يمكن الفصل بين مشاكل الإنسان النفسية بصفة عامة ومشاكل المرأة؛ لأن المرأة إنسان أوَّلًا وأخيرًا.

الدين والأخلاق والصحة النفسية

إن جميع الأديان وجميع المبادئ الأخلاقية الإنسانية تدعو إلى الصدق والحب والحرية والعدالة بين البشر على اختلافهم (نساءً أو رجالًا أو أطفالًا أو فقراء أو أغنياء أو سودًا أو بيضًا أو صفرًا أو حمرًا). وليس هناك أي تعارض بين هذه المبادئ وبين الصحة النفسية؛ فإن مقومات الصحة النفسية هي الصدق والعدالة والحرية والحب.

ولكن الناس يستمعون إلى هذه المبادئ تُتلى عليهم في الجوامع أو في الكنائس مثلًا، ثُمَّ يخرجون إلى حياتهم العادية في البيوت أو المدارس أو الأسواق أو المكاتب أو الدواوين فإذا بهم يفعلون العكس تمامًا. إنهم يكذبون، وينافقون، ولا يعدلون، ويفرضون القيود، ويشعرون بالكراهية. ويصبح الإنسان (رجل أو امرأة) الذي يتمسك أو يمارس المبادئ السابقة مجنونًا أو مريضًا نفسيًّا أو أبله أو غبيًّا أو طفلًا. ويدرس الناس تلك الازدواجية الواضحة بين المبادئ الإنسانية الصادقة وبين الواقع الذي يعيشه الناس، ولكنهم يقفون أمام هذه الازدواجية مكتوفي الأيدي، يعترفون بالعجز الإنساني والضعف البشري أمام إبليس أو الشيطان، وأن الشر جزء من طبيعة البشر (لأنهم ليسوا ملائكة)، وأن الله غفور لجميع الذنوب؛ وهم لذلك يذنبون ثُمَّ يصلُّون لله من أجل أن يغفر ذنوبهم، وبعد الصلاة وبعد أن يستغفروا الله يعودون إلى حياتهم العادية، ويذنبون ثُمَّ يصلُّون، وهكذا تدور الحلقة المفرغة.

وحينما نسأل هؤلاء الناس عن سبب الازدواجية الأخلاقية في المجتمع وسبب الفساد المختفي تحت طبقة سطحية من ادعاء الفضائل فإنهم إمَّا يكذبون على أنفسهم وعلى الآخرين وينكرون وجود الفساد وينكرون ذنوبهم، وإمَّا أنهم يتهمون غيرهم، ويقولون إن السبب في كل هذا هو ابتعاد الناس عن الدين، وإن الحل الوحيد هو العودة إلى حظيرة الدين، ولكن ما هو الدين؟! هل الدين هو تلك الفرائض والعبادات التي تؤدَّى داخل

المساجد والكنائس؟ أم أن الدين هو سعي الإنسان لتحقيق الصدق والعدالة والحرية والحب بين البشر؟!

إن التاريخ الإنساني منذ نشأته الأولى وعلى مر العصور المختلفة يدلُّنا على أن سعي الإنسان وكفاح الإنسان كان من أجل الصدق والعدالة والحرية والحب بين البشر، وأنه لولا هذا لانقرضت مهمة الفلاسفة والأنبياء والفنانين والزعماء الشعبيين على مر العصور، وهي تذكير الناس بهذه المبادئ، ومقاومة الحكومات والسلطات التي كانت تحطم هذه المبادئ.

إن هؤلاء الفلاسفة والأنبياء والفنانين والزعماء الشعبيين كانوا يدركون دائمًا هذه المبادئ الأربعة: الصدق والحرية والعدالة والحب، وكانوا يدركون أنها الأسس لسعادة الإنسان، أو بعبارة أخرى الأسس لصحة الإنسان النفسية، ولكن هؤلاء كانوا يَلْقَوْنَ المقاومة والاضطهاد، لا من جموع البشر العاديين أو الشعب، وإنما من تلك الفئة القليلة من الناس التي ملكت السلطة والقوة المسلحة والمال. ومن الحقائق المعروفة أنه إذا أرادت الأقلية أن تحكم الأغلبية فلا بدَّ أن تلجأ الأقلية إلى البطش والظلم والكراهية والقهر، وإلا لما تيسر لها أن تحكم الأغلبية وتستغلها.

وعلى هذا تتضح المشكلة، فالمشكلة هي مشكلة السلطة التي تحاول استغلال الأغلبية؛ وبالتالي لا يمكن لها أن تطبق مبادئ العدالة والحرية والصدق والحب، ولكنها يمكن أن تغطيَ أفعالها بكلمات عالية وتتشدق بالعدالة والحرية والصدق والحب، أمَّا الممارسات الفعلية فهي عكس ذلك تمامًا؛ ومن هنا تنشأ الازدواجية، وتنتقل الازدواجية إلى جميع مرافق الحياة، وإلى البيوت والمدارس والجوامع والكنائس والمكاتب والأسواق. ويعتنق معظم الناس الازدواجية من أجل التكيف مع المجتمع والشعور بالأمن الاجتماعي، وعدم التعرض للبطش من السلطة، ويرتبط النجاح في العمل والمجتمع بمقدار ما ينافق الإنسان السلطة، وبمقدار ما يتكيف مع هذه الازدواجية؛ فتصبح له حياة علنية يدَّعي فيها المبادئ الأربعة الإنسانية السابقة: (الصدق، الحرية، الحب، العدالة)، وحياة خفية سرية يمارس فيها أشياء أخرى مناقضة لما يصرح به أمام الناس.

ويرتبط الفشل في العمل والمجتمع بمقدار ما يكون الإنسان صادقًا مع نفسه والآخرين، وبرفضه التكيف مع الازدواجية، وتصبح له حياة واحدة هي حياته العلنية التي يمارس فيها المبادئ الأربعة: (الصدق، الحرية، الحب، العدالة)، وهذا قد لا يقوده إلى الفشل فحسب، ولكنه قد يقوده إلى السجن أو إلى مستشفى الأمراض النفسية.

ومن هنا ندرك أن المبادئ الدينية أو جوهر الدين لا يتعارض مع الصحة النفسية، ولكن الذي يتعارض مع الصحة النفسية هو الازدواجية في القيم، وانفصام حياة الإنسان إلى شطرين: شطر علني وشطر سري خفي.

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة؛ لأن الأمور في حياة البشر لا تسير بهذا الوضوح ولا بهذه البساطة، وقد يلعب الدين في حياة البشر دورًا غير الدور الذي وُجد من أجله. ولكي نفهم كيف يحدث ذلك لا بدَّ أن نعرف أوَّلًا ما هو الدور الحقيقي للدين في حياة الإنسان (امرأة ورجل)، ولكي نعرف الدور الحقيقي للدين لا بدَّ أن نعرف أوَّلًا ماذا نعني حين نقول «الدين».

إن التاريخ القديم يدلنا على أن الإنسان (قبل نشوء الأديان السماوية) كان يحتاج دائمًا إلى وجود إله، وهو لا يعرف تمامًا ما هو هذا الإله، ولكنه يعتبره القوة المجهولة وراء مظاهر الحياة والطبيعة المجهولة. كان المصريون القدماء مثلًا لا يعرفون مثلًا سبب فيضان النيل، وتصوروا أن وراء ذلك قوة إلهية وبذلك عبدوا إله الفيضان، وحينما كانت الأرض تتأخر في إنتاج المحاصيل الزراعية كانوا يصلُّون لإله الخصوبة والخضرة، وحينما كانت تحدث الكوارث أو العواصف أو تشفى المرضى وهكذا … ونستنتج من ذلك أنه كلما تقدم العلم وكشف عن أسباب الأمراض والكوارث وأسرار الطبيعة تقلص دور الآلهة والأديان.

وهنا يأتي السؤال الثاني: هل يقتصر دور الدين في حياة الإنسان على تفسير ظواهر الطبيعة والحياة المجهولة؟! أو بعبارة أخرى هل دور الدين في حياة الإنسان دور علمي فقط؟! (العلم هو دراسة القوانين التي تفسير ظواهر الطبيعة والحياة)، أم أن الدين له دور آخر روحي أو نفسي؟ ومعنى ذلك أن الإنسان (رغم كشفه بالعلم لظواهر الطبيعة) يظل في حاجة نفسية إلى الدين ليشعر بالراحة النفسية والسعادة؟! ما هي هذه الحاجة النفسية إلى السعادة؟ إننا لو سألنا أي إنسان هذا السؤال: ما هي سعادتك؟ هل إذا أكل الإنسان حتى شبع، وارتدى أحسن الملابس، وسكن أحسن البيوت، هل هذه هي السعادة؟ إن معظم الناس سيقولون إن سعادة الإنسان أكبر من مجرد الأكل والشرب والسكن، ومعظم علماء النفس أيضًا سيقولون إن السعادة والصحة النفسية للإنسان أكبر من مجرد أن يعيش الجسد ويستمتع، وأن الإنسان يختلف بلا شك عن الحيوان؛ لأن الإنسان لا يكفيه أن يأكل ويشرب ويتناسل، ولكنه يريد أن يستخدم عقله من أجل الوصول إلى الحق والعدالة والحرية والحب بين البشر، والصحة النفسية هي قدرة الإنسان على استخدام عقله من أجل الوصول إلى الحق والعدالة والحرية والحب.

لقد ظل الإنسان في حاجة دائمًا إلى تحقق هذه المبادئ الأربعة؛ ليشعر بالسعادة، وليشعر بالصحة النفسية.

لكن عقل الإنسان سلاح ذو حدين؛ فهو يرفع الإنسان عن مرتبة الحيوانات، لكنه يبصره ويفتح عينيه على معرفة الكون الضخم الذي لا يمثل فيه الإنسان إلا جزءًا صغيرًا جدًّا. إن الحيوانات والنباتات (لأنها لا تفكر كالإنسان) تعيش في انسجام كامل مع الكون، كجزء لا ينفصل عن الطبيعة؛ ولذلك لا تشعر الحيوانات والنباتات بأي صراع بينها وبين الكون الخارجي الضخم، لكن الإنسان فقد هذا الانسجام مع الكون بسبب عقله الذي يفكر، والذي دله على أنه ذات منفصلة مستقلة عن الكون. ومن هنا نشأ الصراع الإنساني الخاص بالإنسان وحده؛ فالإنسان يعيش رغبتين متناقضتين، إنه يحاول دائمًا أن يحقق ذاته كفرد مستقل، وهو في نفس الوقت لا يستطيع أن يعيش وحده، ويشعر بالعجز والضآلة وحده، ويواجه الموت وحده، ولا بدَّ له من الاتصال بالآخرين والانتماء إلى المجتمع أو إلى شيء أكبر منه؛ من أجل إعادة الانسجام بينه وبين الكون، ومن أجل مقاومة الموت أو البقاء بعد الموت، كأثر خالد، أو جزء حي من الكون. ومعنى ذلك أن الإنسان يريد أن يكون منفصلًا عن الكون ومتصلًا بالكون في الوقت نفسه، إنه يريد أن يكون فردًا مستقلًّا بذاته المنفردة وأن يكون جزءًا من مجتمع أكبر في الوقت نفسه، وهذه معادلة صعبة حيرت الإنسان كثيرًا، وسببت له كثيرًا من المعاناة، وهي تشبه معاناة الطفل وسط أسرته. إن الطفل يريد أن يستقل عن الأب والأم ويصبح فردًا مستقلًّا، ولكنه يشعر أيضًا بالرغبة في الالتصاق بالأم والأب والانتماء إلى الأسرة والاحتماء فيها من خطر العالم الخارجي.

وقد كان «فرويد» من العلماء النفسيين الأوائل الذين حاولوا تفسير ظاهرة الدين في حياة البشرية على أساس نظريته في سيكلوجية الطفل. وفي كتابه عن مستقبل الوهم حاول فرويد أن يفسِّر حاجة الإنسان إلى الدين تفسيرًا سيكلوجيًّا، وقال ما معناه إن أصل الدين في حياة البشر يرجع إلى إحساس البشر بالعجز في مواجهة قوى الطبيعة الخارجية، وقوى الغرائز داخل النفس، وإن الدين نشأ في المرحلة المبكرة للتطور البشري حين كان الإنسان عاجزًا عن استخدام عقله في مواجهة هذه القوى الخارجية والداخلية، وكان عليه أن يكبت هذه القوى أو يعزوها إلى قوًى أخرى يجهلها، وبدلًا من أن يشغل الإنسان عقله لفهم هذه القوى الداخلية ويسيطر عليها، فإنه يخلق ما سماه فرويد بالوهم illusion الذي يستعيره الإنسان من خبرته السابقة وهو طفل، حين كان صغيرًا، يشعر بالاحتماء

بالأب من مخاطر العالم الخارجين، هذا الأب الذي يمثل له القوة والحكمة، والذي يستطيع أن يحظى بحبه وحمايته له إذا أطاع أوامره وابتعد عن كل ما يغضبه.

وهكذا رأى فرويد أن الدين هو تكرار لخبرة الطفل، وأن الإنسان يعالج القوى التي تهدده بالطريقة نفسها التي يعالجها بها الطفل. إنه كطفل قد تعلَّم أنه يعالج خوفه من هذه القوى بالاعتماد على أبيه وطاعته والإعجاب به، والخوف من عقابه. وقد قارن فرويد الدين بالعُصاب المسلط الذي يحدث في الأطفال؛ ولهذا يرى فرويد أن الدين «عُصاب جماعي Collective neurosis».

وقد حاول «فرويد» أن يبحث في الأسباب النفسية التي دعت الإنسان إلى تكوين فكرة وجود الإله، وهو لا يكتفي بأن يقول إن الدين مجرد وهم illusion، ولكنه أيضًا خطر dangerous؛ لأنه يمنع الناس من استخدام عقولهم أو التفكير النقدي في أمور حياتهم؛ وبذلك يضمحل ذكاؤهم وتفتقر عقولهم. ويقول فرويد: إن عدم استخدام العقل أو التفكير النقدي في أمر من الأمور يعطل التفكير النقدي في الأمور الأخرى. ويرى «فرويد» أن الدين خطر أيضًا على القيم الإنسانية الأخلاقية الأساسية، والتي يسميها: الحب الأخوي بين البشر Menschenliebe والحق والحرية. ويقول فرويد: إن الإنسان إذا تخلص من الوهم الذي يجعله يعتمد على الإله الأب فإنه يواجه وحدته وضآلته في العالم الكبير، ويصبح شبيهًا بالطفل الذي ترك بيت أبيه، لكنه يقول إن النضوج الإنساني لا يمكن أن يتحقق إلا بالتخلص من هذا التعلق الطفولي، وإن الإنسان لا بدَّ أن يعلِّم نفسه كيف يواجه الحقيقة دون الاعتماد على قوًى أخرى خارجية. إذا عرف الإنسان أنه ليس هناك من شيء يعتمد عليه سوى نفسه وقوته، فهو سوف يتعلم كيف يستخدمها. إن الإنسان الذي لا يستطيع أن يستخدم قوته هو الذي تحرر من السلطة التي تحميه أو التي تهدده. إن الطفل لا ينضج ولا يستقل ويعتمد على نفسه ويستخدم قوته إلا بعد أن يتحرر من الاعتماد على أبيه أو الخوف منه.

وقد افترض فرويد بطبيعة الحال بهذا المنطق أنه ليس هناك علاقة بين الطفل والأم، وافترض أيضًا أن هناك علاقة وحيدة بين الأب والطفل، وهي علاقة الخوف وطاعة الأوامر رغبةً في الحماية، وبنى عليها أن علاقة الإنسان بالإله هي علاقة مشابهة، أي إنها علاقة الخوف وطاعة الأوامر رغبةً في الحماية، ولكن ألا توجد علاقة أخرى بين الطفل والأم قائمة على الحب وليس على الخوف؟! ألا يمكن أن تكون العلاقة بين الطفل والأب أو بين الطفل والأم قائمة على المناقشة والاقتناع، وليس على الطاعة العمياء للأوامر؟! والسؤال

الثاني هو: هل علاقة الإنسان بالإله في جميع الأديان البشرية قائمة على الخوف والطاعة العمياء للأوامر؟! أليست هناك أديان قائمة على الحب والمناقشة والاقتناع؟!

وهناك كثير من الأديان تنص في جوهرها على أن الله هو الحب، وأن علاقة الإنسان بالإله علاقة حب، وأن حب الله ليس معناه إلا أن يحب الإنسان أخاه الإنسان وأن تكون معاملته للناس على أساس الصدق والعدل والحرية والمساواة، ولا شك أن هناك كثيرًا من المسلمين والمسيحيين الذين يفهمون دينهم على هذا الأساس.

ويقول أريك فروم في كتابيه «الإنسان لنفسه» و«التحليل النفسي والدين» ما معناه أن الأديان التي تقوم فيها العلاقة بين الإنسان والإله على الحب هي إنسانية humanistic، ويُفرِّق بينها وبين الأديان التي تقوم فيها العلاقة بين الإنسان والإله على الخوف، والتي يسميها أديانًا استبدادية أو authoritarian. ويقول أريك فروم إن الأديان الإنسانية القائمة على الحب تساعد الإنسان على استخدام عقله وقوته الذاتية من أجل إسعاد الآخرين وتطور المجتمع إلى الأفضل، أمَّا الأديان الاستبدادية القائمة على الخوف فهي تشل عقل الإنسان، ولا تساعده على استخدام قوته الذاتية؛ لأنه يعتمد على قوة أخرى غير نفسه، يسقط عليها كل الصفات الطيبة كالعدل والحق والحكمة، ولا يبقى لنفسه إلا الصفات الشريرة؛ وبذلك يجد الإنسان تبريرًا منطقيًّا لأفعاله الشريرة المناقضة للعدل والحق والحكمة، إنه يستأصل من نفسه الجزء الطيب فيه، ويسقطه على قوة أخرى خارج نفسه ينظر إليها في خوف وهلع؛ لأنه يشعر أمامها بذنب دائمًا وأنه آثم دائمًا، وتصبح علاقة الإنسان بالله قائمة على الإحساس بالذنب والخوف من العقاب والإيذاء، أي تصبح العلاقة ليست علاقة حب وإنما هي علاقة ماسوشية، يحاول الإنسان فيها أن يتخلص من ذنبه ومن خوفه، وذلك بمزيد من الخضوع وامتهان النفس وإذلالها رغبةً في الحماية والإفلات من العقاب.

ويشعر الإنسان أيضًا بالاغتراب عن نفسه، لقد استأصل من نفسه الجزء الطيب وأسقطه على قوة خارجية بعيدة عنه، وهكذا تصبح نفسه الطيبة بعيدة عنه، غريبة عنه. من هنا ينشأ الشعور المُسَمَّى بالاغتراب، ويحاول الإنسان أن يعالج هذا بعبادة الله، إنه في هذه العبادة يحاول أن يصل إلى هذا الجزء الطيب من نفسه الذي فصله عنه.

ويقول أريك فروم: إن هذه الأديان الاستبدادية هي التي تشبه علاقة الأب المستبد بطفله، وهي التي وصفها فرويد بأنها نوع من العُصاب، والرغبة في الاعتماد على الأب وكسب حمايته، بالخضوع الكامل له وطاعته طاعة عمياء دون مناقشة، وعدم الرغبة في الانفصال عنه؛ خوفًا من الاستقلال والحرية التي تعني له أن ينفصل عن أبيه، ويخرج

من بيته، ويهيم على وجهه باحثًا عن حياة خاصة به، وذات مستقلة عن ذات أبيه، إنه يسقط كل القوة على الأب الذي يمثل له الحماية، وتكون علاقته به علاقة خضوع وطاعة، ويجرد نفسه من القوة فيشعر بالضعف، وهذا يحدث أيضًا في علاقته بالدين وفي علاقته بالحاكم أو كل من كان في موضع السلطة العلوية.

أمَّا في الأديان الإنسانية فإن أريك فروم يرى أن الإنسان لا يسقط الجزء الطيب فيه على قوة أخرى خارجه. إن الإنسان يدرك أن صفات العدل والحق والحكمة والحرية والحب داخل الإنسان وليس خارجه، ومعنى ذلك أن الله داخل الإنسان وليس خارجه، وأن على الإنسان أن يمارس الصدق والعدل والحرية والحب؛ ليحقق ذاته كلها، ويشعر بالسعادة المتكاملة، ويتمتع بالصحة النفسية. ومن هنا يتضح أن ممارسة الصدق والعدل والحرية والحب تقتضي أن يدرك الإنسان أن هذه الصفات موجودة فيه، وأن عليه أن يبحث عنها داخل نفسه، ويمارسها في حياته اليومية؛ وبذلك تصبح ممارسة الصدق والحب والعدل والحرية هي الوسيلة الوحيدة لتقرب الإنسان من الله أو من نفسه الكلية، وهذا هو جوهر الدين الإنساني.

لكن الذي يحدث في حياة البشر أن الناس إذا عجزت عن تحقيق الجوهر لجأت إلى التمسك بالشكل كنوع من إرضاء الضمير أو التبرير أو التقليل، لكن ضمير الإنسان (وهو الله في الدين الإنساني) لا يخدعه الشكل والحركات الخارجية، ويدرك الحقيقة من الكذب؛ ولذلك يتعذب ضمير بعض الناس حين لا يمارسون الصدق أو العدل أو الحب أو الحرية، وبعض الناس الذين ماتت ضمائرهم لا يتعذبون وهم يمارسون الكذب والظلم والكراهية.

ويقول أريك فروم: إن الإنسان الذي يتعذب وهو يمارس الكذب والنفاق أفضل من الإنسان الذي لا يتعذب وهو يمارس الكذب والنفاق. ولا شك أن عذاب الإنسان الأول يسبب له العُصاب أو المرض النفسي، ولكن هذا الإنسان أكثر صحة نفسية من الإنسان الآخر الذي مات ضميره تمامًا، ولم يعد يشعر بأي عذاب، وقد يبدو للآخرين أنه أكثر صحة نفسية؛ لأنه أكثر تكيُّفًا مع المجتمع الذي تسود فيه قيم الكذب والنفاق، أمَّا في المجتمع الذي تسود فيه قيم الصدق والعدل والحرية والحب فإن الإنسان ذا الضمير الحي لا يشعر بالعذاب؛ لأنه يمارس هذه المبادئ في حياته اليومية.

ويقول أريك فروم ورونالد لينج ودافيد كوفر وتوماس زاس وغيرهم من علماء النفس إن تفكير الناس يتكون حسب تكوين شخصياتهم، وإن شخصياتهم تتشكل حسب

ممارستهم اليومية، أو بعبارة أخرى حسب النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي يحكم المجتمع، إذا كان المجتمع محكومًا بأقلية تسيطر على الأغلبية وتستغلهم لصالح الأقلية، فإن الإنسان الفرد يعيش في خوف دائم من بطش السلطة، ويمنعه الخوف من النضوج والاستقلال والإحساس بقوته وإرادته؛ ولهذا تشجع مثل هذه الأنظمة الاستبدادية الأديان الاستبدادية، وتستغل حاجة البشر إلى الدين الإنساني (بمعناه الإنساني السابق)، وتحوله إلى دين استبدادي إرهابي قائم على الخوف والهلع والعجز والحماية، وليس قائمًا على الحب والقوة والاستقلال، ويصبح الله عند الناس ملجأً وهروبًا سلبيًّا من الحياة وليس مواجهة للحياة وتطورها إلى الأفضل.

وإن تاريخ معظم الأديان يدلُّنا على ذلك الترابط بين النظام الاجتماعي الاقتصادي الحاكم وبين نوع الدين الذي يُفرَض على الناس، إن الدين المسيحي في بدايته كان دين الفقراء الذين بدءوا يحاربون السلطة الحاكمة المستبدة بالناس الظالمة لحقوقهم. والدين الإسلامي أيضًا كان دين الفقراء الذين قاوموا السلطة الحاكمة المستبدة والمستغلة لجماهير الناس. وكذلك أيضًا معظم الأديان، إن معظم الأديان تبدأ بدايات إنسانية، ولكنها بمرور الزمن تنتهي بانتصار النظم الاستبدادية الحاكمة، ووقوع الأغلبية الساحقة تحت رحمة الأقلية المسيطرة المستغلة، يصبح على الحكام أن يستغلوا الدين ضمن أي شيء آخر في حياة الناس، فيجردوا الدين من معناه الإنساني ومن مبادئه الأساسية الجوهرية، ويجعلوه سيفًا مسلطًا على رقاب الناس، ويصبح دينًا استبداديًّا يتفق مع الحكم الاستبدادي، ويساعده على استغلال الناس تحت ستار من الكلمات والشعارات الرنانة، فالعمل والكفاح والقناعة بالأجر الضئيل والموت في سبيل الوطن كلها قيم عظيمة مفروضة على الأغلبية المحكومة، أمَّا الأقلية الحاكمة فهي تستمتع بالراحة والجشع والثراء والأجور المرتفعة والبُعد عن خطر الموت في سبيل الوطن. وتسود في تلك الأنظمة — بطبيعة الحال — الازدواجيةُ في كل شيء؛ وذلك لأن الحكام يقولون أمام الناس أشياءَ ويمارسون في الواقع أشياءَ أخرى عكسية، وتنتشر الكلمات المعكوسة المزدوجة الكاذبة، ويتشدق الجميع بالصدق والعدل والحرية والحب، ويطفح الواقع بالكذب والنفاق والظلم والكراهية والقيود والسجون ونزلاء المستشفيات النفسية. وفي تلك الأنظمة يصبح أفضل البشر إمَّا داخل زنزانة السجن أو داخل زنزانة المستشفى النفسي، والفرق بين الاثنين ليس كبيرًا، فالثائر السياسي هو الشخص الذي يرفض الكذب والظلم والكراهية، ويسعى جاهدًا بكل قوته من أجل تغيير النظام الاجتماعي بنظام آخر يقوم على العدل والصدق والحرية والحب، والمريض

نفسيًّا (رجلًا أو امرأة) هو الشخص الذي لم يستطع أن يكره بطلًا ثائرًا كالسابق، ولكنه لم يستطع أيضًا أن يقتل ضميره تمامًا (كما فعل الآخرون)؛ ولذلك يتعذب وهو يمارس الكذب والكراهية والظلم، ويقوده العذاب إلى العُصاب والقلق والأرق والاكتئاب والهيستيريا.

ويتوقف علاج الطبيب النفسي للمرضى أو المريضات نفسيًّا حسب موقفه من النظام الاجتماعي الاستبدادي الحاكم، وحيث إن معظم الأطباء لا يعرفون شيئًا في السياسة أو المجتمع، وحيث إن الأنظمة الحاكمة الاستبدادية تفرض على الأطباء أو غيرهم من أصحاب المهن أن يفصلوا بين العلم والسياسة أو بين الطب والسياسة، ويصبح التعليم في المدارس والجامعات ليس تعليمًا من أجل المعرفة وفهم حقائق الحياة والمجتمع ولكن مجرد معلومات متفرقة غير مترابطة تؤهل الشخص للحصول على شهادة من أجل الحصول على وظيفة، ومن أجل سد الرمق فحسب.

لهذا يصبح أطباء النفس بغير موقف تجاه النظام الاجتماعي الاستبدادي الحاكم، ومعنى ذلك أنهم يستسلمون بغير تفكير لأية سلطة تحكمهم، معتبرين أن السياسة ليست من اختصاصهم، وهكذا يتفرغون لمصالحهم الخاصة، ويفصلون بين المريض والمجتمع، ولا يدركون الأسباب الاجتماعية التي تسبب المشاكل المرضية للإنسان، ويصبح كل همهم كيفية الاستفادة من مهنة الطب والإثراء عن طريق العيادة الطبية الخاصة، وهكذا يصبحون جزءًا من النظام الاستغلالي الحاكم، وينظرون إلى الخارجين على هذا النظام أو الرافضين له كمرضى بالعُصاب أو الجنون، ويتصورون أن الشخص العادي المتكيف مع النظام أكثر صحة نفسية من الشخص المُصاب بالعصاب والذي تمزقه الصراعات والعذابات، ويصبح العلاج في نظر هؤلاء الأطباء هو أن يتكيف المريض نفسيًّا مع المجتمع، ولا يكون ذلك إلا بقتل البقية من ضميره وتفكيره الحر المستقل عن طريق غسيل المخ بالصدمات الكهربية أو الحقن المهبطة للتفكير أو الأقراص المهدئة أو المنومة.

وقد أصبحنا نعلم الآن أن مقومات الصحة النفسية عند المرأة نفسها مقومات الصحة النفسية عند الرجل؛ فالمرأة إنسان والرجل إنسان، ومقومات الصحة النفسية للإنسان هي قدرته على النضوج والاستقلال، واستخدام عقله وقوته الذاتية من أجل ممارسة الصدق والعدل والحب والحرية لنفسه ولغيره من البشر.

ولكن هل يسمح الآباء والأمهات لبناتهم (وأبنائهم) بتلك الفرص التي تساعدهم على النضوج والاستقلال؟! هل تقوم العلاقة بين الآباء (والأمهات) وبين بناتهم (وأبنائهم) على الحب والحرية والمناقشة والاقتناع؟! أم تقوم على الخوف والطاعة والكبت؟!

لا بدَّ من الاعتراف بأن معظم علاقة الآباء (والأمهات) بالبنات (والأولاد أيضًا) تقوم على الخوف والطاعة أكثر مما تقوم على المناقشة والحرية والحب. إن كثيرًا من الآباء يتصورون أن الصرامة والشدة والتخويف كلها ضرورية لتربية البنات (والأولاد) تربية جيدة، وهم لا يَدْرون خطورة هذه التربية على الصحة النفسية لبناتهم وأولادهم. إنهم يتصورون أن الطاعة صفة حميدة، وقد يتفاخرون بأن بناتهم وأولادهم يطيعونهم ولا يعصون لهم أمرًا. والحقيقة أن هذه الطاعة ليست صفة حميدة، ولكنها مرض نفسي لا بدَّ من شرحه هنا.

عندما تخضع الابنة (أو الابن) لأوامر أبيها القاسي الصارم، عندما تخافه لدرجة أنها لا تستطيع أن تخالفَه، تصبح فتاة مطيعة مؤدبة، وتكبر شابة مطيعة مؤدبة، ولا تظهر عليها أي أعراض تلفت إليها نظر أطباء النفس، ويقولون عنها إنها تتمتع بصحة نفسية.

لكن علم النفس الحديث يكشف النقاب عن هذه الصحة المزيفة، ويقول إن هذه الابنة (أو الابن) بينما هي تكيف نفسها مع صرامة أبيها يحدث لها شيء داخلها، إنها تقهر عداوة متراكمة ضد أبيها وتكبتها؛ لأنها تشعر بالخطر لو أظهرتها، بل لو كانت على وعي بها، هذه العداوة المكبوتة (رغم أنها خفية) تخلق في نفس الفتاة قلقًا قد يُفضي إلى خنوع عميق، وقد يفضي إلى تحدٍّ غامض، ليس موجَّهًا ضد الأب بل موجَّه ضد الحياة بصفة عامة، وفي كلتا الحالتين الخنوع العميق أو التحدي الغامض غير المصحوب بفعل، تبدو الفتاة أمام الناس مطيعة مؤدبة، أو بمعنًى آخر متكيفة مع الظروف الخارجية.

إن هذا التكيف مع الظروف الخارجية (وخاصة في سن الطفولة المبكرة) غير صحي لنمو وتطور الإنسان نفسيًّا، فهذا الطفل الذي لا يستطيع أن يخالف والده يقمع في نفسه قدرته على التفكير النقدي، وباستمرار عملية القمع يفقد الشخص قدرته على التفكير النقدي نظرًا لأن الاحتفاظ بهذه القدرة أمر خطر وداعٍ لليأس أيضًا، وهكذا تصبح الابنة أو الابن مستعدًّا لقبول أفكار أبيه كما لو كانت أفكاره هو، وحين تصبح شابةً أو شابًّا يكون مستعدًّا دائمًا لقبول أفكار الآخرين كما لو كانت أفكاره هو، وهذا هو ما يُسمَّى في علم النفس بالتفكير الزائف؛ لأنه ليس نتاج تفكير الإنسان نفسه. والتفكير الزائف يُفضي بطبيعة الحال إلى رغبات زائفة، والرغبات الزائفة تُفضي إلى أفعال زائفة.

هذه النشاطات الذهنية الثلاث (التفكير – الرغبة – الفعل) هي التي تكوِّن النفس الأصلية للإنسان، وحينما تكون هذه النشاطات الذهنية ليست خاصة بالإنسان، بمعنى أنها ليست نتيجة نشاطه الذهني الخاص، وأنها لم تصدر عنه بل وُضعَت فيه من

الخارج، وأنه يستشعر ذاتيًّا لو كانت منه هو، حينما يحدث ذلك يكف الإنسان عن أن يصبح نفسه، إنه يعتنق نوع الشخصية المقدم له من جانب المجتمع؛ ولهذا فإنه يصبح تمامًا كما يتوقع منه الآخرون أن يكون.

والشخص الذي يتنازل عن نفسه ويصبح آلة متطابقًا مع ملايين الآخرين من الآلات المحيطة به يشعر بما يُسمَّى الأمن الاجتماعي، لقد اختفى منه الخوف الشعوري بالاختلاف، وهو لم يعد بحاجة إلى أن يشعر بالوحدة أو القلق، إنه يشعر بالحماية والأمن الاجتماعي، لكن الثمن الذي دفعه في سبيل هذه الحماية غالٍ جدًّا، إنه فقدان نفسه.

وبالرغم من صفات الطاعة والأدب والتكيف والنجاح الاجتماعي التي يتميز بها هذا الشخص إلا أنه أصبح من وجهة نظر علماء النفس لا يتمتع بصحة نفسية؛ فالصحة النفسية هي قدرة الإنسان على الاحتفاظ بنفسه الأصلية؛ وحيث إن النفس الأصلية تتكون من ثلاث عناصر (تفكير – رغبة – فعل)، فإن الصحة النفسية هي قدرة الإنسان على أن تكون أفكاره ورغباته وأفعاله أصلية، ونابعة منه حقيقة، ومعبرة عنه حقيقة.

إن أي كبت لأي عنصر من عناصر النفس الثلاث يستأصل أجزاء من نفس الإنسان الحقيقية، ويفرض بديلًا من الشعور الزائف أو التفكير الزائف لمن هو مصاب بالكبت. وعلى هذا يمكن القول إن الصحة النفسية تحتاج إلى أن يعيش الإنسان في جو خالٍ من الكبت على أفكاره أو رغباته أو أفعاله؛ بمعنى أنه في حاجة إلى أن يتحرر من القيود. لكن هذه الحرية من القيود ليست كل شيء، إنه لا يكفي للإنسان أن يتحرر من قيود العالم الخارجي ليستمتع بالصحة النفسية، إن هذه الحرية حرية سلبية كما يقول أريك فروم، وهذه الحرية السلبية تفصل الإنسان عن العالم الخارجي كما ينفصل الجنين عن جسد أمه. حينما يولد الطفل ينفصل جسده عن جسد أمه بضع سنوات حتى يستطيع الاعتماد على نفسه؛ وبذلك يتحرر منها نفسيًّا ويصبح إنسانًا مستقلًّا، أي حُرًّا بجسده الخاص ونفسه الخاصة. هذه الحرية الجسدية والنفسية التي حدثت للطفل هي حرية سلبية، لقد تحرر الطفل من جسد أمه وتحرر من حاجته البيولوجية والنفسية لها؛ أي إنه تخلص من القيد الذي كان يربطه كالوتد بأمه، وهو الآن يقف منفصلًا عنها، حُرًّا، وحيدًا، يواجه الحياة وحده ككائن منفصل ومستقل. هذه الحرية تعني الوحدة وتعني المسئولية، وتعني أيضًا القلق والخوف والإحساس بالخطر؛ ذلك أن الإنسان قد انفصل عن جسد الأم أو جسد الكون وفقد ذلك الأمان الذي تعوده حين كان جزءًا صغيرًا في شيء كبير، ولم يكن مسئولًا عن شيء، بل كان جسد الكون هو الذي يحركه وهو المسئول عنه.

ولهذا يصاحب هذه الحرية السلبية الأولى إحساس بالقلق والخوف والوحدة، ويحاول الإنسان أن يتغلب على حدته وعزلته وقلقه وخوفه بأن يبحث عن وسائل تجعله يتحد مرة أخرى بالكون أو أن يكون جزءًا من شيء أكبر؛ وحيث إن الإنسان لا يمكن بحال أن يعود إلى رحم أمه، إذن لا بدَّ أن يجد في المجتمع من حوله «حَبلًا سُرِّيًّا» جديدًا يصله بالعالم به، حينئذٍ يشعر بالأمان ويضيع منه الإحساس بالوحدة والانعزال والقلق.

ولكن هل يجد الإنسان في المجتمع هذا «الحبل السُّرِّي»؟! أو بمعنًى آخر: هل يوفر المجتمع للإنسان الظروف التي تجعله يقيم مع العالم علاقات حميمة؟! وبشكل أوضح: هل يعطي المجتمع للإنسان الحرية لأن يتحد مع العالم والناس؟!

والإجابة عن هذا السؤال: هي «لا»، ربما كان مجتمع العصور الوسطى مختلفًا، ولكن بالنسبة لمجتمعنا الحديث الذي تقوم فيه العلاقات بين الناس على التنافس وليس التعاون، والذي يواجه الإنسان قدره وحيدًا منعزلًا عن الآخرين، ويا ليتهم آخرون سلبيون لا شأن لهم به، ولكنهم آخرون متنافسون عدوانيون، ما إن يستشعر الواحد منهم ضعف الآخر حتى ينقَضَّ عليه كالسمك يأكل كبيرُه صغيرَه.

ولهذا فإن القلق والوحدة والخوف كلها أمراض عصرية يعاني منها إنسان المجتمع الحديث، الذي حصل على حرية سلبية ولم يحصل على حرية إيجابية، الذي تحرر من الروابط الأولية بالعالم لكنه عجز عن خلق روابط جديدة بالعالم، إن الحرية الحقيقية هي تلك الحرية الأخيرة التي يشعر بها إنسان حر مستقل نجح في أن يتحد بالعالم والناس.

ويقول علماء النفس: إن نجاح الإنسان الحر المستقل في الاتحاد بالعالم والناس يتحقق بالحب والعمل الخلاق المنتج؛ ولهذا فإن المجتمع الذي لا يوفر للناس الظروف التي تساعدهم على الحب وعلى العمل الخلاق المنتج هو مجتمع يشعر فيه الإنسان الحر المستقل بالقلق والوحدة والشك في معنى حياته وقيمتها وجدواها؛ ولهذا تزداد مأساة الإنسان في عصرنا الحديث كلما زادت حريته الفردية وزاد استقلاله؛ لأنه يتلفت حوله في العالم ولا يعرف ماذا يفعل بحريته واستقلاله، وليس عليه إلا أن يخوض حياة البورصة القائمة على التنافس وعدوان القوي على الأضعف. وبهذا تصبح القوة هدف الإنسان كي يسيطر على غيره، وهذه القوة لا تمنح الإنسان الحرية الإيجابية أو الحرية في الاتحاد بالعالم والناس عن طريق الحب والعلم الخلاق المنتج، بل هذه القوة تسبب لصالحها قلقًا أشد؛ بسبب الخوف من فقدانها؛ ومِنْ ثَمَّ التعرض لانتقام الآخرين الذين سبق له أن أخضعهم.

إن انتشار الأمراض النفسية وبالذات القلق في عصرنا الحديث، وعلى الأخص في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة إنما هو نتيجة حصول الإنسان على وجه واحد من الحرية هو الحرية السلبية. أمَّا الحرية الإيجابية التي تساعد الإنسان على أن يحقق ذاته المستقلة من خلال عمله الخلاق المنتج أو من خلال حب حقيقي مع الآخرين، هذه الحرية الإيجابية لم يحصل عليها الأغلبية الساحقة من البشر في معظم الاجتماعات، ربما حصل عليها بعض أفراد قلائل استطاعوا أن يحققوا ذواتهم المستقلة من خلال عمل خلاق وحب حقيقي، ولكن الأغلبية من الناس يعملون عملًا متكرِّرًا يبعث على الملل وليس فيه خلق جديد، والهدف منه الحصول على لقمة العيش، وكذلك الأغلبية من الناس لا يحبُّون حُبًّا حقيقيًّا، ولكنهم يدخلون في علاقات نفعية من أجل الحصول على قوة أو مال أو حماية من أي نوع.

وقد أجمع علماء النفس على أن الحرية الإيجابية هي الوسيلة الوحيدة التي يحصل بها الإنسان على الهدوء والأمان والانسجام مع العالم. هذه الحرية لا يمكن أن تتحقق في مجتمع يقوم على التنافس والاستغلال، وإنما تتحقق في مجتمع يقوم على التعاون بين الناس، لكن التعاون بين الناس لا يمكن أن يحدث إذا شعر الناس أنهم غير متساوين؛ فالإحساس بالمساواة شرط من شروط التعاون؛ ولهذا يرتبط دائمًا التعاون بالمساواة، والتنافس بالاستغلال وعدم المساواة.

وبغير التعاون لا يحدث الحب، وبغير الحب يشعر الإنسان بالقلق والوحدة وعبث الحياة، وهذا هو السبب في انتشار هذه الأعراض عند الشباب في مختلف أنحاء العالم، وانتشارها أيضًا في أدب القرن العشرين وفنونه، ذلك الأدب أو الفن الذي يعبر عن أزمة الإنسان الحديث، أزمة إنسان حصل على وجه واحد من الحرية هو الحرية السلبية التي مزَّقت صِلاته القديمة بالعالم والناس، وتركته عاريًا وحيدًا يواجه معارك البطش والنهب والتنافس، يخرج منها في جميع الحالات (منتصرًا أو مهزومًا) قلقًا مذعورًا؛ ذلك أنه يشعر دائمًا بأنه وحيد، وبأنه منعزل عن الآخرين، وأن الآخرين يقفون له بالمرصاد.

إن فقدان الحب في حياة الناس هو الذي يسبب لهم الأمراض النفسية، ولكن الحب مرتبط بالمساواة بين البشر والعدالة والصدق والحرية؛ ولهذا تزيد نسبة الأمراض النفسية بين النساء؛ لأن المجتمع لا يساوي بين الرجل وبين المرأة، ولأن المرأة تُفرَض عليها قيود أكثر من الرجل. إن الرجل — بالذات من الطبقات الكادحة والمحكومة — يتعرض لقيود سياسية واقتصادية ونفسية في عمله خارج البيت، أمَّا المرأة فهي تتعرض بالإضافة إلى ما

سبق إلى قيود أخرى خاصة وحدها كامرأة، سواء داخل الأسرة أو في المجتمع الخارجي؛ ولهذا يقع الظلم على المرأة مضاعفًا. وفي ظل هذا الظلم لا يمكن أن ينشأ الحب بين الرجال والنساء؛ فالقيود تفرض على المرأة أن تكذب، والحب لا يمكن أن يوجد في ظل الكذب.

الحب هو أن يشعر الإنسان بصدق، ويرغب بصدق، ويفعل بصدق، الحب هو فعل المشاعر والرغبات الصادقة. ومن أهم ما قاله كير كجارد: إن الحقيقة لا توجد في حياة الإنسان إلا من خلال الفعل، وحيث إن الصحة النفسية تضيع الحقيقة من حياة الإنسان؛ لهذا فإن الفعل ضروري لصحة الإنسان النفسية، والفعل معناه أن يعمل الإنسان فعلًا، أن يطبق أفكاره النظرية في الحياة الواقعية الحقيقية، فالعمل هو النتاج الطبيعي للفكر، والفكر الذي لا يعقبه عمل يظل فكرًا بعيدًا عن واقع الإنسان، أي بعيدًا عن حقيقته، لمعنًى آخر، يظل فكرًا خياليًّا، والصحة النفسية لا ترتبط إلا بالحقيقة والأفكار الحقيقية، أمَّا الخيال فهو مرحلة سابقة للحقيقة فحسب، وأي خيال لا يتحقق أو غير قابل للتحقيق يصبح من الأوهام وليس من الأفكار.

أن يفكر الإنسان وأن يعبر عن أفكاره بحرية أمر ضروري للصحة النفسية؛ فالفكر كما سبق أن ذكرت أحد الأنشطة الذهنية الثلاث المكونة للنفس الأصلية للإنسان. إن الكبت كبت الفكر داخل الرأس والخوف من إبداء الرأي يجعل الإنسان متوتِّرًا في أعماقه، يتصارع فيه الجزء الحقيقي من نفسه مع الجزء المزيف، الجزء الذي يريد أن يعبر بصدق عن نفسه والجزء الذي يريد أن يزيف نفسه خوفًا من الأذى. إن الأب الذي يعاقب ابنه أو ابنته لأنه عبَّر عن أفكاره بصدق، أو المجتمع الذي يعاقب أي إنسان لأنه عبر عن أفكاره بصدق، يخلق أمام الناس جوًّا من الخوف يجعلهم يكبتون أفكارهم وتتصارع أعماقهم، فإذا انتصر الجزء الحقيقي من الإنسان عاش الشخص قلقًا ينتظر وقوع العقاب بين لحظة وأخرى، وإذا انتصر الجزء المزيف عاش الإنسان مطمئنًّا من الناحية الاجتماعية، لكنه قلق من الناحية النفسية بسبب فقدانه لجزء هام من نفسه.

ومن الأفكار التي تُكبَت بسرعة تلك الأفكار التي تتعلق بأمور حساسة في المجتمع. ويختلف كل مجتمع عن الآخر في درجة حساسيته، ونوعيتها، لكن معظم المجتمعات في العالم تجد حساسية متفاوتة الشدة (حسب نوع المجتمع) تجاه أمور ثلاثة في الحياة، هي الدين والجنس والسياسة؛ ولهذا فإن معظم الأفكار التي تُكبَت هي تلك الأفكار المتعلقة بأمر من هذه الأمور الثلاثة.

ويتميز العقل البشري بقدرته على التفكير والتحليق في أي سماء، خاصة العقل الشاب الذي لم يفقد مرونته وشجاعته بعد؛ ولهذا كثيرًا ما نرى شبابًا وشابات، بالذات في سن ما حول العشرين، مُصابين بالقلق والتوتر النفسي، حين يبدأ عقلهم يناقش موضوع الوجود والله، وحينما يبدو لهم أن هناك بعض التناقضات بين الأفكار التي تجول في عقولهم، وبين المُسلَّمات التي يجب أن يؤمنوا بها. ويُصاب الشاب أو الشابة منهم بحيرة شديدة، يزيدها خطرًا أنه يخشى أن يفاتح أحدًا بأفكاره فيُتَّهَم بضعف الإيمان، أو أنه يتجرأ ويُفاتِح أباه مثلًا، فإذا بالأب يلومه ويتهمه ولا يناقشه، ويشعر الشاب بالذنب وأن أفكاره آثمة، وأن عقله فاسد لأنه يفكر في أمور لا يصح التفكير فيها. ويُفضي الإحساس بالذنب بطبيعة الحال إلى الرغبة في عقاب النفس، وقد يوقع الشاب أو الشابة العقاب على نفسه بالانطواء والانعزال عن مباهج الحياة، وقد يجد في إيلام نفسه بعض الراحة أو اللذة (بدء الماسوشية)، وقد تصل الرغبة في إيلام نفسه إلى حد الإيذاء الشديد، أو قد يجد الراحة الكبرى في أن يقتل نفسه جسديًّا أو فكريًّا بطريقة أو بأخرى.

وفي أحيان أخرى تكون الشابة أو الشاب محظوظًا، فتسوقه الظروف إلى إنسان منفتح العقل والقلب، يستطيع أن يحظى معه بنقاش حر هادئ، يخرج منه سليم النفس والعقل؛ فهو لا يشعر بالذنب لأنه يفكر، ولكنه يتعلم كيف يستمع إلى أفكار الغير، وكيف يناقشها، وكيف يكون إيمانه بأي شيء عن اقتناع حقيقي وليس عن خوف أو تقليد. ويصبح مثل هذه الشابة أو الشاب في المستقبل إنسانًا غير مكبوت الفكر، إنه يملك القدرة على التفكير بحرية في أي شيء، ويكسب المجتمع مفكِّرًا جديدًا، أو على الأقل مواطنًا يشغل عقله في أمور الحياة، وليس ذلك الشخص المعطَّل العقل الذي تحركه عقول الآخرين.

ويأتي بعد الدين موضوع الجنس، هذا الموضوع الحساس الذي يكاد يمثل في العالم أجمع مشكلة لصحة الشباب النفسية، إن مجرد التفكير في هذا الموضوع (ولا أقول الممارسة الفعلية) قد يُصيب الشاب بالقلق والحيرة والإحساس بالذنب. هناك تلك الفتاة التي تصل إلى الاعتقاد بأنها آثمة ومدنسة وتستحق العقاب حتى الموت لأنها تحلم برجل في فراشها، وقد تحاول الانتحار عدة مرات. وكم من شبان وشابات عانوا وتعذَّبوا نفسيًّا بسبب الإحساس بالمهانة والعار لممارستهم العادة السرية، وبالرغم من أن علماء النفس والأطباء كتبوا الكثير في السنوات الأخير عن العادة السرية، وأنها مرحلة من مراحل النمو الجنسي من الطفولة إلى المراهقة، وأن التخويف منها هو الذي يخلق كل ما يصاحبها من اضطرابات نفسية أو جسدية، إلا أن كثيرًا من الشباب لا يزالون يشعرون بالذنب والإثم حين يمارسونها.

إن أجسام الشباب والشابات قوية، ورغباتهم ومتطلباتهم أيضًا قوية وحقيقية كملمس أجسامهم، لكن متطلبات المجتمع أيضًا قوية وضاغطة، ويتولد الصراع الحاد في نفس الشابة والشاب بين ما يحسه ويرغبه بقوة وبين ما هو واجب ومفروض عليه بقوة أيضًا، ويشعر بعض الشباب بالأزمة النفسية حين يحسُّون بوضوح التناقض الحاد بين متطلبات أجسامهم البيولوجية والنفسية وبين متطلبات المجتمع الأخلاقية.

ويصبح من الصعب في ظل هذا الصراع أن يتمتع الشاب أو الشابة بصحة نفسية، إنه لو أطاع رغباته في الخفاء (تفاديًا لعقاب المجتمع) تولد لديه إحساس بالذنب يفتك بصحته النفسية، وهو لو ضرب عرض الحائط برغباته وكبَتها أصبحت كالبخار المضغوط الذي يفتك بلا شك بصحته النفسية. ويتعرض عدد غير قليل من الشباب من الجنسين لهذا الصراع في الفترة ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين؛ أي في تلك السنوات العشر الحرجة في حياة الإنسان، حين يكون الشاب أو الشابة من وجهة النظر الطبية والصحة النفسية مؤهَّلًا بل في حاجة شديدة إلى الجنس، لكنه من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية لم يصبح مؤهَّلًا للزواج بعد.

أمَّا الأمر الحساس الثالث وهو السياسة، فهو أكثر الأمور حساسية حتى الآن في معظم مجتمعات العالم، وهناك بعض المجتمعات التي سمحت لأفرادها ببعض الحرية في مناقشة أمور الدين، أو ببعض الحرية في ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج، إلا أن أكثر المجتمعات تحرُّرًا في هذه النواحي لا تزال ترهب رفع الخطر عن موضوع السياسة، ولا يزال الإنسان في أي مكان من العالم مُعرَّضًا للضرر (يتفاوت الضرر من مجرد التشهير إلى التجويع إلى الحبس أو حتى القتل) إذا ما تناقضت أفكاره مع أفكار القوى المسيطرة في المجتمع.

ويعاني الشباب والشابَّات أكثر من غيرهم من هذا الكبت الفكري السياسي؛ لأنهم وبحكم سنهم أكثر براءةً وصدقًا من الذين تقدَّم بهم العمر وتدربوا على الكياسة والسياسة والدهاء والمداهنة. ويعيش الشاب والشابة منهم الصراع بحدة إذا أراد أن يعيش صادقًا، فإذا انتصر صدقه أقلقه الشعور بالتهديد والخطر الذي قد يطارده في عمله وفي بيته، وإذا انهزم صدقه أقلقته نفسه التي تؤنبه على خنوعه ونفاقه، وكلا الحالين بطبيعة الحال يبعدان صاحبهما عن الصحة النفسية.

إن الصحة النفسية للإنسان مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بقضية الحرية في أي مجتمع من المجتمعات؛ فالحرية لصحة النفس كالهواء أو الأكسجين لصحة الجسد، إن قلَّ الأكسجين فسد الدم وإذا انعدم مات الجسد كله. وكذلك بالنسبة للحرية، إذا قلَّت فسدت النفس،

وإذا انعدمت ماتت النفس، وإن ظل الجسد حيًّا يُرزق، لكن حياة الجسد في تلك الحالة ليست إلا حياة عضوية أو بيولوجية كحياة الكائنات الأدنى من الزواحف ووحيدات الخلية.

والحرية المعنية هنا ليست مجرد أن يتحرر الإنسان من قيود العالم الخارجي (أو ما تُسمَّى الحرية السلبية)، ولكنها الحرية الإيجابية يهدف بها الإنسان لتحقيق ذاته من خلال العمل المنتج الذي يحبه، والذي عن طريقه يستعيد روابطه بالعالم الخارجي، لكنها الآن ليست روابط مفروضة أو قيودًا، ولكنها صلات إنسانية تربط الفرد الحر المستقل بخير مجتمعه الأكبر وتطوره المستمر نحو تحقيق العدالة بين البشر والحق والحب والحرية.

إن نفس الإنسان هي نفس الإنسان سواء كان ذكرًا أم أنثى، وإن الإيجابية والقوة والصدق والعدل والحرية صفات المرأة الصحيحة نفسيًّا كما هي صفات الرجل الصحيح نفسيًّا. إن الصحة النفسية للمرأة لا تتحقق إلا من خلال الحب والعمل المنتج تمامًا كالصحة النفسية للرجل، وإن ثالوث النفس (الفكر – الرغبة – الفعل) عند المرأة يحتاج إلى الحرية نفسها التي يحتاجها الرجل، وإن أي كبت لأي عنصر من عناصر النفس يسبب عند المرأة القلق والضيق والمرض الذي يسببه للرجل، وأن المرأة في حاجة إلى الحرية الإيجابية (وليس السلبية فحسب) لتحقيق ذاتها كعضو منتج في المجتمع، ولا يكفي المرأة الطبيعية أن تحقق ذاتها من خلال الزواج أو ولادة الأطفال. إن الأمومة وحدها لا تكفي المرأة لتستمتع بالصحة النفسية، تمامًا كالأبوة التي لا تكفي الرجل ليتمتع بالصحة النفسية؛ فالمرأة كالرجل تحتاج لتحقيق ذاتها إلى عمل منتج في المجتمع، تحتاج إلى فعل، تحتاج إلى أن تفكر وأن تكون أفكارها نابعة من نفسها وليس من الآخرين، وتحتاج إلى أن تكون رغباتها صادقة نابعة من نفسها وليس ممن حولها.